الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة العقيد الحاج لخضر – باتنة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمات النقدية القديمة في الشعرية العربية

(دراســـة وتــحليـــل)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص: شعرية عربية

إعداد الطالبة:
نبيلة أعبش

إشراف الدكتور:
إسماعيل زردومي

السنة الجامعية:2010/2009
1431/1430

شكر وتقدير

أشكر أولا وأخيرا الله على مساعدته لي في اتمام هذا البحث .

وأقدم خالص شكري وامتناني إلى أستاذي الفاضل واللسان الحكيم :إسماعيل زردومي الذي مهما شكرته لن أوفي صنيعه ولن أحصي جهده الذي قضاه في إثراء هذا البحث بمناقشاته وشروحاته وتوجيهاته القيمة فجعلني ومن خلال صبره ،أتخطى كل الصعاب وأتجاوزها .

دون أن يفوتني أن أشكر رئيس قسم الشعرية الذي فتح المجال لمثل هذه الإنتاجات التي ستشهد له بالفضل ،كما لا أنسى هيئة المدرسين في مخبر الشعرية التي شاركت في توصيل الرسالة الأدبية وإنمائها بمجوداتهم الجليلة .

وأوجه امتناني كذلك إلى كل أعضاء لجنة المناقشة على كرم القراءة وإثراء البحث بمناقشاتها المفيدة وأخص بالذكر :د/الأستاذ على خذري ،أ/عبد الرزاق بن السبع ،أ/مصطفي البشير قط ،كما أشكر أستاذي الكريم المسؤول عن طلبة الماجستير أ/ عيسى مدور الذي أحاطني بالمساعدة والدعم الكافيين .

وإلى كل الأساتذة والزملاء وكل من ساهم ولو بقليل في إخراج هذا البحث المتواضع إلى النور .

مقدمة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والتسليم على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم أجمعين .

لقد قامت على خدمة التراث العربي القديم في مجال النقد والشعر والبلاغة واللغة دراسات كثيرة لا تنقصها الجدية أو التنوع ، بحيث تناولت كثيرا من جوانب هذا التراث بالدرس ،فوضعت المؤلفات في موضوعاته المختلفة وتاريخه وترجمات أعلامه وآرائهم إلى غير ذلك، غير أن هذه الكتابات على كثرتها جاءت مهتمة ومقتصرة على نص واحد دون غيره وهو المتن دون الالتفات بوجه خاص إلى ما يحيط بجانب هذا النص من نصوص محاذية التي عدت من أسس الكتاب في حد ذاته ،والذي يتمثل في النص الموازي ،أو الخطاب البدئي أو المقدمة لهذه التأليف والإبداعات و بالتالي تتعدد التفسيرات وتختلف الآراء مع بقاء المكان متسعا لأية محاولة للدرس الشامل والربط بين الجزئيات بمقولة تجمعها وتفسير يعمها.

ويتصدى البحث لإبراز كينونة الخطاب النقدي كما صورتها كتابات النقاد العرب القدامى على اختلاف أنواعها ،والدعوة إلى توضيح شعرية المقدمة أو الكتاب وكيفية هيمنته على المتلقي الذي يعد العامل الأساسي في إثراء القراءة ،هذه القراءة التي تعتمد طريقة التذوق والفهم والتقويم وتعني شعرية القراءة "ابتكار الأفق الخاص بهذه الطريقة لمواكبة الأفق الإبداعي الفني بواسطة النص والتمييز بين التجارب الشعرية والقدرة على التقويم الجمالي الفني " ،لكن إذا كنا لا نلتمس قيمة شعرية المقدمة في إبداع القدامى في كونها مطابقة أو في كونها أداة ،فأين نلتمسها ؟ نلتمسها في شيء آخر هو ما نسميه بطاقة الكشف عن علاقات جديدة بين الكلمات والأشياء والإنسان من خلال عوامل كثيرة منها اللغة والواقع والتاريخ ...

وذلك طبعا من أجل القدرة على توليد إيحاءات جديدة تنقلنا إلى عالم لا نعرفه أو فكرة لم نتطرق إليها وتوصلنا إلى معارف وأفكار لم يسبق أن عرفناها أو كشفناها ،وانطلاقا من السؤال الخاص: كيف نقرأ الخطاب النقدي أو المقدمة شعريا ؟يمكن أن نطرح السؤال العام :كيف نقرأ شعريا تراثنا النقدي البدئى –المقدمة -؟ والجواب عن هذه الأسئلة لابد من الغوص داخل هذه المؤلفات لنستنطقها ونكشف ستار العلوم منها ،بحيث

ننظر إلى هذا التراث بوصفه كلا ونعنى به حتى تكون شعرية القراءة الناجحة لهذه الكتابات تحتوى على الطابع الفنى والنقدي والإبتكار .

إذن مادام هناك نص آخر وجب أن يكتب بنفس الإهتمام والتأنق ،فهو تتميم للنص الذي لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بدون أن يكون تامتا ،ذلك أن النص هو مولود المؤلف وواجب عليه أن يتأنق في اختيار كسوته ،ومن هنا وجب أن نفهم أن المقدمة كانت لها وقفات طويلة عند أكثر العلماء القدامى سواء في حديث المقدمات أم العنونة أو التقريظ ...وغيرها من المصاحبات ولهذا فضلت أن أن أصف في بداية هذه الدراسة طرق العلماء في الكتابة على مستوى المقدمة .

والمقدمة كونها تقدم بين يدي المتلقي المهتم مجموعة من مفاتيح القراءة التي بإمكان شخص القارئ استغلالها في قراءة النصوص الإبداعية وفهمها ،بدءا من فهم صناعة التأليف منذ انطلاقتها الأولى عند المؤلف إلى غاية وصولها بين يدي القارئ .

وموضوع بحثي هذا والموسوم "بالمقدمات النقدية القديمة في الشعرية العربية " والذي حاولنا من خلاله الكشف عن الدور الذي تلعبه المقدمة في ابداعات العلماء المسلمين القدماء والتي تظهر النص كله ،وتجعله متميزا يتهاهت القراء للإطلاع عليه ،وكشف ما فيه من أفكار وقضايا ،وهذا الموضوع كنت وقد اخترته من بين عدد من الموضوعات التي اقترحها الأساتذة الكرام ،كما أن اهتمامي به هو محاولة متواضعة للإجابة عن بعض الأسئلة الجوهرية منها لماذا كان العلماء القدامى يركزون على مقدماتهم ويتقنون صنعها ؟ وما هي الوظائف التي تميزت بها المقدمة النقدية حتى وصلت إلى الساحة الأدبية وقد حققت اختلافات كثيرة ؟.هذه الأسئلة وغيرها التي حاولت الإجابة عنها من خلال ظهور هذا الشكل من الكتابة الفنية .

وفيما يخص المصادر الأساسية للبحث فقد اطلعت على طبعات واصدارت مختلفة من عدة كتب منها : صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ،وقدامة بن جعفر في نقد النثر ...، واعتمدت فيما يتعلق بكتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء) على الطبعة التي مهد لها الناشر الألماني (هل) والتي صدرت طبعتها الأولى عام 1982م، وكتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) فقد عولت كثيرا على الطبعة التي حققها وظبط نصها مفيد قميحة الصادرة في طبعتها الأولى عام 1981م. ولم أغفل باقي الإصدارات الأخرى

للكتب التي استفدت منها في بعض المقارنات من خلال التشبيه والتقابل وموازنة ،كما اعتمدت على عدة مراجع حديثة ،ساعدني أستاذي المشرف :إسماعيل زردومي على الإطلاع عليها وتوسيع فكرتي للموضوع وحتى تتضح الصورة ويكتمل البناء.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة:

ففي المدخل حاولت أن أكشف الستار عن بنية خطاب المقدمة عند العلماء المسلمين القدامى من خلال تلك الروابط التي تساعد القارئ على الوصول إلى ماهية هذا الخطاب النقدي ويطلع على مدلوله الحقيقي والغاية التي من أجلها وضع هذا النوع من التأليف عند العلماء ،خاصة وأن المقدمة تتظافر فيها عدة عناصر ووحدات التي جعلت منها كتابة فنية لها أسسها ومبادئها ، وفي الفصل الأول من البحث، والذي عنوانه "مكونات خطاب المقدمة" تطرقت فيه إلى ذكر أهم العناصر التي تكونت منها المقدمات المختارة ،وتحليل ما فيها من وظائف ومميزات التي تساعد في إنماء النص وتقويته .

وأما الفصل الثاني، المعنون "بأصناف المقدمات "فهو عبارة عن جولة فسيحة وغنية بالمعارف والمواضيع النقدية، والبلاغية والتأليفية واللغوية ، من أجل إبراز خصائص كل مقدمة عن الأخرى واظهار الجودة الفنية لكل واحدة منها ،كما عرفت هذه الدراسة بشغف القدامى بأمر العنونة وشدة اهتمامهم بعناوين كتبهم المتعددة القضايا ،وكيف كانوا يبنون هيكلها ويعملون على لفت انتباه القراء إليها . والفصل الثالث الحامل عنوان "القضايا النقدية في المقدمات " الذي يمثل نقطة التقاطع الإيجابي في تلاحم المفاهيم والقضايا في هذا الموضوع من خلال إبراز مجموعة من الأهداف المشتركة التي جاءت بها المقدمات النقدية على كافة النواحي، ودورها الفعلي في تحديد شعرية الكتاب من خلال تلك القوانين التي تفرزها لرسم طريق موائم يجد فيه النقد طريقه لعرض مادته بطريقة إقناعية بحتة.

وأنهيت بحثي بخاتمة بينت من خلالها أهم النتائج التي توصلت إليها انطلاقا من المدخل كأرضية لبناء البحث أو ما اشتملت عليه الفصول الثلاث من استنتاجات وقراءات وتصورات.

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث فهو متعدد، نجد المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي والفني، وقد انصرف همي إلى إتباع منهجية واضحة تعتمد على استنطاق النصوص النقدية وتحليلها وفقا لما تقتضيه المادة والموضوع.

إذن فموضوع شعرية المقدمات القديمة في نصوص القدماء ظل بعيدا عن التناول الفاحص والمتابعة العلمية ومجمل الكتابات التي تعرضت له لم تكن إلا اقترابات سطحية أحاطت ببعض الجوانب وأهملت أخرى، ولعل تناول هذه المقدمات بهذا الضرب من المعالجة يظل مؤشرا هاما على الحفاظ عليها وفهمها وحل قيمتها، فكما يقال " على قدر المقدمات تكون النتائج".

وفي الختام لا أنسى فضل أستاذي الكريم الدكتور إسماعيل زردومي، الذي أمدني طوال رحلتي مع البحث بالنصائح والتوجيهات اللازمة فسهل مهمتي بتواضعه الجم وصدره الرحب، فله مني خالص الشكر والامتنان والاحترام.

وأوجه أسمى آيات الحب والتقدير إلى والدي الكريمين وإخوتي وأخواتي وكافة الزملاء والأساتذة الكرام. وخير ما أختتم به مقدمتي هذا الدعاء:

«اللهم اجعلني صغيرا في عين نفسي وكبيرا في أعين الناس»

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

نبيلة اعبش

باتنة في:19أكتوبر2009 م

26 شوال 1430هـ.

المدخل

المقدمات والكتابة في التراث العربي القديم

1- مفهوم المقدمات ونشأتها
2- النص الموازي وأهميته
3- أنواع المقدمات ووظائفها
4- المقدمة والكتابة

مفهوم المقدمات ونشأتها:

اعتاد القدامى التقديم لمؤلفاتهم بخطب وتمهيدات، يذكرون فيها الدواعي والتحفيزات التي حملتهم على التأليف، مبينين من ذلك خطتهم في إلقاء المادة وعرضها والقضايا التي خاضوا فيها وقد اصطلح عليه القدماء"بالخطبة "وهي إحدى عتبات النص الممهدة لقراءته فقد سادت هذه الطريقة في إبداء الآراء ووجهات النظر حتى الآن والتي تظهر في الوسائل الإعلامية كأن يلقي الرئيس خطابا لشعبه، وأن يلقي الإمام يوم الجمعة خطبته التي تشترك فيها أمور الدين والدنيا والعباد.

هذه الخطب الممهدة للحديث كله هي عبارة عن مقدمات أو عتبات النص التي" تعكس مجموعة من العناصر المعرفية والمنهجية والأخلاقية التي لا غنى للقارئ عنها في فهم المتن وإتمام قراءته في يسر وفائدة ومتعة، فالمقدمة بهذا الشكل مساحة معرفية استغلها القدامى لتعريف القارئ بمجموعة من تفاصيل القراءة المقبل عليها"[1]. والأهم من ذلك أن نتعرف على المعنى الدقيق للمقدمة معنى واصطلاحا ودلالة قبل التطرق إلى أمور أخرى، قالوا: "مقدمة كل شيء أوله،وهي ما استقبلك من الجبهة والجيش، والمقدمة هي الناصية،والقُدائِمُ: القديم من الأشياء..."[2].

وجاء في المعجم الوسيط قالوا:" والمقدمة من كل شيء أوله ومن الجيش طائفة منه تسير أمامه، ومنه يقال مقدمة الكتاب وأيضا مقدمة الكلام."[3], أما رأي العرب في المقدمات فإنها قالت: " مقدمة البناء: الأساس، ومقدمة الزواج: النية مقدمة الكلام: بسط الموضوع والتعريف بمقاصد الكلام فيه، ومن هنا كانت المقدمة الأساس الذي ينبني عليه المتن، وفي الاصطلاح تكون المقدمة: قطعة من الكلام أقل من المتن يقدم بها المؤلف كتابه، فيشرح من خلال مجموعة من مكوناتها المرتبة والمنظمة ونهجه وظروف خطته وتأليفه وكذا ما يرمي إلى تحقيقه من أهداف " [4].

فكما اشتهرت بعض الكتب قديما وذاع صيتها واهتم الدارسون بذكرها والإطلاع عليها، فعدت عماد الأدب وأساسه أربعة كتب هي: الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد **(ت 285 هـ)** والبيان والتبيين للجاحظ **(ت 255 هـ)** وأدب الكاتب لابن قتيبة **(ت 276 هـ)** والأمالي لابن علي القالي **(ت 356 هـ)**، هذه المؤلفات التي اشتهرت وعرفت كذلك بالمقدمات التي جاءت فيها والتي حوت على العديد من القضايا النقدية والأدبية المهمة.

(1) مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم والموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 71 سلسلة. بحوث ودراسات 22، ط$_1$،2003 وجدة، ص: 22.

(2) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت ط$_3$، 1994 (مادة قدم) ص: 12/466-472.

(3) د/ إبراهيم أنيس و د/ عبد الحليم منتصر، المعجم الوسيط، دار المعارف بمصر 1973، ج 2 ط$_2$، ص: 719 – 720.

(4) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 23.

ومع مرور الوقت ظهرت كتب أخرى كان لها نفس الاهتمام والعناية. والمقدمة كمطلع القصيدة تمتاز بالجدة والرشاقة" فالكاتب من أجاد المطلع والمقطع ويكون مبنيا على مقصد الكاتب، والاعتناء بالمطلع اعتقاد يتأسس على نظرة جمالية تمتد مادتها من غرة الفرس عند العرب، فإذا استملحوها استملحوا الجواد كله فهي التي تطل على الناس وتؤثر فيهم، وكما يكون المطلع من ناحية أخرى طعما يلقى إلى القارئ لاستدراجه وحثه على مواصلة القراءة والاستمرار فيها، وقد فطن الكثير إلى أن تلك التهيئة للمتلقي ضمان لجلب الانتباه واستمالة الأسماع"(1).

فكانت المقدمة بهذا المفهوم، تعد ركيزة كل تأليف وإبداع، هذه المقدمة التي أطلقت عليها عدة تسميات منها: الخطبة والتمهيد والديباجة والاستهلال وغيرها، التي لا يمكن أن تفارق النص أو يفارقها، فطبيعة التأليف هي التي تجعل المبدع أو الكاتب يدرك انه لا يوجد أي عمل دون واجهة تظهر مزاياه وجمالياته الشكلية والمضمونية، والتي تساعد على قراءة النص قراءة فاعلية من خلال الفهم والإدراك لكافة بنياته ووحداته الداخلية والخارجية، واستكناه مقاصده وأغراضه، فالمقدمة تبقى دائما مفتاح الحيرة التي تسيطر عليه، والمساعد على كشف رموز النص وعلاماته الخفية.

وجيرار جينيت الذي اعتمد عليه الكثير في موضوع العتبات تنظيرا ودراسة، يعتبر هذه العتبات مجرد لواحق التي نستعين بها لتقديم مجموعة من المقدمات القرائية بين يدي القارئ، أو لنقل مجموعة من الأجوبة التي تبقى بحاجة إلى تمحيص وإعادة نظر في ضوء كينونة النص الداخلية."(2) فقد شبه هذه العتبات أو المقدمات بعتبة الدار التي قد لا تعبر أحيانا عما يوجد داخله بشكل صحيح من إنسان وأثاث وهندسة وعلاقات فكرية بين العائلة، فهو يراها تمثل المحيط الدائر على النص فقط ولا يمكن أن تتعداه – غير أن هذه المقدمة لا تكون من قبيل " العبث الفني الذي يوضع على رأس الكتاب دون أن تكون له صلة بمتنه، بل لابد له أن ينبئ عن مقاصده ويكشف عن البنية الكامنة وراءه، فهو دليل القارئ إلى صلب النص والالتفات إلى هذه الظاهرة ويكشف أن مسار الذائقة الجمالية، كانت تتعلق بالمظهر ابتداء، ثم تتخذه تعلة لولوج خواطر النفس كما أسماها من قبل، ولهذا يكون للمطلع إذن يكسب قوته من تلك الدعوة التي يوجهها إلى القارئ من جهة، ومن كونه مدرجا يرقى بالقارئ إلى متاهات النص المعنوية. "(3)

---

(1) د/ حبيب مونسي: نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، دار الغرب للنشر ط 2000، 2001، ص119.

(2) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 12.

(3) حبيب مونسي: نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص 123 – 124.

إذن فهذه العتبات – المقدمات – وكل ما يمت بصلة قريبة، أو بعيدة إلى هذا الذي دعوناه لواحق النص تبقى مجرد مصاحبات قد توضع بشكل واع من لدن المؤلف، فيدقق في اختيارها ويضعها بطريقة مواكبة ممهدة لما سيعرب عنه النص كما أنها في نفس الوقت، كل ما يجعل من النص كتابا يسمح بعرضه للقراء، وبصفة عامة للجمهور فالأمر يتعلق بعتبة تدعو المتلقي إلى اقتناء الكتاب، وقراءته أو ضرب صفح عنه، فهي واجهة الكتاب الهندسية والدلالية واللفظية التي تفيد القارئ بمجموعة من المعارف والإشارات التي سيبني عليها ابتداء رغبته في قراءة ذلك الكتاب ودفع ثمنه أو العدول عن ذلك بالمرة."[1] وقد تجد هذه العملية الإبداعية ملاذا عند بعض القراء والواقع يؤكد ذلك.

وحتى يأخذ المصاحب طريقه إلى قلب القارئ لابد أن تتوافر فيه "قصدية المؤلف ومسؤوليته الواعية على كل ما يأتي به داخل مؤلفه حتى يكتسب ذلك البعد الجمالي في فن الكتابة إذ أضحى علامة على جودة المكتوب، ودليلا على مضمونه ما لم يحمد من القائل أن يعمي معرفة مغزاه على السامع لكلامه أول ابتدائية حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر كلامه دليل على مقصده ،" لأن هذا البعد الجمالي للمقدمة يخدم غرضين في آن: أن يكون الأول شدا للانتباه وجلبا للإصغاء ومواصلة القراءة، ويكون الثاني تمهيدا يعلم عما يأتي بعده، وقد اتفق علماء البلاغة والصناعة أن لهذه التقنية من الشرف والمكانة ما يجعلها محط كل عناية واهتمام."[2] لما كان لهذه الأعمال من حسن وإثارة وجرأة وتعبير مقنع في نفس الوقت.

والتقديم في أبسط تعريفاته " فهو لا يعدو أن يكون مصاحبا أو لاحقا أو عتبة لكيان آخر أهم سيأتي بعده، وتكون فائدة النص في أنه مقصد وهدف، بينما يؤدي المصاحب وظيفة الوسيلة أو القنطرة أو نقطة الوصل لبلوغ ذلك الهدف أي المتن الذي نرغب في قراءته، وهنا يكون النص وحدة متناسقة تمارس وجودها الفعلي من خلال حضورها الداخلي في عناصر البنية اللغوية وحضورها الخارجي فيما تحيل عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ومن مرجعيات قريبة أو بعيدة."[3] ويمكن تشبيه مقدمة النص كمطلع القصيدة الشعرية من ناحية التأثير والإقبال والأهمية، ذلك أن هذه الاستهلالات هي "الطليعة الدالة على ما بعدها، المنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها إذا كانت بنسبة من ذلك وربما غطت بحسنها

---

(1) مصطفى سلوي :عتبات النص ص14

(2) د/ حبيب مونسي: نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص 126.

(3) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 15.

على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها."[1]

ذلك أن ارتباط المطلع بإثارة انتباه القارئ وإيقاظه عن طريق الابتداء بما يحسن به أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وتشويق وغيره.

فالنص سواء تعلق بالتأليف أو بالإبداع ينزل مع القارئ بمجموعة من المصاحبات التي اعتاد الكاتب الإتيان بها حماية للنص مما يتعرض له بسبب التقادم وعوادي الزمن والأمد والضياع، والانتقال من مكان لآخر، من تلف وتزييف ونهب وتحريف، فلم تعد العادة إذن هي التي تدفع رجال التأليف إلى " الإتيان بهذه المصاحبات بقدر ما أنها كانت وما تزال أمرا لازما وضروريا، ذلك أن العتبات إجراء ثابت في ترتيبه زمن الكتابة متحول مرن زمن القراءة."[2]

وبالتالي من الأفضل قراءة خطاب المقدمة أولا ثم المرور إلى قراءة باقي النصوص اللاحقة، وما دامت المقدمة هي الركن الأول للكتاب يستحب الإطلاع عليها بحسب الترتيب المخصص لها، لأن هذه المقدمات يتأتى فهمها الصحيح من خلال إدراك الغاية والوظيفة التي يقوم عليها تضامن المتن مع التقديم، ومن خلال ذلك التداخل الذي تبنيه هذه المقدمات مع النص لتصبح جزءا لا ينفصم عنه، حتى وإن تطورت الكتابة واختلفت مضامينها وأسسها المتداولة، وفي نفس الوقت لابد أن تعطى عتبات النص ولواحقه حقها دون المبالغة في ذلك، حتى وإن جاءت في صفحة واحدة، وربما هذا يعود إلى ضيق الوقت عند كتابتها، أو لقلة المؤثرات التي لم تستطع إقناع القارئ بها، وهذا لا يمنع من أن " العلاقة الموجودة بين النص ولواحقه هي علاقة اتصال وتعضيد، ولم تكن أبدا علاقة انفصام وتشتيت."[3]

والنص باعتباره أصل والعتبات فروع، وحتى نفهم الأصل لابد أن نعي الفرع أيضا وبالتالي فالعتبات هي وسيلة ذات حدين، لها دورها المزدوج في إنماء النص وتقويته.

---

(1) د/ حبيب مونسي: نظرية الكتابة ص 124.

(2) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 18.

(3) المرجع نفسه، ص 18 – 19.

النص الموازي وأهميته:

إن الجهود التي بذلها الدارسون فيما أطلقوا عليه اسم " النص الموازي **" para texte"** نقلا عن الغربيين، دليل على شدة اهتمامهم للوصول إلى معناه الدقيق، هذا اللفظ الذي عرف باسم مصاحبات النص أو عتبات النص وغيرها، بالرغم من أن كل هذه التسميات قد تطرح أمام الدارس مجموعة من التساؤلات المتتالية، إلا أنها في الأخير تؤدي إلى معنى واحد، ونوع من الخطاب الذي يعد لاحقا للنص. هذا يعني أن المبدع يقوم بتأليف نصين اثنين: النص الأول قد يكون: [قصة، رواية، مقالة، خطبة...] ثم النص الموازي الذي هو عبارة عن مجموعة من العناصر المتممة للتأليف. الذي لابد أن يكون فيه" المؤلف مطالب بتوفير شتى عناصر الانسجام والتكامل بين النص ولواحقه."(1)

هذه العملية التي يقوم بها صاحب التأليف الحقيقي تجعله مطالبا باستكمال كل العناصر الضرورية لعمله، انطلاقا من هذه العتبات وصولا إلى الخاتمة، حتى يضع نقطة النهاية لعمله. وهذه العملية شبيهة بتسمية الوالد لولده فيختار له أجمل الأسماء، خاصة أن هذه التسمية تعتبر دلالة على صاحبها ومقاصده وغاياته التي ينشدها من خلال ذلك العمل. ولجيرار جينيت فضل كبير في التنظير والتطبيق لمصطلح العتبات، الذي درس الموضوع وأحاطه بالعناية اللازمة وبرهن على ضرورة الالتفات إلى هذه المصاحبات التي لها دور في توحيد أجزاء النص، وتعطيه دلالة وعمقا أكبر، كما أنه كان للعلماء المسلمين القدامى دورهم في توقفهم للحديث عن هذه المقدمات بشكل واسع ومفصل وكتبهم دليل على ذلك.

وذلك أن النص وحده يعد "عاريا، إذا ما ساعدته هذه المصاحبات اللفظية التي تعمل على إنتاج معناه ودلالاته، فالنص يوازي النص الأصلي، فلا يعرف إلا به ومن خلاله حتى تنتج عملية التأثير على القارئ واستقطاب اهتمامه للموضوع المطروح. وفي نفس الوقت قد يرى البعض أن العتبة مهما بلغت من الأهمية، هي مجرد عتبة أو لاحقا، لأنها لا يمكن أن تصل إلى مستوى النص الحقيقي، فهي تعتبر جزءا والمتن كل ومن الصعب أن يدل الجزء على الكل وبخاصة حين يتكون هذا الجزء من فقر لغوي مدقع، حتى وإن كان لهذه المصاحبات إقبال من حيث الدراسة والتنظير لأنها ستظل عبارة " عن مفاتيح في قراءة النصوص وفهم التأليف منذ انطلاقتها الأولى من المؤلف إلى غاية وصولها بين يدي القارئ

---

(1) د/ عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة الخانجي بمصر 1980 القاهرة، ص 195.

مرورا بمكونات النشر وما تستلزمه هذه المرحلة من طقوس وقواعد."[1]

ورغم كل شيء فقد أحاط العلماء القدامى هذا الجانب بالعناية والدراسة بشكل قطعي ومقنع وإلمامهم بعناصر خطاب المقدمة فهما وترتيبا وتوظيفا، حين مارسوا صنعة التأليف في اللغة والأدب والبلاغة والفقه وغيرها... لأنها جميعا تعد من الأشكال الإبداعية التي لها قيمتها وكلها تصب في نهر واحد هو تبليغ المعرفة الإنسانية من جيل إلى جيل بلا مقابل، ولذلك كان للنص الموازي دوره في تعميق الفهم والاقتراب من النص ومؤلفه و مقاصدهما حين تعاقدا معا على فعل الكتابة والقراءة المنتجة، وله الفضل في حماية النص ومشاركته تلك الخصائص التي ترفع من قيمته من خلال هذا العطاء المعرفي الأصيل، " ومن هنا كانت المصاحبات النصية جزءا له دوره التكاملي، وشكلا من أشكال التأليف الذي يأتي به الكاتب، أيا كان مجال اهتمامه أو نوعه أو شكله."[2] فالنص بهذا المفهوم رسالة حية ومهمة ،تمثل كينونة باقي النصوص الأخرى –المتن- ومدى ارتباطها ببعض.

---

[1] مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 09.

[2] المرجع نفسه: ص 10.

أنواع المقدمات ووظائفها:

أخذت دراسة الأدب عند العرب قديما بنظرة الأخذ من كل فن بطرف، فكانت الكتب المتوسطة، والكتب الرفيعة، والكتب ذات الطابع المعاصر، وغيرها بحسب تطور وتقدم الزمن، أما في عصرنا هذا، فقد اتصل العرب بغيرهم من الأمم غير العربية واستفادوا من مناهجهم في الدرس والتأليف، فزادت المؤلفات في الحياة الأدبية عند العرب، حسب الحقب الزمنية وبعضها حسب الظواهر الأدبية، وبعضها حسب الأعلام والاتجاهات، وكان نتيجة لذلك، أن كانت هذه الدراسات الأدبية في بعض وجوهها صورة لتأليف العرب على منهجهم القديم."[1]

فالمقدمة النقدية التي تساعد في كشف الحقائق الوظيفية التي بني عليها نص المؤلف، هذا النص الذي يعتبر خطاب المقدمة فيه " قطعة تأتي في بداية التأليف لتعلن عن ألوانه، فهي عتبة من عتبات أخرى يستغلها المؤلف لتوجيه القارئ انطلاقا من جملة من المكونات التي يجمعها جمعا واعيا ويرسلها لتحقق مقاصدها عند المتلقي الذي بدوره يفهمها على أنها اضاءات لابد من الإلمام بها قبل اقتحام المتن، وقبل تعرف هذه المكونات، نقف على أنواع المقدمات انطلاقا مما سمح به الاستقراء، وهي ثلاثة: موسعة ومضيقة ومضافة. "[2]

أ- المقدمات الموسعة:

سميت بالموسعة لأن المؤلف أحاط فيها بجميع مكونات الخطبة، ابتداء من البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم، وصولا إلى دواعي التأليف وجنسه وخطته ومصادره ثم الزمان والمكان اللذين وقع فيها التأليف والختم بالحمد، كما أن المؤلف وسع فيها دائرة الحديث " عن جميع الإضاءات التي من شأنها أن تقدم بين القارئ معرفة إجرائية يستغلها في فهم المتن، وهذا الضرب من المقدمات كثيرة في مؤلفات القدامى، خاصة المتأخرين الذين انتهت إليهم صنعة التأليف بتفاصيلها وقواعدها، ونادرا ما وجدنا مقدمة موسعة في المراحل الأولى لبداية التأليف خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين."[3]

وهذا النوع هو الذي يهمنا في الدراسة التحليلية التي سنقوم بتشريح عناصر بعض الأعمال الأدبية في الفصول القادمة.

---

[1] دا محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص 03 (مقدمة المؤلف).

[2] مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 24.

[3] المرجع نفسه: ص 24 - 25.

ب - المقدمات المضيقة:

هذا الضرب من المقدمات يقوم على أساس أن المؤلف ضيق فيها مساحة البحث أو الحديث عن هذه المكونات التي سبق الحديث عنها، وجاء حديث المؤلفين بخصوص هذا النوع من المقدمات مقتصرا على أمور ثلاثة: دواعي التأليف وجنسه وخطته، ومن المؤلفين من اقتصر على المكونين الأولين دون الثالث، إضافة إلى البسملة والحمدلة والتصلية أو بدونها " وهذا الضرب من المقدمات هو الذي صاحب المراحل الأولى لحركة التأليف عند العلماء المسلمين القدامى، ووجدناه أيضا عند كثير من المتأخرين ممن أوجزوا إيجاز مخلا في كتابة مقدمات كتبهم."[1]

جـ - المقدمات المضافة:

سميت بذلك لأنه أضيفت إلى الكتاب بعد أن لم تكن فيه، ذلك أن كثيرا من أهل التآليف من العلماء المسلمين المتقدمين في هذه " الصناعة كانوا يعتمدون نهج الإملاء في تعليم طلبة العلم فلم تسعفهم الوسيلة في تدوين أماليهم أو لم يمنحهم الله سبحانه بسطة في العمر للقيام بذلك، فتولى تلامذتهم جمع تلك الأمالي ووضعوا لها مقدمة، ويبقى الصدر الأول من زمن حركة التأليف مجال هذا النوع من المقدمات، وهي قليلة جدا."[2] , كانت هذه أهم المقدمات التي صنعها العلماء المسلمين القدامى، لما اهتدوا إلى وضعه من التأليف والكتابات، وكان الضرب الأول والثاني هما اللذان حوت عليهما المقدمات القديمة كما سنرى لاحقا، وتبقى القراءة الفعلية والجيدة هي التي تحكم بين هذه الأعمال، ذلك أن شعرية القراءة لهذه المقدمات " هي تحويل الكتابة من مكان اكتشاف، وأدوات اكتشاف وعلامات اكتشاف أيضا."[3]

وللوصول إلى الغاية التي نترصدها، لابد أن نعي كذلك أن حسن الاهتمام والتقبل لهذه الخطبة، في حد ذاتها واعتبارها جزء من أجزاء النص الضرورية، هي خطوة للتذوق والفهم والتقويم، ويمكن أن نسمي هذه الظاهرة والعملية بشعرية العتبات النقدية التي " تساعد في ابتكار الأفق الخاص بهذه الطريقة لمواكبة الأفق الإبداعي في النص المقروء أو المكتوب."[4]

والكتابة وإن كانت فعلا ذكيا تتحقق بجملة شروط موضوعية، فإن طبيعة النص تتركب من أجزاء مترابطة لا تنفصم عراها أو تبلى قواها، بل هي آخذة في التطور والاستمرار في معرفة قيمة وسر هذا التوحد بين كليات النص وجزئياته، خاصة إذا حقق

---

(1) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 25.

(2) المرجع نفسه: ص 25 - 26.

(3) د/ أدونيس: كلام البدايات، ص 37.

(4) المرجع نفسه، ص 37.

هذا التوحد في كيان اللغة محوري اللفظ والمعنى وراعت هذا التواؤم والتآلف في بناء كلي متكامل.

وظائف المقدمات:

يعكس خطاب المقدمة الذي اعتاد العلماء المسلمون القدامى أن يقدموا به لمؤلفاتهم ثلاث وظائف أساسية:

1- الوظيفة التأصيلية: وهي التي يعرب عنها السؤال: (لماذا ألف المؤلف هذا الكتاب؟) ونظير هذا السؤال في زمن التلقي (لماذا نقرأ هذا الكتاب؟) ودعوناها بهذا الاسم لأنها تتصل بالأصول الأولى التي كانت من وراء التأليف في زمن الكتابة، وأيضا من وراء القراءة في زمن التلقي، " فهي التي تعرب عن (لماذا؟) هذه التي يطرحها المؤلف كما يطرحها القارئ كل في زمانه والظروف التي صاحبت اهتمامه بموضوع الكتاب، وتتمحور الوظيفة التأصيلية حول مجموعة من معينات القراءة التي يأتي بها المؤلف في مقدمته، على رأسها: الدواعي الذاتية والموضوعية التي دفعته إلى الكتابة، وجنس التأليف وزمانه ومكانه وأصوله، بالإضافة إلى إشارة المؤلف في مقدمته إلى أهمية موضوع تأليفه وجدته."[1]

2- الوظيفة الإيصالية: وهي الوظيفة التي يقوم عليها فعل التواصل والتراسل بين المؤلف والمتلقي المفرد الذي ألف له الكتاب، " والمتلقي الجمع الذي اهتم في زمن ما بقراءة ذلك الكتاب، وهذا المتلقي الجمع فريقان: متلق جمع قريب وهو المتلقي المعاصر لزمن الكتابة ومتلق جمع بعيد، وهو نحن الذين ورثنا بعد فترة قراءة الكتاب، والاهتمام بموضوعه وتدور هذه الوظيفة الإيصالية بعد هذا حول السؤال: (لمن ألف المؤلف هذا الكتاب؟) والإشارة هنا قائمة حول الداعي الذاتي الذي كان من وراء فكرة التأليف، وهذا الداعي يجسد فكرة التواصل بين المرسل للنص والكتاب وهو شخص المؤلف، والمرسل إليه وهو شخص المتلقي الذي أمر أو أشار أو رغب المؤلف في تأليف ذلك الكتاب، كما تظهر هذه الوظيفة من خلال معين آخر اهتم بإيراده كثير من العلماء المسلمين القدامى في مقدماتهم، وهو بعض التوجيهات التي كان يأتي بها المؤلف يثير من خلالها انتباه القارئ إلى بعض الخصوصيات في كتابه."[2]

---

(1) مصطفى سلوي، عتبات النص: ص: 27.

(2) المرجع نفسه، ص 27 - 28.

3- الوظيفة التفصيلية: وتسمى أيضا بالوظيفة التنظيمية أو التنسيقية أو التفسيرية وهي التي يعرب عنها السؤال: (كيف ألف المؤلف هذا الكتاب؟) ونظير هذا السؤال في زمن القراءة هو: (كيف نقرأ هذا الكتاب؟)، و سميت بهذا الاسم لأن المؤلف يجنح فيها إلى "تفصيل أغراض الكتاب و مقاصده و كيفية تأليفه، فهو هنا يضع بين يدي القارئ مجموعة من مفاتيح القراءة التي تساعده على حسن التتبع و الإدراك السريع للفوائد التي ينطوي عليها الكتاب، و من أبرز معينات هذه الوظيفة في خطاب المقدمة، اهتمام المؤلف بعرض خطته في التأليف، و تعداد الأقسام و الأبواب و الفصول، و التوسع في شرح عنوان التأليف و تبيان الغاية من اختياره دون غيره، و ليس هناك مؤلف لا يضع في اعتباره مجموع هذه المعينات قبل الإقبال على التأليف، و القارئ بدوره يحتاج إليها حتى تتم الفائدة و المقصد من ذلك التأليف".[1]

لمن و لماذا يكتب الأديب ؟ سؤالان وضعهما من قبل سارتر، و هما سؤالان إذا أضفنا معهما سؤالا آخر فنقول كيف نكتب؟ ونعني به الأسلوب الخاص الذي يواتي للتعبير عن مرحلة معينة، ولا يواتي غيرها، ونعتقد أن على كل من يكتب أن يطرح نفسه هذه التساؤلات الثلاث قبل الإقدام على فن الكتابة "لأن ذلك قد يوضح للكاتب الخط العام الذي ينبغي أن تسير فيه أفكاره في إطارها المخصص والمناسب، ونحن نعرف أن عهد الكتابة من أجل الكتابة ولّى وحل محله عهد عادت فيه الكتابة رسالة يحملها الأديب ودورا يلعبه لتعليم المجتمع أسس الفهم والنجاح في الوصول إلى النقطة الرئيسية للموضوع، أين يتواصل كل من الكاتب والقارئ أو المرسل والمستقبل من أجل غاية مشتركة."[2]

والكلام عن الأسلوب الذي ينبغي أن يستخدمه الكاتب الأديب في أعماله الفنية إجابة في الحقيقة عن السؤال: كيف نكتب؟ فنحن لا نتحدث عن اللغة والأسلوب من حيث الصعوبة واليسر، وإنما عن الجوانب الفنية في عمل الكاتب، وفي قربه من نفسية الجماهير أو بعده عنها، لأنه يكتب لشعب له اتجاه معين ولمتلقي له غاية محددة لقراءته لمثل هذه الأعمال والإبداعات الأدبية، لأنه في غالب الأحيان ينتقي دائما ما يعجبه ويراه مناسبا له بدء " من نوع الكتابة وأسلوبها والطريقة في إبداء الحجج والإثباتات وكذا الإقناع الأدبي الذي يحتاج هو الآخر إلى الدقة والنظر الغير محدود، وأيضا إلى وساعة الخبرة في الحياة وعمقها وهنا تكون الموضوعية عنصر لابد منها، فهي تخاطب العقل والضمير والنفس في هدوء وإقناع ووضوح..."[3]

[1] مصطفى سلوى ،عتبات النص، ص 28.

[2] د/ محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ص 211.

[3] مصطفى سلوى ،عتبات النص ، ص 214.

والتركيز في التعبير والإيحاء في الكلمات شيئان ضروريان لتفكير القارئ وتكوينه الشخصي وهذا شرط آخر للكتابة الناجحة التي تفرض على القارئ نوعا معينا من التفكير، وهذا لا يكون طبعا إلى بعمق الفكرة التي يقدمها الكاتب، وتركيز العبارة وشحنها بأكبر قدر ممكن من المشاعر، من أجل (إنتاج كتابات هادفة وعميقة وباعثه على التفكير والنشاط الموصل إلى النجاح.

فهذه الأهمية التي تربط عناصر النص ببعضه، وتوحد الكاتب بمتلقيه، هي إشارة على أن هذه الغاية ترتبط أساسا بمجموعة الوظائف التي تحققها المقدمة داخل البحث،والتي يمكننا حصرها فيما يأتي:

1- توضيح الهدف من القيام بالدراسة.

2- إعطاء خلاصة عن أدب الدراسة،أو نبذة عن الأبحاث السابقة التي عالج فيها أصحابها نفس الموضوع.

3- شرح مقاصد البحث، والأسلوب المتبع لدراسة الموضوع.

4- الإتيان على ذكر بعض العناصر المشجعة لكتابة البحث، وذلك مثلا، كتوفر وثائق جديدة، وتطورات ساعدت على بلورة الموضوع.

5- تقديم شرح قصير، عن كل فصل أو جزء من الدراسة حسب التسلسل الموجود فيها مع التركيز على النقاط الرئيسية التي تم التعرض لها في ذلك الجزء من الدراسة."[1]

ولذلك تكمن وتتحدد القيمة الحقيقية لأية دراسة علمية في أمرين أساسين هما:

1)- الثغرة أو الثغرات التي تسدها في محيط الدراسات التي ينتمي موضوعها إليه.

2)- نوع الأسئلة التي تجيب عليها، أو الموقف المشكل الذي تتصدى لمعالجته مثلا لماذا كتب المؤلف تلك المواضيع، وبدأ كتبه بتلك المقدمات.؟

وهذه الأعمال قامت على خدمة التراث العربي في مجال البلاغة والنقد والتأليف والشعر وغيرها، فالدراسات كثيرة ولا تنقصها الجدية."[2] والذي نسعى إليه على كل الأحوال هو معرفة الدوافع والأسباب التي أدت إلى هذا التنوع من التأليف أي المقدمات أو عتبات النص وفوائدها الدلالية والأدبية.

تلك أهم الوظائف التي انطوى عليها خطاب المقدمة، كما صنعه العلماء المسلمون القدامى طيلة قرون في التأليف، وهي وظائف مرتبطة أشد الارتباط بمعينات التأليفات والقراءات التي ستعد دائما محور كل دراسة وهدف كل مهتم بالأدب العربي القديم.

(1) د/ عمار بوحوش: دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 92.

(2) د/ عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي، ص 03 (مقدمة المؤلف).

الكتابة والمقدمة :

تعد الكتابة المحور الأساسي في تناقل الموروثات والثقافات من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة ، هذه الكتابة التي أوصلت إلينا إبداعات العلماء القدامى المسلمين ،كاملة وجعلتنا نطلع على أفكارهم وعلومهم الواسعة والتي من خلالها تتجسد قدرتهم وأيضا تفانيهم في خلق هذه النماذج من الأعمال التي كونت الأجيال وألهمت نفوس المتشوقين للمعرفة والآداب .

فالكتابة معناها الجمع، " ومنها سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى البعض، وعلى حد ذلك قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذا وغيره " **إِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ كِتَاباً** " أما معناها الاصطلاحي:" فقد عرفها صاحب مواد البيان: بأنها صناعة روحانية*1 تظهر بآلة جثمانية*2، دالة على المراد بتوسط نظمها."[(1)] والكتابة كفن تحددت ملامحه على يد كوكبة من كتاب الدواوين والمؤلفات، الذين كان لهم الفضل في نشر علمهم وثقافتهم ،وأن يضعوا اللبنات الأولى للعلوم ويأصلوها بما وضعوه من مبادئ وأسس التي جعلتهم يختارون هذا الفن دون سواه من الفنون الأخرى.فأصبح هذا السبيل أي الميل إلى الكتابة النثرية على حساب الكتابة الشعرية، حتى أصبح العديد من الكتاب يثنون على قيمة الكتاب دون الشعراء أو العكس وبالتالي مقام الكتاب أرفع من مقام الشعراء ،لأنهم الأقرب إلى الملوك والأمراء ، وهم ألسنتهم الناطقة ، ويعود انتشار الكتابة وتطورها إلى غلبة العقل وقضايا الفكر والمنطق ، وانحسار موجة الخيال التي سادت الأدب طيلة القرون الأولى.

فلما كان الأمر على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعز ، وعددهم أنزر وقد وسمتهم الكتابة بشرفها ، وبوأتهم منزلة رياستها ،فأخطارهم عالية بحسب علو صناعتهم ، ومعاقد رياستهم ، وشدة الفاقة إلى كفايتهم"[(2)] واعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء،موجبه تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين:أحدهما أن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتتان فيها ، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة ...

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للمؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ج 1، ص: 51.

*1 الألفاظ .

*2 الخط

(2) المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ،ص 20

والثاني:أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة ، وتوصلوا به إلى العلية وتعرضوا لأعراض الناس ...ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم ، أن الإعجاز من الله تعالى جده والتحدي من الرسول صلى الله عليه وسلم وقعا فيه دون النظم."[1]

ومن هذا المنحى أخذت الكتابة طابع أفضل الصناعات"التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها ، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها"[2]. والمقدمة مهمة كالكتابة " وهي من أكد ما يحتاج إليه الكاتب، وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام، وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسخت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتّاب."[3]

والفرق بينهما أن الأولى يشافه بها بخلاف الرسالة المكتوبة، والكاتب المتمكن هو الذي يلم بالقرآن فيحفظه ، وبالشعر العربي فيخبره ، وبكلام العرب وأخبارها وأيامها فيعرفها ، ويطلع على كل مثل سائر وحكمة بليغة ،لأن هذا ما يعطيه صفة الفصاحة والبيان والإفهام ، وخاصة إذا" اجتنب المستكره الشائن من الألفاظ، والمتكلف الجافي من المعاني، حتى تستصغيه الآذان وتستلطفه القلوب وينزل ساحتها كالقطر البارد في التربة العطشة"[4] .

وكان هذا هو النهج الذي سار عليه علماؤنا القدامى من خلال كتاباتهم الفنية التي كانت مشبعة بالمواضيع الضرورية لكل مهتم بالأدب القديم فدرسوها وأبانوا خصائصها ووقفوا على أسرارها البعيدة ، فعرفونا على علوم اللغة والبلاغة والنقد والتصنيف والفقه وغيرها ، خاصة وأن كتابتهم سارت على خطى القرآن الكريم ، فهي روحه وجذوره ، واللغة العربية لغته والأدب كافة عبارة عن نسيج حي من تعاليم هذا الدين الخالد . والخطيب يغازل النثر ويعرفه أكثر من أي إنسان ، والشاعر كذلك له أهمية كبيرة والدليل تلك الأبيات التي تمازجت فيها الأحاسيس بالواقع فكونت لنا صورة بديعة لا نستطيع مفارقتها وسيظل النثر والنظم هما عماد الكتابة والركيزة التي لا يمكن فصلها مهما ورد التفاضل والتمايز بين كل من الشاعر والخطيب ما دامت الغاية واحدة ومشتركة بينهما وهي نشر الثقافة العربية وهذا هو الأساس والهدف الذي يبحث عنه الباحث والمتلقي .

[1] المرزوقي،شرح ديوان الحماسة ، ص16-17

[2] القلقشندى : صبح الأعشى ،ص 09

[3] المصدر نفسه : ص 10

[4] أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ،ص132

فضلها ودورها:

وفيما يخص فضل هذه الكتابة يقول القلقشندى أنها: " أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه، واعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: " **اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.**"(1) ثم يبين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته: " **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين.**" فزاد ذلك تأكيدا ووفر محله إجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتاب وما يسطر به فقال تقدست عظمته: " **ن والقلم وما يسطرون**". ثم كان نتيجة تفضيلها، وأثره تعظيمها وتبجيلهـــا، أن الشارع ندب إلى

مقصدها الأسنى والحث على مطلبها الأغنى، فقال صلى الله عليه وسلم:« **قيدوا العلم بالكتاب**».(2)

والكتابة إحدى الصنائع، فلابد فيها من الأمور الأربعة: " فمادتها:

1- **الألفاظ**: التي تخيلها الكاتب في أوهامه وتصور من ضم بعضها إلى البعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة.

2- **الخط**: الذي يخطه القلم ويقيد به تلك الصور، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة.

3- **وآلتها**: القلم.

4- **وغرضها**: الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوة النطق وتصل فائدته للأبعد كما تحصل الأقرب، وتحفظ صوره، ويؤمن عليه من التغيير والتبدل والضياع... ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب، وقع الحض من الشارع عليه والحث على الاعتناء به تنبيها على أن الكتابة من تمام الكمال."(3)

والكتابة كما قال المؤيد أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة، إليها ينتهي الفضل وعندها تقف الرغبة، ومن كلام أبي جعفر أنه قال: الكتابة أس الملك، وعماد المملكة وأغصان متفرقة من شجرة واحدة، والكتابة قطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفصل، وميـــــزان يدل على رجاحة العقل، والكتابة نور العلم وفدامة العقول وميدان الفضل والعدل

(1) سورة العلق: الآية 03 – 04.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ص 35

(3) المصدر نفسه، ص: 36.

والكتابة حلية وزينة ولبوس، وجمال وهيبة وروح جارية، في أقسام متفرقة، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل حق الكتابة، فقد وسم بوسم الغواة الجهلة، وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونبلا تصورا جميعا تصورت الكتابة، ولو أن الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صنعة، وقال زبير ابن بكار: الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة، وقال ابن المقفع: الملوك أحوج إلى الكتاب، من الكتاب إلى الملوك". [1]
واختار الشاعر ابن الرومي أن يفاخر بين السيف والقلم قائلا:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت لـــه الرقـــاب ودانت خوفـــه الأمـــم

فالموت والموت لا شيء يغالبــــه مـــا زال يتبـــع ما يجـــري به القلـــم

هذا والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلف مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف، ففرقه أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها، وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات، وطائفة اهتمت بتدوين الرسائل ليقتبس من معانيها لأنها تعد بمثابة الوحي وكذا الإشارة لاعتمادها الإيجاز والدلالة والخصائص، فالجاحظ يعطي للكتابة مدلولا آخر فقال:"ليست وظيفة الكتابة عنده مجرد إفراغ مزيج من المعلومات التي تدل على ثقافة الكاتب، لكي يثقف بها القارئ، بل تتمثل وظيفتها الأساسية في الكشف عن شخصية الكاتب وفلسفته اللغوية والكلامية والأدبية من ناحية، ثم في التعبير عن موقفه إزاء أنماط من السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية من ناحية، فإذا أضفنا إلى ذلك وظيفة أخرى وهي إمتاع القارئ بالأسلوب الفكاهي والنوادر الطريفة، أدركنا إلى أي حد استطاع الجاحظ أن يطور الكتابة الأدبية من عصره من ناحيتي أسلوبها وهدفها."[2] ومن هنا فالكتابة "إذن البحث عنها في ثنايا الكلمات، في انكساراتها وفراغاتها، في تموجاتها التي تحدد حقيقة ما يكتبه الكاتب."[3]

ومما يتصف به الكاتب أمور أربعة وهي : "عدم التكلف والاسترسال على السجية، وعفة اللسان واتزان القول في صحيح الكلام، والحث على الكتابة الصحيحة والمقنعة من خلال صدق المعاني وعدم زيفهـــا، والألفاظ تحيي المعاني إما بالإخبار أو بالاستعمال،

(1) القلقشندي، صبح الأعشى : ص 44

(2) د/ عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية، دار النهضة العربية بيروت، لبنان ص 140.

(3) د/عبد الله التطاوي :الموقف الفكري والنقدي ،ص 113.

وفائدة هذه الألفاظ بالطبع هي التقرب من المعنى المراد إيصاله إلى الغير."[1] وخلاصة القول، أن المقدمة النقدية التي وصفت بها مقدمات العلماء القدامى تميزت بطابع التفرد ، وهي مؤشر واضح وصادق لما احتوته عقلية كل من الأديب سواء كان ناثرا أو شاعرا من حس تراثي أدرك قيمته فكان من أغلى الممتلكات التي لا يمكن التخلي عنها مهما طالت الأزمان عليها .

كان للقدماء نظرتهم الخاصة للمقدمات أو الفواتح النصية، وكانت آراؤهم في ذلك تتعدد بتعدد المواضيع والأهداف التي دعتهم إلى التأليف ،فالمقدمة عندهم شملت كل مناحي النصوص الشعرية والنثرية، وهذا يعود طبعا إلى ما تحرزه هذه المقدمات من دور مهم في جسم التأليف، والربط بين المقدمة والموضوع يعد لونا آخر من الجدة خاصة حين نحس باتصالهما اتصالا محكما لا ينفك أحدهما عن الآخر،وتظهر هذه المقدمة وبأنواعها:النقدية،والبلاغية،واللغوية،والنقدية،والتأليفية،في صدر كل كتاب والتي من خلالها يصب المؤلف مادته العلمية تظهر دقة تفكيره وبعد تصويره إضافة إلى البراعة وجمال التشخيص وفنية الربط بين أجزاء الموضوع بعضها ببعض .

ويمكن أن نشبه هذه المقدمات التي بنت لنفسها مكانا مهما، بمطلع القصيدة الذي يعد هو الآخر ركن القصيدة كلها ومفتاحها السحري، الذي يهتم به القراء دون غيره من الأبيات، وقد ثبت أن معظم هؤلاء" يدورون دائما حول بيت واحد هو المطلع ولا يلتفتون إلى المقدمة كاملة، وكثيرا ما عودنا الشعراء منذ الجاهلية أن يستهلوا مدائحهم بألوان تقليدية تصغي لها الأسماع وتميل نحوها الأفئدة."[2]

فإذا كانت القصيدة العربية تتكون من ثلاثة أجزاء هي: الفاتحة وصف المعركة ومدح المعتصم فالمقدمة النثرية تتكون من عناصر أساسية هي:البسملة والحمدلة والدعاء وأسباب التأليف ودواعيه وان كان ديوان أبي تمام مثلا يتكون من أربعة مقدمات موروثة هي :المقدمة الطللية ومقدمة وصف الفراق والوداع، والمقدمة الغزلية ، ومقدمة الشباب والشيب، فان المقدمة النثرية هي أيضا تنقسم حسب مضامينها ومواضيعها إلى مقدمة نقدية ، وبلاغية... والسبب الذي جعل الشعراء يتمسكون بهذه النماذج القديمة في الكتابة هو طبعا" المحافظة عليها والتمسك بها، ومراعاة طولها وقصرها وتقاليدها وصفاتها وعناصرها، لأنهم إن حادوا عنها كان الضياع مصيرهم والخمول جزاءهم."[3]

---

(1) د/محمد بركات حمدي أبو على :دراسات في الأدب ،دار وائل للنشر ط1 ،1999/2000،ص27

(2) د/ حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل بيروت، لبنان ط$_2$ 1987، ص 180.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار صادر بيروت ج$_1$ ص 22.

وهذا هو السبب أيضا الذي حمل الكتاب على تأليف المقدمات التي لخصت أهدافهم فجعلوها تمهيدا لما سيأتي بعده، وهي منهج ظل متداول حتى الآن، وهذا يعود إلى أهميته في توضيح الفكرة قبل الولوج إليها عن كثب في المتن.والكاتب الحاذق هو الذي " يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء ".[1] أو القراءة.

وعلى كل حال يبقى فضل العلماء القدامى سواء كانوا كتابا أو شعراء متواصلا ،خاصة من خلال إبداعاتهم الخلاقة وما استحدثوه من مقدمات،أكيد أنهم عرفوا قيمتها ومنافعها وفاعليتها بدقة وإلا لما كانت المناهج الحديثة سارت بنفس الخطى التي دعوا إليها ، هذه المقدمات التي ستكون دائما سر الكتابة التي بها انتشرت أسماء مبدعيها من خلال أعمالهم الجليلة.

الشعرية والمقدمة:

ليس من السهل على الباحث أو الناقد الذي يطارد لذة إبداعات المبدعين، والذي اتخذ من النصوص القديمة طريقا له، مختارا التفنن في رسم ما توحيه عتباتها ومقدماتها من معان وإيحاءات، ومن أجل البحث عن أجوبة لأسئلة كثيرة،هذه الأعمال التي تضافرت معارفها وتشابكت دلالاتها وتوحدت ألفاظها ومعانيها العربية.فشعرية الأعمال النقدية هي التي تدفعنا إلى معرفة أن القيمة الأساسية، التي حوت عليها تعود إلى تلك البراعة التي بها كتبت هذه الأعمال الإبداعية شعرا أو نثرا، التي أصبحت من ضمن " المصطلحات النقدية القديمة التي أوشك استعمالها أن تصير في حكم الحق "[2].

وحتى نصل إلى الهدف الذي كتبت من أجله لا بد أن ندرك تلك الروابط والتناسق والتكامل بين كل جزء من أجزائها ، ولا بد من قراءتها قراءة فنية مركزة كونها تعد مجالا رحبا امتزجت فيه العلوم والثقافات على طول الزمن . هذه الأعمال التي ظهرت بفضل تعدد إمكانات الكاتب وطاقاته فهو مبدع استطاع أن يؤثر على القارئ والجمهور في تمسكه بفعل القراءة والاطلاع وهما عنصران فعالان يساهمان في تطور الأفكار والمفاهيم .فإذا توفرت الخصائص التي جعلت من المقدمة مساحة للتساؤل والبحث والتنقيب ،دليل على أن القدماء كانوا يعرفون أهمية توصيل المعاني بشكل جيد وصحيح ، والكتابة التي استعملوها امتازت هي الأخرى بالدقة والوضوح

[1] د/ حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل بيروت، لبنان ط$_2$ 1987، ص 257.

[2] د/ يونس وغليسي، الشعريات والسر ديات، دار أقطاب الفكر قسنطينة 2006، ص :07.

فهذا التلاحم بين ما تفرزه معاني الألفاظ والروعة المتناهية في ربطها مع باقي العناصر هو ما جعل الأعمال والإبداعات تحمل طابع الشعرية التي عرفوها ولكن ليس بنفس المصطلح ،وبالتالي فان شعرية المقدمة " تسهم في إبراز المشروع الدلالي العام الذي يوحد كل المباحث التي تمثل العلامة منطلقا لها "[1]. ومما يميز العلماء كذلك أنهم مارسوا صنعة التأليف لهدف يتمثل في بادئ الأمر في استقطاب اهتمام القارئ ، ويصبح المبدع في هذه الحالة له "علاقة مباشرة مع الشخص الذي يؤلف له هذه الأعمال، فهذا التلقي الذي تنتقل بموجبه العلاقة من المبدع مع النص إلى المتلقي خاصة وأن عنوانه الأثر الذي يحصل للسامعين عند صدور الكلام أو علاقة التلقي "[2]. ويمكن توضيح هذه العملية من خلال هذا الرسم البياني لتتضح الصورة أكثر:

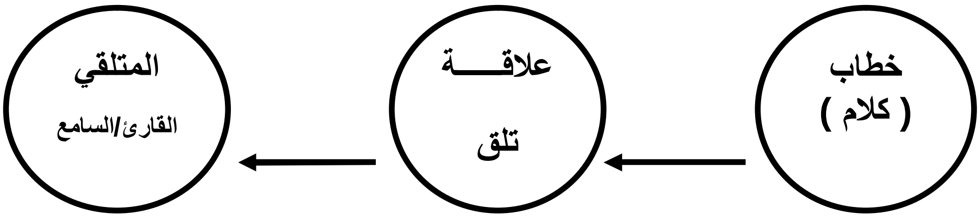

هذه العلاقة عنصر في مجال اهتمام الشعريات (3)

هذه العلاقة تظهر جلية من خلال تمكن الكاتب من أدواته التي يستعملها للإيقاع بالقارئ ســـواء عن طريق المفاجأة أو التشبع أو حتى طرح الفكرة بصورة تلائمه وتتماشى مع طريقة تفكيره حتى يستطيع هذا القارئ إكمال قراءة الكتاب والمقدمة حتى النهاية ، ويمكن أن نقول حينها : شعريـــة ابن قتيبة ، وشعرية التأليف عند أبي العلاء ، وشعرية الطبقات لابن سلام ، وأيضا شعرية خطاب المقدمة في نصوص القدماء ...الخ.

ويكون النص عبارة عن"رسالة لغوية تغلب عليها الوظيفة الشعرية"[4] وان كان لهؤلاء العلماء جهد كبير في توصيل هذه الرسالة،فلا بد للقارئ أن يكون واعيا ومتمكنا حتى يفهم

(1) د/ يونس وغليسي، الشعريات والسر ديات، دار أقطاب الفكر قسنطينة 2006، ص :11.
(2) الطاهر بومزدر، أصول الشعرية العربية، الدار العربية للعلوم، ط 1، 2007 م، الجزائر، ص: 17.
(3) المرجع نفسه ، ص : 18
(4) جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1 ، 1996، ص: 176 .

قصدهم"ولا بد أن تكون غايته الأولى هي استنباط كالخصائص النوعية والقوانين الداخلية للخطاب الأدبي"[1] عن طريق طبعا حسن الأخذ والفهم والإفهام والتقويم وهي كلها تساعد في "ابتكار الأفق الخاص بهذه الطريقة لمواكبة الأفق الإبداعي في النص المقروء أو المكتوب"[2].

وبهذا المفهوم والاعتبار يمكن أن تمثل المقدمة النقدية وافدا نقديا ذات طابع شعري ،استفادة منه الدراسات والبحوث، وستبقي دائما أهم ما أبدعته أنامل وأقلام النقاد والأدباء والكتاب، خاصة وأن نجاعة هذه الأعمال تكون في إسقاط محور الاختيار على عملية التأليف، ذلك أن المقدمة والشعرية العربية القديمة مشحونة بثنائية الاختيار والتأليف، وهذا ما يعطي الموضوع حقيقته النفعية والشمولية.

---

[1] د/ يونس وغليسي، الشعريات والسرديات، ص: 28 .

[2] د/ أدونيس، كلام البدايات، دار الآداب، بيروت ط 1، 1989، ص: 37.

خطاب المقدمة ومكوناتها:

تحتل المقدمة الصفحات الأولى من التأليف، وقد تكون في صفحة واحدة أو تتعدى ذلك لتصل ثماني وأربعين صفحة، و المقدمة تتكون بدورها من تسع عناصر صغرى، والتي عدها العلماء المسلمون القدامى تمهيدا لما صنعوه من مؤلفات في شتى مناحي المعرفة هي:

- البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم .
- دواعي التأليف" الذاتية و الموضوعية ".
- جنس التأليف.
- خطة التأليف.
- المصادر أو مكتبة التأليف.
- تقريظ التأليف.
- نقد المصادر السابقة.
- زمان ومكان التأليف.
- الحمد والشكر.

وهي العناصر التي يمكن أن نوزعها إلى قسمين:

1-القسم التمهيدي(أو الشكلي):

وهو القسم الذي تدخل في تركيبه خمسة مكونات أساسية عدت من البنى الهامة التي تعطي للنص قيمته وفاعليته من خلال هذا التضافر المنطقي والجمالي في عناصرها، والتماسك المحكم بين كل جزء من أجزائها، هذه العناصر التي تتمثل في "البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم والتشهد، ويعتبر هذا القسم الركن الأساسي الذي وجب أن تقوم عليه كل مقدمة، والمقدمة التي تخلو من مجموع هذه العناصر تعد بتراء أو شوهاء أو ناقصة من شيء كالخطبة البتراء التي سقط منها حمد الله والصلاة على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم."(1)

فهذا القسم يعتمد كل الاعتماد على هذه العناصر الخمس، والناظر والمتمعن في الواقع التطبيقي لهذه العناصر، يجد أنها اجتمعت في خطب كثيرة، ووردت متفرقة في خطب أخرى، وذلك لأن من العلماء المسلمين القدامى من اكتفى بالحمدلة دون البسملة والتصلية، ومنهم من اكتفى بالبسملة دون الحمدلة والتصلية: كما فعل القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص: المفهوم والموقعية والوظائف: منشورات كلية الآداب رقم 71، 2003، ص29.

في تقديمه لوساطته، قال: "بسم الله الرحمن الرحيم"[1]، وكذلك جاء في نص المقدمة التي وردت في "الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت 276هـ)[2]، والذي عليه الإجماع في ترتيب هذه العناصر أن تأتي البسملة في المرتبة الأولى تليها الحمدلة ثم التصلية والتسليم ومن المؤلفين من خرق هذا النظام فقدم وأخر، ولا بأس في ذلك عند سائر العلماء، وعلى رأسهم "الإمام أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ) صاحب كتاب "صبح الأعشى" والذي نظر لأكثر مقومات التأليف والكتابة الديوانية كما عرفها العلماء القدماء".[3]

أ-البسملة: والمقصود بالبسملة وكما هو معروف ومتداول لدى سائر العلماء واللغويين وكل الناس أن نبدأ "بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، مستعينا به جل وعلا في جميع أموري، طالبا منه وحده العون فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود".[4] وفي الحديث الشريف عن هشام بن عروة بن أبيه أنه كان يكره أن يكتب كتابا أو غيره حتى يبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وعن سعيد بن جبير أنه كان يقول: لا يصلح كتاب إلا أن يكون أوله (بسم الله الرحمن الرحيم)"[5] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد نهى أن يكتب في سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) كلام آخر، دعوة منه عليه الصلاة والسلام إلى إفرادها في التأليف والكتابة والرسم، قال صاحب "صبح الأعشى" "ينبغي للكاتب أن يفرد البسملة في سطر وحدها، تبجيلا لاسم الله تعالى و إعظاما وتوقيرا له."[6]

وذم سفيان الثوري المكاتبات التي لا تبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)فهو يفضل الابتداء بها قبل كل شيء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي(ص) قال: "**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيْهِ بِـ (بسم الله الرحمن الرحيم) فَهُوَ أَقْطَعُ**"[7] يعني أنه ناقص البركة. وعلى هذه السنة الحميدة جرى أكثر كتاب دواوين الإنشاء في الدولة الإسلامية وتبعهم في ذلك كل من اتخذ الكتابة أسلوبا في التعبير والتأليف، ونادرا ما كنا نجد تأليفا يخلو من (بسم الله الرحمن الرحيم) مفردة في سطر واحد تأليفا وكتابة ورسما."[8]

(1)القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني:الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوي ،دار القلم بيروت ،لبنان ص1(المقدمة)
(2) عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، ص216.
(3) مصطفى سلوى،عتبات النص، ص30
(4) مصطفى سلوى ،عتبات النص، ص30،31.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج6 ص208.
(6) المصدر نفسه، ج6، ص215.
(7) نفسه: ج6،ص211.
(8) مصطفى سلوى ،عتبات النص، ص31.

ولذلك فالبسملة قضية هامة لابد من النظر فيها بدقة، خاصة أنه من المتفق عليه إجماعا وعرفا وتدولا، أن نبدأ قولنا وكلامنا وكذا خطابنا وكل ما نقوم به في حياتنا اليومية والعملية والإبداعية، أن نذكر اسم الله تعالى و نستعين به في كل أمر و قول وفعل وحركة ... ذكر(بسم الله الرحمن الرحيم) فأي عمل يخلو منها فهو باطل وغير صالح سواء كان ذلك في التأليف والكتابة والرسم...شفويا وكتابيا "فالبسملة نحت من بسم الله الرحمن الرحيم" كما أنها تعد من الآداب والمستوجبات التي لا بد للمرء سواء كان كاتبا أو إنسانا عاديا، لابد عليه بذكر اسم الله في كل عمل وفعل يقوم به حتى في آداب الطعام والشروع في أي حركة أو هدف يسعى إليه، وما بالك الكتابة التي تعد مفتاح العلوم وكذا الحضارات ففي ذلك خير.

وقال الصولي: "سألت أبا خليفة الفضل بن حباب الجرحي عن ابتداء الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم فقال:سأل ابن عائشة عبيد الله بن محمد بن حفصة عن ذلك فقل حدثني أبي أن قريشا كانت تكتب في جاهليتها "بسمك اللهم" و كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، ثم نزلت سورة هود وفيها« **بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**» فأمر النبي (ص) بأن يكتب في صدر كتبه "بسم الله" ثم نزلت في سورة الإسراء« **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**» فكتب "بسم الله الرحمن" ثم نزلت في سورة النمل «**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»(1) فجعل ذلك في صدر الكتاب إلى الساعة.

وكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة من القرآن إلا في أول سورة التوبة. ومن هنا كانت وصارت هذه البداية (البسملة) مستعملة في كل المكاتبات الديوانية والإخوانية إلى يومنا هذا، وتستمد قوتها من الثقافة الإسلامية التي طبعت اللغة العربية والقطر العربي بطابع جديد وأغنته بعناصر فكرية وثقافية لم تكن معروفة قبل تنزيل القرآن الكريم.

فالكاتب يختار أن يبدأ بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم من حاشية القرطاس، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم، ومن الكتاب من يرى أن يجعله وسطا في وسط الكتاب بعد انقضاء الدعاء وباقي العناصر الأخرى.

فالبسملة تعد بركة وبداية طيبة تساعد الروح قبل القلم. وهي ضرورية ولابد منها وخير دليل على ذلك كتاب الله عز وجل"القرآن"الذي جعل فيه سبحانه وبحكمته الواسعة تقديما لكل آياته

---

(1)د/حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف. الدار العربية للعلوم ناشرون ط1،1428هـ - 2007 الجزائر، ص 123.

وسوره بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، هذه البسملة التي قد لا تجد معانيها وفضائلها الحقيقية مئة بالمئة كل المعاجم والتفسيرات لأهميتها وفاعليتها نطقا وكتابة...ومن أجل ذلك، نجد أن جميع المقدمات التي بين أيدينا قد حوت وتضمنت في صفحاتها الأولى على البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) وأولوها سطرا منفردا وخاصا، فنجد ابن قتيبة في "الشعر و الشعراء" يقول في الصفحة الثانية من مقدمته: (بسم الله الرحمن الرحيم) وكذلك ابن سلام الجمحي **(ت232هـ)**[1] في طبقات فحول الشعراء قال: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأيضا عبد القادر الجرجاني**(ت.471هـ)** قال في الصفحة الثالثة عشر من مقدمته: (بسم الله الرحمن الرحيم)وغيرهم من الكتاب الذين أتت مؤلفاتهم وكتبهم موسومة بهذه البركة والبسملة التي لها دور كبير في افتتاح الكلام أو العمل بشكل جمالي ديني إبداعي.

ب-الحمدلة: هي نحت من الحمد لله:

"يقال تحمد تحمدا، امتن عليه وتكلف الحمد، والحمد: هو المدح والثناء ضد الذم، فهو محمود وحمود، وحمدل: قال الحمد لله". وتأتي الحمدلة في المرتبة الثانية بعد البسملة، قال القلقشندي: "وآتوا بالحمد لله بعد البسملة تأسيا بكتاب الله تعالى من حيث أن البسملة آية من الفاتحة كما هو مذهب الشافعي رضي الله عنه أو فاتحة لها"[2]. وجاء في "لسان العرب" "الحمد نقيض الذم، ويقال حمدته على فعله، ومنه المحمدة خلاف المذمة، قال الأخفش: الحمد لله الشكر لله، قال: والحمد لله الثناء: قال الأزهري: الحمد قد يكون شكرا للصنيعة ويكون شكرا للنعمة التي شملت الكل، والحمد أعم من الشكر."[3]

وجاء عند الإمام أبي جعفر ابن جرير الطبري أن: "الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وقد قيل إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه."[4] وذهب صاحب "صبح الأعشى" إلى أنه "إنما افتتح الكلام بالحمد لأن النفوس تتشوق للثناء على الله تعالى، والافتتاح بما تتشوق النفوس إليه مطلوب"، وجاء الإمام أبو هلال العسكري في افتتاح مقدمته بالحمدلة مباشرة بعد البسملة، "فقال: الحمد لله ولي كل نعمة"، وقال القلقشندي في صبحه: "الحمد لله جاعل المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، والمتكلم بأجمليه: فصاحته وبيانه...

---

[1] د/ منير سلطان: ابن سلام وطبقات الشعراء، منشأة المعارف الإسكندرية1977 ، ص49.

[2] القلقشندي:صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج6، ص212.

[3] ابن منظور: لسان العرب دار صادر بيروت ط3، 1994، ج3، ص155 مادة (حمد).

[4] أبي جعفر ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير آي القرآن، دار الفكر بيروت 1978 ج 1 ص 32.

أحمده على أن وهب بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكور الصوارم، ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم."[1] ،وكتب الراغب الأصبهاني **(ت.502هـ)**في مقدمة كتابه "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" مباشرة بعد (بسم الله الرحمن الرحيم: "الحمد لله الذي تقصر الأقطار أن تحويه، وتعجز الأستار أن تخفيه، حمدا يقتضي تضاعف نعمائه وترادف آلائه."[2]

وافتتح المرزباني خطبة كتابه "الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر" بالبسملة والتصلية، ثم جاء بعد ذلك بالحمد على غير عادة أكثر المؤلفين: فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، الحمد لله على ما أولى من جزيل عطائه. وأسدى من جميل بلائه، حمدا نستديم به نعمه، ونستدفع به نقمه ونستدعي به مزيده."[3] أما الإمام مجد الإسلام عبد القاهر الجرجاني**(ت471هـ)** اكتفى بقوله: "الحمد لله رب العالمين"[4]

وقال ابن جني في افتتاحية مقدمته: "الحمد لله الواحد العدل القديم":[5] ويتجه قدامة ابن جعفر البغدادي اتجاها آخر، فيفتتح مقدمته بالتصلية والتسليم ثم الحمدلة فيقول: "فالحمد لله شكرا لنعمته، واعترافا بمنته، وصلى الله على محمد وعترته *[1] والأخيار من ذريته."[6]، أما الإمام اللغوي أبي علي إسماعيل التالي فيورد في مقدمته نوعين من الحمد، الأول يحمد الله على نعمه والثاني يصلي على النبي المصطفى، فيقول: "الحمد لله الذي جل عن شبه الخليقة، وتعالى عن الأفعال القبيحة، وتنزه عن الجور، وتكبر عن الظلم، وعدل في أحكامه، وأحسن إلى عباده، وتفرد بالبقاء، وتوحد بالكبرياء، ودبر بلا وزير، وقهر بلا معين، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية... والجبار الذي قامت السماوات بأمره، ورجفت الجبال من خشيته."[7]

ويختار ابن قتيبة أسلوبه الخاص في الحمد من خلال كتابه "عيون الأخبار" يقول: "الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين، وتفوت آلاؤه عدد العادين وتسع رحمته ذنوب المسرفين

---

(1) القلقشندي:صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج 1، ص 29.

(2) الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1961، ص 2.

(3) المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح علي محمد البجاوي. دار الفكر العربي،القاهرة، 1965، ص15.

(4) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص13.

(5) ابن جني: الخصائص: تح محمد علي النجار. دار الكتب المصرية بيروت، لبنان،ج1، ص1، (المقدمة).

(6)أبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي: نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ-1982م، ص3.

(7) أبي علي القالي: الأمالي، تح الشيخ صلاح بن فتحي هلل والشيخ سيد بن عباس الجليمي. المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1422هـ-2001م، ص14. (المقدمة)

*-1 عترة الرجل نسله ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر.

والحمد لله الذي لا تحجب عنه دعوة ولا تخيب لديه طلبة...والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير السراج المنير هاديا إلى رضاه وداعيا إلى محابته ودالا على سبيل جنته ففتح لنا باب رحمته وأغلق عنا باب سخطه."[1] ويقول أيضا في كتابه "أدب الكاتب" "حمد الله بجميع محامده، والثناء عليه بما هو أهله."[2] ونحن نلاحظ هذا التفرد في اختلاف كيفية الحمد من كاتب لآخر، كل حسب رؤيته وفكرته وتماشيا مع طبيعة الموضوع المدروس أيضا، فهاهو ذا أبو العباس المبرد في كتابه"الكامل" يقول: "الحمد لله حمدا كثيرا يبلغ رضاه ويوجب مزيده، ويجير به من سخطه وصلى الله على محمد خاتم النبيين."[3]

في حين اكتفى ابن طباطبا العلوي في مقدمة كتابه "عيار الشعر" بقوله: "الحمد لله رب العالمين"[4]، وكانت للمرزوقي طريقته أيضا في هذا الموضوع، خاصة ما جاءت به مقدمة كتابه "شرح ديوان الحماسة" حين قال: "الحمد لله خالق الإنسان، متميزا بما علمه من التبيين والبيان."[5] وخاصة أن فهم الشعر وباقي الفنون الأدبية تستلزم أن يكون صاحبها ذو خبرة، وممارسة ويتسم بالفصاحة والبيان ويفهم ويفهم عنه، إضافة إلى جمال النطق من خلال البعد عن عيوب الكلام الكثيرة، والتفنن في رسم صورة واضحة معنى وشكلا لكل عمل أدبي.

وجاء الأديب ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه "العقد الفريد" أن: "الحمد لله الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، المنفرد بقدرته، المتعالي في سلطانه، الذي لا تحويه الجهات، ولا تنعته الصفات ولا تدركه العيون، ولا تبلغه الظنون... وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته، وصامت متخشع لربوبيته" ثم يردف يقول: " أحمده على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، فإنه رضي الحمد ثمنا لجزيل نعمائه، وجليل آلائه، وجعله مفتاح رحمته، وكفاء نعمته، وآخر دعوى أهل جنته بقوله جل وعز: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6] ويكتفي كذلك أبو حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة بالحمد" قائلا: "الحمد لله رب العالمين."[7] وهذا يعد جانبا عقائديا في صفات الله تعالى.وتباينت الصيغ واختلفت الألفاظ والأساليب والطرق التي ورد بها هذا العنصر في افتتاح المقدمات بين صيغة

---

[1] ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان 1342هـ-1925م، م1، ج1، ص (ي) (المقدمة).
[2] ابن قتيبة: أدب الكاتب، تح وشرح وضبط محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل ط4، 1382هـ-1963م، ص1 (المقدمة).
[3] أبي العباس المبرد: الكامل، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية بيروت، ج1، ص06(المقدمة).
[4] ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 2005، ص09 (المقدمة).
[5] المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ص03.
[6] أحمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تح محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي بيروت، ج1، ص1 (المقدمة).
[7] أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ج1، ص01 (المقدمة).

الجملة الاسمية وصيغة الجملة الفعلية، قال القلقشندي: "قد يستعمل الحمد بصيغة الفعل كقولهم في المكاتبات: فأني أحمد إليك الله، وقد اختلف في أي الصيغتين أبلغ صيغة الحمد لله أو صيغة أحمد الله، فذهب المحققون إلى أن الصيغة الأولى: الحمد لله أبلغ لما فيها من معنى الثبوت والاستمرار على ما هو مقرر في علم المعاني. "[1] والحمد مطلوب في أوائل الأمور وخواتمها طلبا للتيمن والتبرك، كما أن من آداب الدعاء وأسباب الإجابة الإخلاص لله وأن يبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم بالصلاة على النبي (ص) ففي ذلك فضل عظيم.

جـ- التصلية والتسليم(الصلاة والسلام على الرسول ص):

وتأتي التصلية والتسليم بعد البسملة والحمد. قال القلقشندي في كتابه: "فإذا أوتي بالحمد في أول كتاب، ناسب أن يؤتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أوله"[2]. والتصلية من الصلاة وهي الدعاء. وحسن الثناء والبركة من الله، أما التسليم فهو رفع اليد لله سبحانه، والانقياد له تعالى في كل أوامره، بدء من الإيمان برسول الله (ص) والتصلية والتسليم عليه إذا ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في كل قول وموضع.

والتصلية مطلوبة واجبة بحكم شرعي، قال الله سبحانه وتعالى: "**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**"[3]، وفي الحديث الشريف أن رسول الله (ص) قال: (من صلى علي في كتاب لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب)[4] ، ولا يقتصر المؤلف على التصلية دون التسليم، فكلما صلى الإنسان على الرسول الكريم وجب عليه أن يتبع التصلية بالتسليم، فالسلام تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، قال القلقشندي: "فكما يفتتح الكلام طلبا للتأليف، كذلك تفتتح به المكاتبات وتصدر طلبا للتأليف"[5]

وجاء في "صبح الأعشى" "وأما السلام عليه صلى الله عليه وسلم بعد التصلية، فقد قال الشيخ محي الدين النووي في كتابه "الأذكار": (وإذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فليجمع بين الصلاة والتسليم ولا يقتصر على أحدهما)[6]

وجاءت مقدمة كتاب "الشعر والشعراء" خالية من الحمدلة والتصلية والتسليم، عدا البسملة التي افتتح بها المؤلف الكلام، وكذلك الشأن عند ثعلب في مجالسه، فقد اكتفى بالبسملة دون

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ص05 (المقدمة).
(2) المصدر نفسه ، ج 6 ص218.
(3) سورة الأحزاب: آية: 56.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج6، ص 218.
(5) المصدر نفسه: ج6، ص218.
(6) الإمام محي الدين زكريا النووي: الأربعون النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، مطبعة دحلب، الجزائر ص 25.

غيرها،ونفس الشيء بالنسبة لمقدمة كتاب "طبقات فحول الشعراء" و "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وأيضا مقدمة كتاب "البيان والتبيين" و "الحيوان"، وكذلك كتاب "الأغاني" و "جمهرة أشعار العرب" و"فقه اللغة" وشرح المعلقات السبع"، و"شرح القصائد العشر" التي اكتفى كتابها ومؤلفها بإيراد البسملة وحدها دون الالتفات إلى باقي العناصر الأولى لمكونات خطاب المقدمة، وهذا يعني أن العهد الأول كانوا لا يبالغون في الشكل ويكتفون بما توافر عن الأمة بلا خلاف.

ثم إن الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم تستتبع الصلاة والسلام على الآل والصحب، وهو أمر اختلف فيه العلماء، فمنهم من أثبت الصلاة والتسليم على الصحب والآل واحتج لذلك بقوله سبحانه وتعالى: (**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[1]. واحتجوا أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد). قال الكلاعي في "أحكام صنعة الكلام": "اختلف العلماء في الصلاة هل تستعمل في غير النبي، فقال بعضهم يستعمل ذلك في كل من آمن به صلى الله عليه وسلم واتبعه، واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم صل على محمد وآل محمد)، فقال آل محمد كل من اتبع محمدا، كما أن آل إبراهيم كل من اتبع إبراهيم، وآل فرعون كل من اتبع فرعون، وقال بعضهم: بل الصلاة على النبي لفظ مختص به، واستدل على ذلك بما رواه يحي عن مالك بن دينار أنه قال: "رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي على النبي (ص) ويدعو لأبي بكر وعمر."[2]

واعتبر الجاحظ الخطبة التي لم توشح بالصلاة والسلام على النبي(ص) شوهاء، وذهب القلقشندي إلى أن الآل هم أهل النبي (ص) وعائلته وكل من تربطه بالنبي (ص) آصرة الدم أو المصاهرة أما الصحب فهم خلفاء الرسول (ص) "في نشر الدعوة وتحمل أعبائها وكل من لقي النبي عليه الصلاة والسلام على آل النبي وصحابته هي من باب التبعية لأن الصلاة خاصة بالأنبياء دون سواهم من الأهل والصحب."[3]

وهكذا افتتح المبرد مقدمة كتابه "الكامل في اللغة والأدب" دون الصلاة على الآل والصحب قال: "الحمد لله حمدا كثيرا يبلغ رضاه ويوجب مزيده ويجير من سخطه، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلاة تامة زاكية تؤدي حقه وتزلفه عند ربه."[4]

---

[1] سورة التوبة: آية: 104

[2] مصطفى سلوى،عتبات النص، ص35.

[3] المرجع نفسه: ص35.

[4] أبو العباس المبرد: الكامل: ص06.

أما عبد القاهر الجرجاني ففضل هو أيضا أن يصلي ويسلم على النبي (ص) في مقدمة كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" قال: "الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين."[1] وقال أيضا: "الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، وصلواته على محمد سيد المرسلين وعلى آله أجمعين."[2]

وقال ابن قتيبة في مقدمة كتابه "عيون الأخبار": "صلى الله وملائكته المقربون عليه وعلى آله وصحبه أبدا ما طما بحر وذر شارق وعلى جميع النبيين والمرسلين"[3] أما القالي فحوت مقدمة كتابه "الأمالي" على التصلية والتسليم قال: "والحمد لله الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالدلائل الواضحة، والحجج القاطعة والبراهين الساطعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونهض بالحجة ودعا إلى الحق وحض على الصدق صلى الله عليه وسلم."[4]، في حين افتتح أبو الفرج قدامة بن جعفر مقدمة كتابه "نقد النثر" قال: "صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم."[5] وجاءت التصلية مباشرة بعد الحمدلة في مقدمة كتاب "الخصائص" لابن جني قال: "الحمد لله الواحد العدل القديم، وصلى الله على صفوته محمد وآله المنتخبين وعليه وعليهم السلام أجمعين."[6] ووردت خطبة كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي مصحوبة بالتصلية هي الأخرى على النبي وآله مباشرة بعد الحمدلة قال: "وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين."[7] أما ابن عبد ربه في "عقده" يقول: "وصلى الله على سيدنا محمد النبي المكرم، الشافع المقرب الذي بعث آخرا واصطفي أولا، وجعلنا من أهل طاعته وعتقاء شفاعته."[8] وتباينت الأساليب و الطريقة في عرض التصلية من مؤلف إلى آخر فهاهو ذا الثعالبي في خطاب مقدمته لكتاب "فقه اللغة" يصلي على النبي وآله يقول: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين."[9] نفهم من ذلك أن الصلاة والسلام على رسول الله (ص)ضرورية في عملية الكتابة الفنية وتعد من متطلبات العمل النثري.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص13.
[2] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص07 (المقدمة).
[3] ابن قتيبة: عيون الأخبار: ص(ي) من المقدمة.
[4] أبو علي القالي: الأمالي: ص 14.
[5] أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص03.
[6] ابن جني: الخصائص: ص01.
[7] أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص01.
[8] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص01.
[9] أبي منصور الثعالبي: فقه اللغة، تح د/ جملا طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2001، ص25 (المقدمة).

د- التشهد:

ومن المؤلفين من جاء بالتشهد بعد الحمدلة إعلانا منه لكلمة الإسلام الطيبة: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له). " فالتشهد هو التماس الشاهد على الأمر وطلبه، وإسلاميا النطق بالشهادتين. (أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله (ص).)" قال القلقشندي في "صبح الأعشى": "أشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له شهادة يوقع لصاحبها بالنجاة من النار، ويكتب لقائلها في ديوان الأبرار. وأن محمدا عبده ورسوله الذي اهتزت لهيبته الأسرة وشرفت بذكره المنابر، وضاقت عن درك وصفه الطروس ونفدت دون حصاء فضله المحابر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلدوا أمور الدين فقاموا واجبا."[1]

والتشهد تجديد لعقد الإيمان أمام الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى أنه ركن من أركان الإسلام ينفي الشرك بالله نفيا قاطعا مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.)**[2]

في حين يكتفي بعض المؤلفين بالتصلية والتسليم دون تتبع هذه المراحل المتتالية في خطاب المقدمة هذا ما قام به ابن قتيبة في كتابه "أدب الكاتب" قال: "والصلاة على رسوله المصطفى وآلــــه"[3].أما المرزوقي فقد افتتح خطبة مقدمته من خلال كتابه "شرح ديوان الحماسة" قال: "الحمد لله خالق الإنسان، متميزا بما علمه من التبيين والبيان، وصلى الله على أفضل صدح بأمره زجره، داعيا وناهيا. وعلى الطاهرين من آله وسلم."[4]

كما أن ابن طباطبا في مقدمة كتابه "عيار الشعر" اهتم بالتصلية وحدها بعد الحمدلة فقط إذ نجده يقول: "الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين."[5]و ذهب كتاب آخرون وبأفكارهم الخاصة في تآليفهم إلى الاستعاذة بالله من أمور كثيرة جعلوها في مقدمات كتبهم، كما فعل الجاحظ من خلال كتابه "البيان والتبيين" والذي أتي بها مباشرة بعد البسملة قال: "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1 ص29.

(2) سورة آل عمران: آية: 63.

(3) ابن قتيبة: أدب الكاتب: ص01.

(4) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ص02.

(5) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر: ص09.

ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر*1، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما."(1) وقال أبو حيان التوحيدي في مقدمة كتابه "الإمتاع والمؤانسة": "وأنا أعوذ بالله الملك الحق الجبار العزيز الكريم الماجد أن أجهل حظي. وأعمى عن رشدي، وألقي بيدي إلى التهلكة وأتجانف*2 إلى ما يسوءني أولا ولا يسرني آخرا، هذا وأنا في ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة، وفي حال من أن لم تهده التجارب فيما سلف من أيامه، في حالي سفره ومقامه وفقره وغنائه وشدته ورخائه... وعليه أتوكل في كل سؤل وأمل. وإياه أستعين في كل قول وعمل."(2)

فاختيار الجاحظ لاستعاذته من فتنة القول التي تدل على عدة أمور كثيرة والتي يمكن أن ندخلها ضمن دائرة الكلام المثير الذي يسحر المرء ويطير به عاليا في خيالات الوجدان الجميل الذي يحمل معنى الشغف والحماسة والترقب، هذه المعاني الدالة على ما يحدثه القول من فتن التي قد تكون في صالح المرء أو ضده – تنفعه و تضره- والفتنة أيضا لها دلالات كثيرة من ضمنها المتن التي حرضت اليهود على المسلمين ي عهد الرسول عليه السلام، وكيف فرقت بين الشعوب، لذلك فكلمة فتنة أيضا لها معنى الحروب أو السلام، والجاحظ لا يكتفي بهذا فقط بل يدعو الله أن يجنبه التكلف فيما لا يحسن ويعـرف، وهـــذا دليل بين على أن الأدب يمتلك طريقة مثلى تجسد براعتـه

وفنيتــه من خلال موهبة صاحب الأدب نفسه الذي يعرف كيف يصنعه وينميه من خلال القناعة والإيجاز وأيضا الدقة في الاختيار والبديهة في تكوين عمل مثالي جميل.

أما أبو حيان نجده يقرر أن يلتزم حدوده ويعرف قدره ومنهجه وألا يخالفهما فهو لا يميل إلى الشيء ميلا ينسيه ما حوله، وفي نفس الوقت لا يتغاضى عما يحيط به وينسى ما يأتي بعده، فالإنسان الذي يعرف حدوده يعرف كيف يواجه أي دخيل أو عقبة قد تظهر أمامه وبطرق كثيرة منها خاصة، صناعة الأدب ودلالاته العميقة.

وبعد كل هذه العناصر يأتي المؤلف بكلمة (أما بعد)، إعلانا منه أنه انتهى من قسم ويود الانتقال إلى قسم آخر، هذه العملية التي نسميها بحسن التخلص أين يعتمد المؤلف هذه الكلمة أو العبا رة لتسهل عليه الولوج في موضوعه وقضاياه وأيضا ينتقل بها من حديث إلى حديث آخر

(1) أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، تح وشرح عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي القاهرة، ط3، 1968، ج1 ص05 (المقدمة)

(2) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص1و2

*1 السلاطة: حدة اللسان، والهذر: كثرة الكلام في خطأ.

*2التجانف إلى الشيء: الميل إليه.

حتى يبين للقارئ أنه في صدد طرح فكرته وغرضه من ذلك الكتاب. وهكذا جاء الأمر عند مترجم (مادة المقدمة) قال: "ثم يأتي القسم الثاني مدرجا بعبارة (أما بعد) ليفسح المجال للحديث عن الأسباب التي دعت إلى التأليف..."

وفصل الخطاب فإنه يفصل بين البسملة والدعاء ونص الخطاب ويمكن اعتباره حدا فاصلا بين نصين "يروى أن أول من قال: "أما بعد" داود عليه السلام وأن ذلك فصل الخطاب الذي قال الله عز وجل: "**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**"[1] وفصل الخطاب هذا يكون بعد حمد الله أو بعد الدعاء أو بعد قولهم من فلان بن فلان إلى فلان فيفصل بين الخطاب المتقدم وبين الخطأ الذي يجيء بعد ولا تقع إلا بعد ما ذكرناه."[2]

وفصل الخطاب ككيفية في تشكيل فضاء النص وترتيب وحداته البنيوية والمضمونية يمكن اعتباره مفهوما إجرائيا شكليا، ولكنه في المجال الأصولي يتخذ بعدا دلاليا آخر وخاصة أنه عرف بفصل الحكم والقضاء والعلم بالقضاء. وانتقال المفهوم من حقل ثقافي إلى آخر دليل على تكامل الثقافة العربية الإسلامية.

والعناصر الثلاثة التي تكون بداية الرسالة: البسملة والدعاء وفصل الخطاب، يمكن أن نعتبرها بدايات، تتواتر في كل الرسائل والأعمال القديمة، ونجدها تتكرر بالصيغة نفسها وبوضعيتها أيضا – المكان- لتعطي للرسالة فضاء خاصا له حدوده المعلومة، أما ما يأتي بعد هذه البداية فإنه متغير حسب الشخص الذي تكتب إليه الرسالة والغرض من كتابتها.

تلك أهم العناصر التي تكون منها خطاب المقدمة في قسمه الأول، وهي عناصر توثق صلة العبد المؤلف بخالقه ودينه. هذه العلاقة التي يعتبرها عبد الحميد الكاتب هي علاقة وطيدة محبوكة بعامل الأخلاق، هذه الصلة التي تقوم على عنصرين هامين: ربط الأخلاق بعلاقات الكاتب مع الله، أو مع نفسه، أو مع غيره، ثم الحديث عن مصادر المعيار الأخلاقي الذي وفقه يحدد الكاتب قيم الشر، والخير، والحسنى...

وبالتالي تنهض العلاقة بين الكاتب أو الإنسان مع الله على قيمة أساسية هي: العبودية حيث يتعبد المخلوق، الخالق إيمانا به، واعترافا بكل فضائله، والعبودية تنفي كل إشراك مع الله سواء كان الإشراك كائنا أو عملا، فالله هو الواحد الأحد، الذي يجب أن يخلص المخلوق له إخلاصا كليا، ويجعله مقصد كل أعماله وسلوكاته، سواء الذاتية أو الموضوعية أو الاجتماعية،

---

[1] سورة: (ص)، آية: 20.

[2] د/ حسين خمري: نظرية النص، ص 123.

فعلاقة الكتاب فيما بينهم تكون على أساس من الحب، وهذا الحب خاص، من حيث ما يبني عليه، يقول عبد الحميد الكاتب: "وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم."[1]

والعبودية تستوجب الاستعانة الله وحده، لأن في ذلك اعترافا له بالقدرة الكاملة في تسيير الأمور، إلى الوجهة التي يريدها لها، وكل اغترار بالنفس، وقدرتها على العمل، هو ضرب من الانحراف المهلك، لأن الإنسان في هذا الوضع، يصبح أسير نفسه الأمارة، التي تورد صاحبها إلى التهلكة، ويحبط كل عمل له، لذلك فالإنسان أمام ضعفه لا يجد إلا ملاذا واحدا هو أن "يضرع إلى الله في صلة توقيفه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر بدينه وعقله وأدبه."[2] ولذلك فالإدعاء الذي قد يصدر عن الكاتب حين يقول: "أن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه أو مقالته أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك من تأمله غير خاف."[3]

ونتيجة لهذا يكون الخوف من الله، واتقائه في كل عمل يصدر عن الكاتب، أمرا لازما وهكذا وجب على الكاتب أن "يراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته."[4] ومن مظاهر مخافة الله التحدث بنعمه التي لا تحصى ولولا فضله ما حصل الإنسان منها شيئا. بل لعاش الحرمان المطلق، الذي لا ينجيه منه كائن مهما كان لضعف الكائنات واستئثار الله وحده بالقدرة وذكر نعمة الله وحمده لــه، وشكــره، والشكر تستقيم حياة الإنسان، ويكون نجاحه في الدنيا والآخرة. لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه يقول: "**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**." تلك إذن أهم العناصر التي تكون منها خطاب المقدمة فــي قسمه الأول، وهي عناصر توثق صلة العبد المؤلف بخالقه ودينه، والجدير بالذكر أن خطاب المقدمة يتقاسمه، انطلاقا من مكوناته التسعة التي تم التنبيه عليها، نوعان من الحوار موصوفان بتمام الحرية والوضوح الأول بين المؤلف وخالقه، والثاني بين المؤلف والمتلقي الذي يتوجه إليه بالكتاب"[5] ومن هنا تكون المقدمة تلك المساحة

الحرة التي يتصل فيها المؤلف مباشرة بقارئه ومتلقيه بعيدا عن ثقل موضوعات الكتاب ومصطلحاته وأفكاره وبناه العميقة الضاربة في الأصول.

---

(1) أحمد شنة :ابن قتيبة الناقد ،المصطلح النقدي عند العرب في القرن الثالث الهجري ،مخطوط ماجيستير ،معهد الآداب واللغة العربية ،جامعة باتنة 1997/1996،ص132.

(2) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة. دار القلم لبنان. ط5، 1984،ص249.

(3) المصدر نفسه: ص250.

(4) أبو الحسن أحمد زكريا: الصاحبي في فقه اللغة تح مصطفى الشويعي مؤسسة أ. بدران لبنان، 1964، ص249.

(5) مصطفى سلوي: عتبات النص: ص37.

2/القسم الموضوعي:

وهو القسم الذي تدخل فيه باقي العناصر الثمانية التي ذكرناها سابقا،وهي عناصر ساعدة العلماء القدامي على تحديد أعمالهم وفق ما اختاروه وانتقوه من علوم تهم القارئ بالدرجة الأولى ،وحسب ما تتماشى ومتطلبات العصر ونبدأ بالعنصر الأول وهو:

أ- دواعي التأليف:

هذا العنصر مهم جدا في تحديد أهداف الكاتب في تحديد موضوعاته وأفكاره، ولهذا لابد من الإشارة إلى دواعي التأليف التي تعد مكونات أساسية حاضرة في نوعين من المقدمات هما: المقدمات المضيقة والمقدمات الموسعة والتي سبق الحديث عنها سابقا، ولا يمكن لهذا العنصر أن يكون أو يوجد في المقدمات المضافة، لأن المؤلف هو الشخص الذي يعرف وحده الأسباب التي كانت من وراء تأليف كتابه، وما دام المؤلف في المقدمات المضافة شخصية غائبة، فلا يمكن لمن قام بجمع الكتاب الإتيان بهذا الأمر "ودواعي التأليف هو المكون الأول ضمن القسم الثاني من المقدمة، هذا جرى عليه أكثر العلماء المسلمين القدامى، إلا أن الاختلاف في الآراء في أفضلية السبق بين جنس التأليف والدواعي وهذا قليل لا يقاس عليه، والناظر فيما تركه العلماء المسلمين القدامى من تأليف لا يسعه إلا أن يميز في هذه الدواعي التي كانوا يقدمونها بين يدي قرائهم بين نوعين اثنين: أسباب ذاتية حقيقية، وأسباب ذاتية متخيلة، ثم تأتي الأسباب الموضوعية، وهي كل ما تعلق بموضوع التأليف أو جنسه أو فكرته."[1]

وحرص أكثر من تعاطى صنعة التأليف من القدماء على إيراد أسباب ذاتية هي التي حثته على الكتابة في ذلك الموضوع، وقليلون هم الذين تنكروا للسبب الذاتي فمالوا لتقديم أسباب موضوعية ومن المؤلفين من مزج بين الداعي الذاتي والداعي الموضوعي، وهم كثيرون. ويمكن القول أن كل هذه التآليف والكتب لها أسباب معينة دفعت أصحابها إلى النظر مليا والتفكير مطولا فيما دونوه وأفادوا به، لأن لهذه الكتابة أيضا أسباب "حملت العلماء على العناية باللغة وأمور أخرى، وعندما اتجهوا إلى التأليف اللغوي قصدوا إلى أخذ الصحيح وتحريه، وبالغوا في الحيطة والحذر وقصدوا أيضا إلى حشد كل ما وصل إلى علمهم."[2]

---

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص: ص38.

(2) أحمد عبد الغفور عطار: مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، القاهرة، 1956، ص47.

فالعلماء القدامى اتخذوا قاعدة لانطلاقهم في الكشف عن بنية المقدمات والتي هي بدورها تساعد كل مهتم من "اكتساب أسرار الإبداع ترسلا ونظما وخطابة، يغذيها بما يتاح له من معاشرة النصوص الشعرية القديمة والحديثة، وما حفظ من كتاب الله عز وجل، وأحاديث رسول الله (ص) وما قرأ من مكاتبات البلغاء والفصحاء، وما استمع من خطب ومناظرات، إذ هي الكفاية الضرورية لكل من رام فعل الكتابة، أو أراد أن يتخذها حرفة."[1]

ومن أجل هذا كثيرا ما نجد أن الدواعي التي أدت إلى"ظهور كتاب ما بصورة واضحة للعصر الذي اكتنف تأليفه، وكلما كانت الدواعي ألصق بالفن الذي يدرسه المؤلف، كلما كانت الصورة دقيقة في هذا الجانب دون غيره."[2]

والمقصود بدواعي التأليف أن يحرص المؤلف على تعداد الأسباب المادية والمعنوية الذاتية وأيضا الموضوعية التي حفزته على تأليف الكتاب، فأما الأسباب الذاتية، فهي كل من ارتبط بشخص المؤلف بالإضافة إلى الذات التي يذكر أنها دفعته إلى التأليف، والغالب أن تكون هذه الذات الخارجية هي محور الداعي الذاتي، فيذكر المؤلف أن سلطانا من السلاطين أو خليفة أو أميرا أو كبيرا أو صاحبا من الأصحاب من الكبراء أو صديقا أو جماعة من المتأدبين أو العلماء هم الذين حثوه ودفعوه على تأليف ذلك المؤلف أو الكتاب.

ومن خلال المقدمات التي بين أيدينا ، أن هذا الحديث عن ذات خارجية قد يكون حقيقيا وهو الغالب، وقد يكون متصورا متخيلا كما هو الشأن عند كثير من المؤلفين، "حيث يتوهم المؤلف أو يوهم القارئ أن شخصا دعاه إلى وضع كتاب في ذلك الموضوع، وهذا جاريا على العادة التي درج عليها المؤلفون في هذا المجال، والمعروف أن الخلفاء والأمراء كانوا يشجعون رجال العلم والأدب على التأليف ويضعون رهن إشارتهم الجوائز والهبات."[3] ومن هنا كان المؤلف حريصا كل الحرص على إدراج أو إيراد هذا الداعي الذاتي بصيغة الخطاب الدالة على الشخص المقصود كأن يقول: (جاريتني أعزك الله...) و(أطال الله بقاءك) وأيضا كأن يقول:(وفقك الله...)و(حاطك الله...) وغيرها من الصيغ التي وردت واضحة في كتب المؤلفين القدامى، والمؤلف بذلك يقصد من ذلك بإهدائه الكتاب إلى نفس الذات التي يريدها، ثم يعقب بذكر الطلب وينتهي إلى الدعاء بالعزة والسؤدد وترف الحياة وجمالها للذات التي حملته على الكتابة.

---

(1) د/ حبيب مونسي: نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، دار الغرب للنشر، ط2000-2001، ص64.

(2) المرجع نفسه، ص59.

(3) مصطفى سلوي: عتبات النص: ص38.

وهذا أبو حيان التوحيدي الذي صرح مباشرة بدافع التأليف لديه في أول مقدمته أين يخاطب الشيخ الذي له كتب "الإمتاع والمؤانسة" قال: "قد فهمت أيها الشيخ - حفظ الله روحك – ووكل السلامة بك، وأفرغ الكرامة عليك، وعصب كل خير بحالك، وحشد كل نعمة في رحابك..قلت لي – أدام الله توفيقك – في كل قول وفعل، وفي كل رأي ونظر..."[(1)]، وهو بذلك يوجه كلامه إلى الشيخ أبو الوفاء المهندس الذي وصل أو حيان بابن سعدان الوزير في ذلك الوقت، والذي ألف له هذا الكتاب، ودون له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة في كتابه "الإمتاع والمؤانسة".

أما الخطيب التبريزي نجده يخاطب ذاتا معينة قال: "سألتني أدام الله توفيقك أن ألخص لك شرح القصائد السبع مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي قصيدة النابغة الذبياني الدالية وقصيدة الأعشى اللامية وقصيدة عبيد بن الأبرص البائية تمام العشر..."[(2)] . وكان لأبي عثمان الجاحظ طريقته أيضا في إيصال رسالته التأليفية إلى أحد معجبيه أو وزرائه قال: "وليس – حفظك الله – مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة... ثم اعلم - أبقاك الله – أن صاحب التشديق والتقعير*1 والتقعيب*2 من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وسنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة..."[(3)] ويأتي مؤلف آخر بتميزه وشهرته في مجال البلاغة وعلومها المتصلة بأصول النقد العميقة، يصرح وبطريقته أيضا، أن الدافع الذي جعله يبدع ويكتب هو الفضل الذي حاطه به ملكه المؤيد قال: "أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور - المؤيد - بهاء الدولة وضياء الملة وغياث الأمة، وأدام ملكه ونصره وسلطانه ومجده وتأييده وسموه وكبت شانئه وعدوه..."[(4)]

وقد ذكر الثعالبي ومن خلال مقدمة كتابه "فقه اللغة" أنه ألفه للوزير أبي الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي، والكتاب مرتب على موضوعات المعاني، وقدم الثعالبي لكتابه بمقدمة وضح فيها أن دوافع تأليفه كانت استجابة للوزير نفسه، وعرض لأسماء من اعتمد عليهم في تصنيفه من أئمة اللغة والأدب والفلسفة قال: "فإلى من جمل الزمان بمجده، وشرف أهل

[(1)] أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص03.

[(2)] الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ضبطه وشرحه عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية بيروت،1997م، ص10 (المقدمة).

[(3)] الجاحظ: البيان والتبيين، ص12.

[(4)] ابن جني: الخصائص: ص01 (المقدمة).

*1- التقعير: أن يتكلم بأقصى قعر فمه.

*2- والتقعيب كالتقعير في الكلام.

الآداب بمناسبة طبعه... وأعود أدام الله تأييد الأمير السيد الأوحد، لما افتتحت له رسالتي هذه فأقول أني ما عدلت بمؤلفاتي إلى هذه الغاية عن اسمه ورسمه إخلالا بما يلزمني من حق سؤدده، بل إجلالا له عما لا أرضاه للمرور بسمعه ولحظه... أدام الله أنس الفضل به، فتح لي إقباله رتاج التخير وأزهر لي قربه سراج التبصر في استتمام الكتاب، وتقرير الأبواب..."[(1)]

كما أن الثعالبي قد ألف للصاحب بن عباد ولأبي الفضل الميكالي وقابوس بن شكمير وغيرهم حيث كان كريم المنزلة لدى الملوك والسلاطين والأمراء، عاش في كنفهم، وألف الكتب برسمهم وأهداها إلى خزائنهم.

أما الداعي الموضوعي" وغالبا ما يتأخر على الداعي الذاتي الذي يأتي في الأول تقديما لذكر السلطان أو الخليفة، فيكمن في تلك الأسباب الموضوعية أو العلمية التي تتصل مباشرة بفكرة التأليف أو جنسه أو موضوعه. فقد عرفنا أن خصومة الناس وانقسامهم فريقين حول أبي تمام وكذا البحتري وشعريهما هو الذي دعا الحسن بن بشرالأمدي **(ت370هـ)** إلى تأليف "الموازنة بين الطائيين" وأن اختلاف الناس حول أبي الطيب المتنبي **(ت354هـ)** هو الذي حمل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني **(ت392هـ)** على تأليف "الوساطة بين المتنبي وخصومه". وأن قلة ما كان بين أيدي الناس من علم تمييز جيد الشعر من رديئه هو الذي دعا قدامه بن جعفر **(ت337هـ)** إلى وضع كتاب يسد هذا الفراغ الموجود في الساحة النقدية فكان كتابيه "نقد الشعر ونقد النثر" هو ثمرة هذا الداعي. كذلك كان الاهتمام البالغ بالقضايا الشعرية وأصولها وتنازع النقاد في قدمها وحداثتها ما أدى إلى الاهتمام بهذا المجال من خلال كتابين مهمين لابن قتيبة وابن سلام هما: "الشعر والشعراء" و "طبقات فحول الشعراء"، دون أن يتركوا عالم علم البلاغة والنحو وأيضا اللغة ومكوناتها من خلال عدة مؤلفات تعد الكتب الأصل في تطور وانتشار العلوم والمعارف الإنسانية عبر أجيال مستمرة، فنجد في اللغة كتاب "فقه اللغة للثعالبي **(ت429هـ)**، أما البلاغة والبيان فقد اهتم بها الجاحظ **(ت255هـ)** في كتابين مشهورين هما: "البيان والتبيين" و "الحيوان"، وهناك ما لا يحصى من الأمثلة على شدة اهتمام القدماء بتعيين الأسباب التي حملتهم على تأليف ما ألفوه من كتب، سواء تعلق الأمر بالأسباب الذاتية أم الموضوعية"[(2)].

وقدم المرزوقي مقدمة شرحه ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي جاعلا من السبب الذاتي داعيا ومحفزا إلى الكتابة والتأليف والبحث، قال: "وبعد فإنك جاريتني - أطال الله بقاءك في

[(1)] الثعالبي: فقه اللغة، ص32.

[(2)] مصطفى سلوى عتبات النص ،ص39.

أشمل سعادة وأكمل سلامة، لما رأيتني أقصر ما أستفضله من وقتي وأستخلصه من وكدي*1 على عمل شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي المعروف بكتاب الحماسة- أمر الشعر وفنونه، وما قال الشعراء في الجاهلية وما بعدها، وفي أوائل أيام الدولتين وأواخرها من الرفعة به... ثم سألتني عن شرائط الاختيار فيه، وعما يتميز به النظم عن النثر، وما يحمد أو يذم من الغلو فيه أو القصد. وعن قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها، حتى تصير جوانبها محفوظة من الوهن، وأركانها محروسة من الوهي..."(1) ويتميز هذا الداعي بأنه دافع تعليمي بمقياس الشرح والتحليل وأيضا التفصيل من أجل الوصول إلى الفكرة المرادة من ذلك القول أو العمل.

واكتفى ابن قتيبة بالداعي الموضوعي في تقديم الأسباب التي حملته على تأليف كتاب "الشعر والشعراء" قال: "هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول."(2) ويواصل فيقول أن الدافع الذي جعله أيضا يؤلف كتابه أنه: "كان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث الله رسول (ص)، فأما من خفي اسمه وقل ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه إلا البعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضا أخبارا، وإذ كنت أعلم لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء لا أدل عليها بخير أو زمان أو نسب أو نادرة أو بيت يستجاد أو يستغرب ولعلك تظن رحمك الله أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعرا قديما ولا حديثا إلا ذكره ودلك عليه..."(3)

والدافع الذي اختاره ابن قتيبة هو دافع تقييمي وتعليمي بمقياس الشهرة والاحتجاج والتفسير،في حين اكتفى ابن عبد ربه عن الدوافع التي حملته على التأليف في مقدمة كتابه "العقد الفريد" قال:" وقد ألفته وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب وإنما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الإختيار، وحسن

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ج1 ،ص03 *1 الوكد:الجد .
(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار صادر بيروت، ص2 (المقدمة).
(3) المصدر نفسه: ص2و3.

الاختصار،وفرش في صدر كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله، وقال الشاعر: **قَدْ عَرَفْنَاكَ باخْتِيارِكَ إذْ كَـــا نَ دَلِـيلاً عَلَىَ اللَبيْبِ اخْتِيَـــارُهُ**

فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب، ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه..."[1]

وجعل المبرد **(ت.285هـ)** من الداعي الموضوعي سببا حمله على تأليف كتابه "الكامل" قال: "هذا الكتاب ألفته يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر

وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق*1، وأن، نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا."[2] وبالطريقة نفسها قدم ابن جني مقدمة الخصائص جاعلا من الداعي الذاتي سببا دعاه على التأليف في شرح أرجوزة أبي نواس **(ت.198هـ)** التي مطلعها "وبلدة فيها زور" قال: "سألت - أعزك الله- أن أعرب لك أرجوزة أبي نواس التي أولها (وبلدة فيها زور) وأن أشبع الكلام، وأن أفسر ما فيها من معنى ولغة وإعراب، وأورد في ذلك النظائر، وأنا أنتهي إلى ما سألت، بادئا في ذلك بقضاء حق مودتك."[3]: كما أن ابن جني **(ت.392هـ)** قد بين دافعه الموضوعي في مقدمته من خلال "الخصائص" قال: "كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت، ملاحظا له، عاكف الفكر عليه، منجذب الرأي والروية إليه، وإذا أن أجد مهملا أصله به، أو خللا أرتقه بعمله، والوقت يزداد بنواديه ضيقا، ولا ينهج لي إلى الابتداء طريقا، هذا مع إعظامي له، واعصامي بالأسباب المنتاطة به، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علم العرب..."[4].

كما نفهم من ذلك أن هذا الداعي الذي انتهجه ابن جني هو دافع تعليمي أساسه الانتقاء والاختيار وأيضا تفسير الغرابة وتوظيف قواعد اللغة، وهو ينطلق من منهج متكامل باكتفائه الذاتي. كانت هذه دوافع ابن جني التي حملته على شرح مبادئ النحو والإعراب.

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص03.

(2) أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ص6.

*1- مستغلق: منغلق ومسدود.

(3) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص43.

(4) ابن جني: الخصائص: ص1و2.

ولذلك فإن الحديث عن دواعي التأليف لدى الكتاب المبدعين، معين يفيد في وضع خطط هندسية ورسم بعض معالم الرؤية والتمعن، التي تتحكم في فعل الكتابة والمؤلف نفسه، سواء تعلق الأمر بالدواعي الذاتية أم الموضوعية، وإن كانت هذه الأخيرة أبلغ وأغنى في تنبيه القارئ والمتلقي إلى نوعية من القراءة والتفحص هو مقبل عليها، ولا شك أن المؤلف واع تماما بوظيفة هذا المصاحب الذي يحرص على أن يكون في فاتحة القسم الثاني من المقدمة فمن خلاله يعرف المتلقي القارئ أنه في صدد قراءة كتاب ألفه صاحبه في ظروف معينة، مصبوغ بألوان شتى من العلوم والمعارف المفيدة لكل مهتم ومقبل للقراءة، فالمؤلف إذا كان يعرف كل المعرفة بما يدونه ويسجله في كتابه من قضايا وأصول، فالقارئ نفسه واع كل الوعي بقيمة هذه الأصول التي لابد من تحليل بناها للوصول إلى القيمة المعيارية وكذا الهدف المراد من تلك الكتابة والقراءة في نفس الوقت. واللافت الانتباه أن المؤلف يعقب بعد ذلك بالحديث عن جنس التأليف وهو عنصر متمم ولاحق لحديث الدواعي والأسباب التأليفية.

ب- جنس التأليف:

والمقصود بجنس التأليف في ممارسة العلماء القدامى أن يعرض الكاتب لأمور ثلاثة أو لأحدها، هي: تحديد النوع أو الجنس التأليفي الذي ينتمي إليه الكتاب، وبسط موضوع الكتاب، وتفسير عناصر العنوان الذي اختاره لتأليفه." والغالب أن يكتفي المؤلف بتحديد النوع الذي ينتمي إليه الكتاب بالإضافة إلى طرح الموضوع، أما تفسير العنوان فقليل في المقدمات التي عقدها القدماء لمؤلفاتهم بالمقارنة مع العنصرين الآخرين."[(1)],وهو عنصر مهم في خطاب المقدمة لما له من دور في إظهار قيمة الكتاب وموضوع مقدمته.ومن بدائع هذا المكون أن الذين تعاطوا صناعة التأليف أتوا به نثرا، كما أتوا به نظما.

قال الإمام أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري في تقديم الجنس الذي منه كتاب "سر الصناعتين"، فقال: "إن أحق العلوم بالتعلم وأولاهـــا بالتحفـظ، بعـــد المعرفة بالله جل ثناؤه،علم البلاغـــة ومعرفـــــة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى..."[(2)] وقال أيضا مبينا الدافع الذي حمله على التأليف فقال: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام وقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة... رأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع

---

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص43.

(2) أبو هلال العسكري:سر الصناعتين، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 1981، ص09 (المقدمة).

ما يحتاج إليه من صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تفصيل وإخلال وإسهاب وإهدار..."[1]

وقدم ابن قتيبة موضوع كتاب "الشعر والشعراء" تقديما بينا صريحا، فقال: "هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم. وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم."[2], فمن خلال هذا نتبين العنوان الذي يتشكل من الكلمتين (الشعر) و (الشعراء)، مما يفيد أنه في التراجم وأخبار الشعراء وأشعارهم.

كانت هذه الطريقة التي عرض بها كل مؤلف قضايا مقدمته، التي من خلالها يتبين القارئ نهجه، ويفهم غرضه في عرض مادته العلمية التي تختلف في نوعية الشرح والتقديم من مؤلف إلى آخر، ها هو أبو العباس المبرد يعرض موضوع كتابه "الكامل في اللغة والأدب" قال: " هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة،واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق..."[3] ويبين عبد ربه في مقدمة عقده موضوع وجنس تأليفه قال: "فتطلبت نظائر الكلام، وأشكال المعاني، وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه، فجعلته بابا على حدته، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب، ونظيره في كل باب، وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرا وأظهرها رونقا، وألطفها معنى، وأجزلها لفظا، وأحسنها ديباجة، وأكثرها طلاوة وحلاوة آخذا بقوله سبحانه وتعالى: **(الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)**"[4] , وقال أبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" مبرزا موضوع مؤلفه قال: "هذا كتاب ألفه علي بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالأصبهاني وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره، وصانع لحنه وطريقته من إيقاعه وأصبعه التي ينسب إليها من طريقته، واشتراك إن كان بين المغنين فيه، على شرح لذلك وتلخيص، وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن عمله من: علل إعرابه وأعاريض شعره التي توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه..."[5].

---

[1] المصدر نفسه: ص13.
[2] ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص07.
[3] أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ص06.
[4] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص3 و4.
[5] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مراجعة وضبط الشيخ عبد الله العلالمي وموسى سليمان وأحمد أبو سعد، م1 دار الثقافة بيروت، ص11 (المقدمة).

أما القلقشندي فكانت طريقته في العرض واضحة وجلية حين قال في صبحه: "وبعد، فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها، وأربح البضائع وأنفعها، وأفضل المآثر وأعلاها، وآثر الفضائل وأغلاها، لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها، وإنسان عينها بل عين إنسانها لا تلتفت الملوك إلا إليها، ولا تعول في المهمات إلا عليها، يعظمون أصحابها ويقربون كتابها، فحليفها أبدا خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل والتكريم."[(1)], وبالمثل جاءت المقدمة الموجزة واضحة الموضوع للإمام أحمد بن الحسين الزوزني في كتابه "شرح المعلقات السبع" قال: "هذا شرح القصائد السبع أمليته على حد الإيجاز والاقتصار على حسب ما اقترح علي..."[(2)] وعرض القالي فكرة موضوعه في مقدمة كتاب "الأمالي" قال: "فإني رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه حتى حويت خطيره، وأحرزرفيعه، ورويت جليله، وعرفت دقيقه وعقلت شاردة، ورويت نادرة وعلمت غامضه, ووعيت واضحه، ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره ونزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه وأبديه لمن يعلم فضله..."[(3)]

إن هذا التنوع المعرفي وتباين نوعية الكتابة بين الكتاب القدامى، يجعل من المقدمات التي رصدت مؤلفاتهم تعبر هي الأخرى عن كفاءة وتميز كل مؤلف عن الآخر، ونحكم بذلك من خلال هذه الأدوات المتنوعة التي يستخدمونها في تثبيت فكرتهم، وتوضيح غاياتهم وكذا إقناع القارئ الذي يرصد حركات الكتابة ونوعيتها، فهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني من خلال مقدمة كتابه "دلائل الإعجاز" يبين موضوعه فقال: "هذا كلام وجيز يتطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة*1 وينظر منه في مرآه تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد، ويرى بها مشئما*2 قد ضم إلى معرق*3 ومغربا قد أخذ بيد مشرق، وقد وصلت بأخرة*4 إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة، دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه، وبعثه على طلب ما دوناه..."[(4)] ، <u>في حين عمد القرشي **(ت.170هـ)**</u> لهذا الموضوع قال: "هذا كتاب جمهرة

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا،ص6 (المقدمة).
(2) الزوزني: شرح المعلقات السبع. تح محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع القاهرة،1994،ص9 (المقدمة).
(3) القالي: الأمالي، ص15.
(4) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص7 (المقدمة).
*1- الدفعة من المطر وغيره بالضم مثل الدَفقة. والدُفقة بالضم، المرة الواحدة.
*2- أشأم الرجل والقوم: أتوا الشام وذهبوا إليها.
*3- مصدر أعرق الرجل فهو معرق إذا أخذ في بلد العراق أي أتاها.
*4- يقال: جاء فلان بأخرة بفتح الخاء أي أخيرا.

أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، الذين نزل القرآن بألسنتهم، واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد في معاني القرآن، وغريب الحديث من أشعارهم، وأسندت الحكمة والآداب إليهم، تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي..."[1]

ونحن نلاحظ هذا الاختلاف في تحديد جنس التأليف عند العلماء القدامى ،يجعلنا ندرك مدى قدرة كل واحد منهم على الاتيان بما يناسب القارئ المهتم في جعله يختار ما يناسبه من العلوم وبالطريقة التي يحبذها هو ،وما هذا إلا دليل على براعة كتابنا وتفوقهم في هذذا المجال.

جـ- خطة التأليف:

تعد الخطة من أهم العناصر والترتيبات التي تنظم الأعمال وتبرز جمالها ومكوناتها المتنوعة كما أنها تلك الطريقة الفنية الإبداعية التي بها تعرض المؤلفات في رونق متجانس، وهيئة جذابة تجعل من كل عنصر وقسم يأخذ حقه من التوحد والنظام وأيضا الشريعة التأليفية.

ومن أجل ذلك تقوم خطة تأليف الكتاب فيما صنعه العلماء المسلمون القدامى على عنصرين اثنين أساسيين لم تخل منهما مقدمة إلا في القليل النادر: **1-** تبيان الطريقة التي نهجها المؤلف في تأليف الكتاب وعرض مادته، ثم **2-** عرض الأقسام أو الأبواب أو الفصول التي يتكون منها. ويعد هذا المكون أساسيا في كل مقدمة، فهو شريعة القارئ في تتبع واستقراء مواد الكتاب، كما أنه قبل ذلك، شريعة المؤلف في تنظيم موضوعات الكتاب. "فأما العنصر الأول الذي يشرح فيه المؤلف طريقته في تأليف الكتاب أساسي وقف عند تبيانه وتفصيل الحديث فيه أكثر من تعاطي لهذه الصناعة"[2] على رأسهم القلقشندي الذي يعتبر واحدا من أبرز الذين نظروا لصناعة التأليف والمكاتبات السلطانية والديوانية، قال يذكر خطة تأليف كتابه "صبح الأعشى": "فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى، وما خاب من استخار، وراجعت أهل المشورة وما ندم من استشار، مستوعبا من المصطلح ما اشتمل عليه التعريف والتثقيف، موضحا لما أبهماه يتبين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف، ومتبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها، متنقلا من توجيه المقاصد وتبيين الشواهد بما يعرض به من فرع كل قضية وأصلها، آتيا من معالم الكتابة بكل معنى غريب، ناقلا الناظر في هذا المصنف عن رتبة يسأل فلا يجاب،إلى رتبة أن يسأل فيجيب منبها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون التي يخرج بمعرفتها من عهدة الكتابة ودركها..."[3]

---

(1) أبي زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، شرح د/ عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للنشر بيروت، لبنان، ص09 (المقدمة).

(2) مصطفى سلوي: عتبات النص: ص46.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1 ص35-36.

وقال ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" يذكر منهجه في اختيار الشعراء والترجمة لهم: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعينالعدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووقرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله: ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ..."(1)

أما عرض مواد الكتاب والتعريف بموضوعاته وأهدافه، فقد تأتي في حديث مستقل مباشرة بعد عرض منهج وأسلوب الكتابة، وقد تأتي مختلطة مع حديث المنهج، بالرغم من أنه لا مجال للفصل بين هذين العنصرين، فكل واحد منهما يستدعي ويطالب بالآخر. ولابد هنا من الإشارة إلى أن من المؤلفين من جاء بموضوعات كتابه وأقسامه التي انقسم إليها نظما، والذي عليه الإجماع أن ترد نثرا.

قال أبو هلال العسكري في ترتيب موضوعات "سر الصناعتين": "وأجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا: الباب الأول في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة وما يجري معه من تصرف لفظها وذكر حدودها وشرح وجوهها وضرب الأمثلة في كل نوع منها وتفسير ما جاء عن العلماء فيها..."(2) ثم واصل حين ذلك بذكر ما يتعلق بتعداد أسماء الأبواب والفصول.وكل هذا ليجعل القارىء على بينة مما سيقرؤه داخل الكتاب .

في حين فضل الثعالبي ضمن مقدمة كتابه "فقه اللغة" أن يفصل طريقة نهجه وتعامله مع محاور كتابه بنوع من الترتيب الجيد قال: "أدام الله أنس الفضل به، فتح لي إقباله رتاج التخير، وأزهر لي قربه سراج التبصر في استتمام الكتاب، وتقرير الأبواب، فبلغت بها الثلاثين على مهل وروية، وضممتها من الفصول ما يناهز ستمائة فصل مع الترتيب."(3)

وبطريقة مغايرة يحدد القلقشندي منهجه في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" باختصار وترتيب وأيضا تفصيل قال: "وقد رتبته على مقدمة، وعشر مقالات وخاتمة."(4)

من خلال ذلك يتبين لنا أن بنية حديث المنهج في مقدمات القدماء قسمان: مسهبة تعدد الأقسام وتشرح طريقة الكتابة وموجزة مختصرة تكتفي بعرض الأقسام، كما هو واضح في نصوص الجرجاني و الآمدي وأبو هلال وغيرهم...

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص 10.
(2) أبو هلال العسكري: سر الصناعتين، ص13- 14.
(3) الثعالبي: فقه اللغة، ص36.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ص10.

د- تقريظ الكتاب:

يعد عنصرا هاما في بنية المقدمة النقدية لكشفه ميزات الكتاب كله بطريقة مميزة وأكثر دلالة، فقد جاء في "لسان العرب" أن: " القرظ: شجر يدبغ به، والتقريظ: مدح الإنسان وهو حي، وقرظ الرجل تقريظا: مدحه وأثنى عليه، مأخوذة من تقريظ الأديم يبالغ في دباغه بالقرظ، كما أنه جاء في باب (قرّض): والقَرض والقرض: ما يتجازى به الناس ويتقاضونه وجمعه قروض، وهو ما أسلفه من إحسان أو إساءة"[1]

ونحن كل ما يهمنا في دراستنا هو ما علاقة هذا التقريظ ببنية المقدمة أصلا؟ خاصة إذا كان المقصود بتقريظ الكتاب ما صنعه القدامى من مقدمات: سواء الثناء على الكاتب ومدحه وعرض محاسنه ومزاياه التي يختص بها دون غيره وقد يذهب المؤلف في حديث التقريظ إلى إعلان السبق والجدة والنوعية وانعدام المثيل.

ولابد هنا من الإشارة إلى أن المؤلفين القدامى يقرظون مؤلفاتهم بطريقتين: الأولى تقريظ الكتاب من خلال اختيارهم عنوانه،"فيقال: (الكامل) و(الحماسة) و(الوساطة) و(الموازنة) و(الأمالي) و(أسرار البلاغة) و(عيار الشعر) و(الشعر والشعراء) و(سر الصناعتين) و(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) و(الأغاني) و(البيان والتبيين) و(الإمتاع والمؤانسة) و(صبح الأعشى) و(شرح القصائد العشر)، وغيرها من الأسماء التي تفيد علو وشأن وقيمة الكتاب بالإضافة إلى جنوحهم في كثير من الأحيان إلى استعارة بعض ألفاظ النبات والمعادن واللآلئ والجواهر والنجوم والأفلاك يسمون بها مؤلفاتهم، لتؤدي ما يمكن أن نصطلح عليه الوظيفة الإشهارية فقيل: (العقد الفريد) وغيرها..."[2]

فبتنوع عناوين المؤلفات النقدية تتعدد طرق التقريظ أيضا، منها طول المدة التي استغرقها التأليف وذاك صنيع ابن جني في تقريظ كتاب (الخصائص). قال: "كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت ملاحظا له، عاكف الفكر عليه، منجذب الرأي إليه."[3]. والغالب أن يمدح المؤلف كتابه مباشرة ودون حاجة إلى الوسائط والإعانات، فقال ابن جني مكملا تقريظه: "هذا مع إعظامي له، وإعصامي بالأسباب المنتاطة به، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علم العرب، وأذهبه في طريق القياس والنظر."[4].

[1] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 1994، ج7، ص217-218.

[2] مصطفى سلوى عتبات النص،ص50.

[3] ابن جني: الخصائص، ج1، ص01 (المقدمة).

[4] نفسه : ج1، ص1.

وهو هنا يضيف إلى تقريظ الكتاب التباهي بعلمه وأدبه المتنوع، وهذا عيب لا يجوز للعلماء، ومن أجـــل ذلـك وجدنا كثيرا من المؤلفين تغاضوا عن هذا الركن وأهملوا تقريظ مؤلفاتهم بالرغم من القيمة الجليلة التي انطوت عليها، مثل القرطاجي فـي كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) وغيره من المؤلفين.

وانتبه الإمام ضياء الدين بن الأثير **(ت.637هـ)** إلى ما في تقريظ الكتاب من الزهو بالنفس، فحاول جهد المستطاع الابتعاد عن هذا الأمر، فوقع فيه مع الرغبة والوعي به، قال في كتابه الموسوم بـ (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر): "ولا أدعي فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان، ولا السلام من اللسان، فإن الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته، ويسيء بالإحسان ظنا -لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون- وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديع في أغرابه، وليس له صاحب في الكتب؛ فيقال إنه مفرد بين أصحابه من أخدانه أو من أترابه، ومع هذا فإني أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه لم أقع فيه..."[1] صور جميلة مثل بها الكاتب قيمة كتابه التي ليس لها حدود ولا مقارنة، هذه اللمحة التي أورد فيها جميع الجماليات الكونية ليدل بها على نفاسة مؤلفه، كانت هذه طريقته في العرض.

وكيفما كان نوع التقريظ أو شكله أو بنيته الواقعة في خطاب المقدمة، فإنه يؤدي داخل مؤلفات العلماء المسلمين القدامى وظيفة إشهارية جمالية تنضاف إلى مثيلتها في العنوان المختار المرصّع بنوعية خاصة من الألفاظ سبقت الإشارة إليها. ولا يغرب على أحد أن القدامى كانوا على وعي تام بهذه الوظيفة التي من شأن هذا الركن أن يقدمها للكتاب ولصاحبه."[2] لأنها ميزة لا بد منها حتى تجد المؤلفات طريقها إلى النجاح من قبل القارئ والمتلقي.

العنوان ووظـائفه:

وله دور كبير أيضا في رواج واقتناء الكتب، من خلال تلك الوظيفة الإشهارية الموجودة على صفحة العنوان التي تعد بدورها الواجهة الإشهارية للكتاب وصاحبه، والتي من خلالها قد نبتاع ذلك المؤلف ونقوم بشرائه، ذلك "لأنه يعد من بين أهم عناصر المناص أو النص الموازي، لهذا فإن تعريفه يطرح بعض الأسئلة، ويلح علينا في التحليل فجهاز العنونة كما عرفه عصر النهضة أو قبل ذلك العصر الكلاسيكي كعنصر مهم، كونه مجموع معقد أحيانا أو

[1] ابن الأثير: المثل السائر فـي أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد محمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، ص35.

[2] مصطفى سلوي: عتبات النص، ص53.

مربك، وهذا التعقيد ليس لطوله أو لقصره، ولكن مرده مدى قدرتنا على تحليله وتأويله."(1)

ولذلك ومن خلال الدراسات المتخصصة في العنوانيات، والتي تغيرت بتغيير الظروف والحقب والطرائق، هي ليست نفسها في كل كتاب أو مؤلف "فقد أصبحت العناوين موضوعا صناعيا objet artificiel لها وقع بالغ في تلقي كل من القارئ والجمهور والنقد والمكتبيين... فالعنوان عبارة عن كتلة مطبوعة على صفحة العنوان الحاملة لمصاحبات أخرى مثل اسم الكاتب أو دار النشر..."(2)

وينظر البلاغيون إلى العنوان على أنه تلخيص واختصار، إذ يقوم فيه المؤلف باختزال القول وحذف كل ما لا حاجة إليه، مع تقريب مضمون الكتاب من القارئ الذي يجد في الملخص أو العنوان المقدم له، مجموعة من العلامات الدالة على مضمون الكتاب ومقاصده، أما المناطقة فيعتبرون العنوان مفهوما للموضوع ووصفا له، ما دام الكتاب الذي لا يحمل عنوانا يظل في طي المجهول ولا يلقى الاهتمام والتشجيع على قراءته من الوهلة الأولى، ومن هنا يكون العنوان أنه "يعلن عن طبيعة النص، ومن ثم نوع القراءة التي تناسب هذا النص."(3)

ولقد عني العلماء المسلمون القدامى بطبيعة العنوان فأدركوا أهميته الخارجية والداخلية التي تكسب النص كله فاعليته وقيمته اللفظية والدلالية، فالعنوان عندهم هو بمثابة الرأس من الجسم، ولا يمكن بذلك تأليف عمل أدبي دون أن يحمل اسما دالا عليه، فالعنوان له دور كبير في نشر الكتاب – بيعه وكساده- وإقبال المتلقين عليه أو بعدهم عنه.

وفي الوقت نفسه يعتبر العنوان الذي يقدم بين يدي القارئ" معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، فهو إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد، غير أنه يكون طويلا فيساعد على توقع المضمون الذي يتلوه، وإما أن يكون قصيرا وحينئذ فإنه لابد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه."(4)

ويقول جيرار جينيت: "العنوان كما هو معروف هو اسم الكتاب، ومن حيث هو كذلك فهويستخدم لتسميته أي لتعيينه بأكبر قدر ممكن من الدقة مع تفادي أي خطر في الخلط ولذا

---

(1) عبد الحق بلعابد: عتبات، ص65.

(2) المرجع نفسه: ص67.

(3) جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، ضمن مجلة عالم الفكر، مجلد 25، ع3، 1973، ص107.

(4) توظيف العناوين في تأليف المصنفات: المبادئ والأهداف، ضمن منشورات مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1995، ص69.

من الضروري معرفة تبريرات استخدامه."[1]

فهذا التعريف يقدم لنا العنوان الموضوع للكتاب كدليل على وجود الكتاب وجودا ليس ماديا فقط بل دلاليا، حيث يعطي العنوان الكتاب خاصة التميز والتفرد، التي تحقق للكتاب كيانه الخاص والمستقل عن باقي الكتب والنصوص، بل عن باقي الأشياء والأشخاص بما فيهم صاحبه الذي أوجده، والعلاقة الموجودة بين العنوان والكتاب تتخذ من الحقل الدلالي مجالها الحيوي حين يتحول العنوان إلى مثير يحرك ما في المتلقي من دلالات كامنة يوحي بها العنوان.والذي يصبح رمزا قابلا للقراءة المتعددة ويملك خاصية الإثارة والتأثير على القارئ.

فمثلا عنوان كتاب الوساطة الكامل هو "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وهذا العنوان كما نلاحظ قصير يتكون من سبع كلمات، ثلاثة أسماء وظرف مكان وحرف عطف، وضمير الغائب المتصل، وجاء العنوان من الناحية التركيبية جملة اسمية مما جعله لا يرتبط في حركيته بالزمن في أبعاده الثلاثية المعروفة، وهذا ما يعطي العنوان ومعه الكتاب انفتاحا زمنيا غير محدد. وهكذا بالنسبة لباقي العناوين التي غطت الساحة الأدبية.

ولذلك إذا كان العنوان إلى جانب مقدمة الكتاب، إحدى أهم مصاحبات النص، فإن لقراءتها وتأول عناصرها المحيطة التي يلفها داخل صفحة الغلاف أهمية كبرى وتأثيرا بالغا قد يخـدم النص ويضيف إليه، وقد ينزلق إلى ما لم يقصده المؤلف بالمرة ولذلك وجب أخذ الحيطة في ذلك لتكون القراءة هادفة وموضوعية تتلمس طريقها وسط الدلالات والمقاصد في المتن.

فيبقى بذلك العنوان عبارة عن وظيفة لفظية ودلالية، أين يؤدي مفهوم الأثر والوسم في الربط بين ثلاث عوامل أساسية لا تنفك عن فعل الكتابة وكذا القراءة وهي: المؤلف والكتاب والمتلقي. وهو كذلك "عقد شعري بين الكاتب والكتابة من جهة، وعقد قرائي بينه وبين جمهوره وقرائه من جهة أخرى، وعقد تجاري وإشهاري بينه وبين الناشر من جهة ثالثة... وهو يملك بهذا قيمة جمالية وشعرية كتابية متميزة."[2] تساعد الباحث على الغوص في ثنايا النص واستخراج معانيه بدقة وفهمه، واستكناه مقاصده، وبالتالي الوصول إلى الغاية الأولى التي تقتضيها عملية القراءة الكتابة.

---

[1] الحكاية والمتخيل:دراسات في السرد الروائي والقصصي، نقلا عن مجلة LANAGES ع66، يونيو 1982، ص76-77.

[2]عبد الحق بلعابد: عتبات، ص71.

هـ- مصــادر التأليف:

من عادة العلماء المسلمين القدامى التنبيه على مصادر تأليفهم ضمن خطاب المقدمة وهم إذ يفعلون ذلك إنما يمتثلون لخلق قرآني، وهو رد الأمانة إلى أهلها من قول أو وديعة أو غير ذلك، "وكأن القول أو الرأي أو النص الذي يستعينون به من كتاب آخر عبارة عن أمانة في عنقهم عليهم ردها إلى محلها. ثم إن العمل بهذا المنهج ينفي عن المؤلف تهمة السرقة ويبعده عن الاتكال على الآخرين والعيش على فتات موائدهم دون الإشارة أو التنبيه إلى مصدر النعمة، وليس هنالك مؤلف أغفل الحديث عن مكتبته التي رافقته فـي تأليفه هذا الكتاب أو ذاك..."[(1)] سواء نص على ذلك في خطاب المقدمة أو فيما يشير إليه من مؤلفات داخل المتن، كما يتحدث المؤلف عن مصادر كتابه حين يشير إلى من سبقه إلى التأليف فـي ذلك الموضوع الذي هو مقبل على الخوض فيه.

والثعالبي **(ت.429هـ)** أبـدى رأيه فيمـن أخذ عـنهم قـائلا: " وأنتجع مـن الأئمـة كالخـليل والأصمعي وأبي عمرو الشيباني والكسائي، والفراء، وأبي زيد وأبي عبيدة، وابن الأعرابي، والنضر بن شميل وأبوي العباس، وابن دريد، ونفطويه، وابن خالويه والخارزنجي، والأزهـــــري ومن سواهم من ظرفاء الأدباء..."[(2)] , وإذا علمنا أن أنواع الاستشهاد داخل متون التأليف خمسة: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر . علمنا أن كل مؤلف يأتي بهذه النصوص التي يروي فيها عن غيره، انطلاقا من عبارات من مثل: قرأت في كتاب كذا، أو رأيت في كتاب كذا، أو سمعت فلانا، أو حدثني فلان، أو قال لي فلان، وأخبرني فلان عن كذا، ونقل لي فلان عن كذا أو غير ذلك وهي لا تعد ولا تحصى في هذه المقدمات النقدية التي بين أيدينا. ومهما يكن من أمر فإن مكوّن المصادر مرتبط ارتباطا وثيقا بحديث التقريظ، إذ إن إحصاء عدد هائل من المقدمات أو المؤلفات من شأنه أن يعلي قيمة الكتاب، ويرفع من درجته وشأنه وشأن صاحبه أيضا: فكلما كان التوثيق حاضرا بشكل مكثف وواسع داخل النص، كانت قيمة ذلك النص أو الكتابة التأليفية عالية مرفوعة أين تتساوى وظائفها وبناها مع بعض مكونة ذلك الترابط الجمالي بين كل عنصر وآخر ونحن نعرف أن طرق التوثيق التي ينص عليها المؤلفون كثيرة منها:النقل و التأثر والإطلاع والترجمة وأيضا عن طريق الاستمتاع.

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص54.

(2)الثعالبي: فقه اللغة، ص34.

و- نـقد المؤلفات السـابقة:

ينبجس ويولد هذا المكون في أحضان المكون الذي سبق التكلم عنه، وهو المصادر أو مكتبة التأليف، لأننا نجد غالبا ما يعمد المؤلف إلى الحديث عن المصادر فرصة لنقد المؤلفات التي سبقته إلى تناول وعرض الموضوع المناقش الذي قصده في تأليفه. "ثم إن هذا المكون يكون كذلك سببا في ولادة مكون آخر سبق الحديث عنه أيضا وهو تقريظ الكتاب والزهو بقيمته وجدته وبأنه لا يضاهى، ويرد نقد المؤلف للكتب التي سبقته أحيانا متداخلا مع حديث المكتبة أو مصادر التأليف"(1)

وفي بعض الأحوال وجدنا المؤلف يفرد هذا المكون بحديث خاص خارج مكون المصادر نفسها بحيث يكون هذا النقد ينطلق أصلا من خلال استقراءنا تلك المقدمات بواحدة من طريقتين اثنتين: **الأولى** إما أن يكون هذا النقد بالثناء على المؤلفات السابقة والاعتراف بما جاءت به من فوائد وأهميات انتفع بها وهذا بطبيعة الحال قليل. **والثانية** إما أن يكون النقد بإظهار نقص وعدم اكتمال تلك المؤلفات وزلات أصحابها وما وقعوا فيه من الخطل والغلط والإهمال وأمور أخرى كثيرة، وهذا هو الكثير والذي نصادفه بصورة واضحة وجلية. "وكتاب المؤلف في هذه الحالة جاء ليتجاوز أخطاء السابقين وهفواتهم ويتدارك ما وقعوا فيه من تفريط وإهمال"(2) .ومن هذا النوع من النقد قول ابن جني على من سبقه بالتأليف في موضوع كتابه (الخصائص) قال: "فأما كتاب أصول أبي بكر، فلم يلمم فيه بما نحن عليه إلا حرفا أو حرفين في أوله... على أن أبا الحسن قد كان صنف في شيء من المقاييس كتيّبا إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت أنّا بننا عنه فيه وكفيناه كلفة التّعب به..."(3) ،أما النمط الأول من النقود التي يقر فيها المؤلف بفضائل الكتب وفوائدها التي سبقته بالرغم من أنه لم يستطع أيضا أن يمسك لسانه عن بعض النقد الذي جاء خفيفا رقيقا متواضعا، فمثاله ما قاله أبو الهلال العسكري في تقديم كتاب الصناعتين، قال: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموا من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمع المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص55.

(2) المرجع نفسه، ص56.

(3) ابن جني: الخصائص، ج1 ص02.

عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة..."[1] في حين اختصر ابن قتيبة في آخر مقدمته لكتاب (الشعر والشعراء) حين قال: "غير أني رأيت ما ذكرت من ذلك كتاب العرب كثيرا كافيا فكرهت الإطالة بإعادته فمن أحبّ أن يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشعر ومرّه، نظر في ذلك الكتاب."[2], وما نجده أيضا ومن خلال تقصّينا بنيات هذه المقدمات أن الجاحظ نفسه كان يشيد بكتبه وأعماله وهي طريقة قد نهجها الكثير من الأدباء والنقاد حتى يجعلون من هذه المؤلفات أعمالا ليس لها مثيلا خاصة إذا تمعنّا في قوله في مدح مؤلفه "على أنه كتاب معناه أنبه من اسمه وحقيقته آنق من لفظه، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالم الخاصّي ويحتاج إليه الرّيض كما يحتاج إليه الحاذق..."[3] ومن أهم القضايا النقدية التي امتازت بها كتب الجاحظ أنها تعالج القضايا الإنسانية العامة دون التمييز بين العام والخاص، وهذه القضية في الأساس هي من أهم القيم التي تهتم بالمنفعة العامة، لأن المؤلف ومن خلال إبداعاته المتواصلة يخاطب جميع البشر كافة يستحق لقب رسول الأدب بجدارة، وهذا طبعا ما لاحظناه في معظم المقدمات النقدية التي بحوزتنا والتي ثبت القول فيها أنها تمثل القيم الإنسانية الرفيعة خاصة حين اعتبر ابن قتيبة كتابه (عيون الأخبار) نموذجا لذلك حين مدحه قائلا: "وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين."[4] وهي صورة رائعة وصف بها المؤلف كتابه جاعلا منه نموذجا فريدا لاستقطاب المتلقين والمهتمين.

---

[1] أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص13.

[2] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص11.

[3] الجاحظ: الحيوان، تح وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، 1412هـ-1992، ص10.

[4] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص(ل) من المقدمة.

ع- زمـان التأليف ومكانـه:

هذا العنصر المقصود به أن ينص المؤلف على زمان التأليف ومكانه في بداية التأليف وكذلك حين الانتهاء منه، وهو مكون لابد منه في خطاب المقدمة خاصة وأنه كان من عادة المؤلفين القدامى المسلمين الاهتمام به بتحديد زمان ومكان البدء في العملية التأليفية والإبداعية، بذكر التواريخ والبلدة التي كانوا مقيمين بها حين شرعوا في أعمالهم. هذه الطريقة والكيفية التي أصبحت تعتبر ركيزة من ركائز التنظيم الإبداعي لدى المؤلفين حين ينصّصون على زمان التأليف ومكانه حتى وإن غيّروا إقامتهم لغرض من الأغراض، وبقيت هذه العادة متداولة لدى الكتاب إلى حد الآن لأن ذلك ربما يكون دليلا ومؤشرا على اللحظة والزمن اللذان وقعا فيهما الإبداع.

ومعظم المؤلفين لم يرد عندهم هذا العنصر بتاتا في مقدماتهم المختلفة المواضيع والقيم لأننا لم نجد ما يبين ذلك، ونعتقد أن منهم من كان يترك الحديث عن زمان التأليف ومكانه إلى عتبة الخاتمة وحين الفراغ من العمل وقبل الدعاء وحمد الله، وهذا هو الغالب على طريقة القدامى في التعامل مع هذا المكون الزمكاني.وقد قال القلقشندي في تعيين هذا العنصر داخل مساحة المقدمة: "نجزت تأليفه في اليوم المبارك يوم الجمعة الثامن والعشرين من شوال سنة أربع عشر وثمانمائة."[1] , فإذا علمنا أن ولادة القلقشندي كانت سنة **756هـ** وأن وفاته كانت سنة **821هـ** تبين لنا أنه انتهى من تأليف كتابه وعمره ثمان وخمسون سنة، وأنه عاش بعد الانتهاء من هذا التأليف سبع سنوات فقط، أي أنه عـاش خمسا وستين سنة، قضى منها خمسا وعشرين سنة متفرغا للكتابة فـي ديوان الإنـشاء خلال عصر المماليـك في حين لا نعرف له تاريخ البدء في التأليف. وههنا فائدة التنبيه على زمان تأليف الكتاب، إذ تفيد القارئ في استحضار مجموعة من الظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي من شأنها أن تؤثر في الكتاب أو في صاحبه والملاحظ أن الحديث عند القدماء عن زمان تأليف الكتابة أكثر من حديثهم عن مكان تأليفه، إذ نادرا ما نجد مؤلفا ضبط اسم المكان الذي كان مقيما فيه حين ألف كتابه، ثم إن زمان تأليف الكتاب مفارقة أخرى تكمن في أن حديث المؤلف عن زمن الانتهاء من التأليف أكثر من حديثه عن زمن الشروع فيه."[2] خاصة إذا كان الزمان هو الدليل على صحة ما كتب ودون من قبل القدامى، والمكان هو الإثبات على صحة ما جاء به السابقون وبهذا المفهوم يكون التاريخ هو عمود اليقين ونافي الشك و به تعرف الحقوق وتحفظ العهود ،والكتاب من دون تاريخ نكرة بلا معرفة.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1 ص10.

(2)مصطفى سلوي:عتبات النص،ص59.

ي- الدعــاء والــحمد:

وهو العنصر الأخير والمكون المكمل لخطاب المقدمة، ويعد قفلها خاصة إذا كانت البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم مفتاحها "فقد أوجب العلماء المسلمون القدامى حمد الله وشكره بالإضافة إلى الدعاء في آخر كل مقدمة يضعونها لمؤلفاتهم، فكما ابتدأ المؤلف بالتوجه بالخطاب إلى الذات الإلهية، وجب عليه أن ينتهي بخطاب مواز يناجي فيه خالقه ويشكره على نعمة الصحة ونور البصر وسعة الوقت والخلو من الهم حتى تمكن من إنجاز ذلك التأليف."[1]

ومعظم خواتم القدامى كثيرة ومتنوعة التي ورد فيها الدعاء والحمد وهناك أيضا من اكتفى بالحمد والشكر ومنهم من أضاف إليها الدعاء، فهذا أبو منصور الثعالبي يختم مقدمة كتابه (فقه اللغة) بالدعاء للأمير السيد أبي الفضل الميكالي، ليقول بعد ذلك: "والله الموفق للصواب، وهذا حين سياقة الأبواب."[2] وتعتبر مقدمة هذا الكتاب من أغنى المقدمات إذ عرض فيها المؤلف حتى لبعض الأسباب التي كانت تعوقه عن إتمام التأليف في ظروف حسنة مواتية، كما عرض لما دعاه المحدثون بإهداء الكتاب. وهو ركن مضمّن في دواعي التأليف الذاتية وإن كان الثعالبي قد أفرده بحديث خاص، تماما كما فعل الجاحظ في إهداء كتابه (البيان والتبيين). وختم الخطيب التبريزي مقدمة (شرح القصائد العشر) بالطريقة نفسها التي رأيناها عند الثعالبي قال: "والله الموفق للسّداد، والهادي إلى الرّشاد."[3]

وجعل أبو هلال العسكري الدعاء خاتمة مقدمته لكتاب الصناعتين حين قال: "وأرجو أن يعين الله على المراد من ذلك والمقصود فيما نحونا إليه ويقرنه بالتوفيق ويشفعه بالتسديد، إنه سميع مجيب."[4] وفضّل المرزباني أن يختم مقدمة الموشح يقول: "ونعوذ بالله من التشاغل بغير ما قرّب منه وأدى إلى طاعته،ونسأله التوفيق لأرشد الأمور وأحسنها بدءا وعاقبة بمنّه وكرمه،وهو حسبنا ونعم الوكيل"[5],وأكثر ما نستنبطه من هذه المقدمات أن معظمها فضّل فيها أصحابها الاعتماد على الدعاء عن طريق الاستعاذة بالله من أمور لا نحبّذها منها اللحن والغلط والفقر وأمور أخرى لا تعد ولا تحصى.

كما فعل أبو الفرج الأصفهاني في آخر مقدمته فقال: "ونعوذ بالله مما أسخطه من قول أو عمل، ونستغفره من كل موبقة وخطيئة وقول لا يوافق رضاه، وهو ولي العصمة والتوفيق،

---

(1) مصطفى سلوي:عتبات النص: ص59.

(2) أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة، ص39.

(3) الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ص18.

(4) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص14.

(5) المرزباني: الموشح، ص16.

وعليه نتوكل وإليه نثيب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله عند مفتتح كل قول وخاتمته، وسلم تسليما، وحسبنا الله ونعم الوكيل كافيا ومعينا."(1) أما أبو علي القالي فكانت طريقته في الدعاء نفسها فقال: "وأسأل الله عصمة من الزيغ، والأشر وأعوذ به من العجب والبطر، وأستهديه السبيل الأرشد والطريق الأقصد."(2) هذا التنوع في الدعاء والحمد جعل من المؤلفين والكتاب كل يبتكر ويحدد الأغراض والمواقف التي يدعو الله فيها ويتمنى أو يمتنع، كما أن هذه العلاقة الرائعة المتجسدة بين الخالق وعبده ترسم لنا صورة مستوحاة من تلك الروابط التي لا يمكن لأي كان قطعها والتخلص منها لأن في ذلك سر عميق منسوج بحروف خيالية، فالتوحيدي يدعو الله كي يسوق الخير إليه ويبعد عنه الشر وهي رغبة كل إنسان في هذا الكون إذ نجده قال: "عائذا بالله في صرف الأذى عنّي وسوق الخير إلي..."(3) , وطلب العون من الله طريقة عمد إليها معظم كتابنا من خلال هذه المقدمات التي توحدت كل عناصرها ومكوناتها لغرض واحد وهدف مشترك بناه المؤلفون أطلقوا عليه اسم المعرفة الكلية أو الإنسانية، فهاهو ابن قتيبة يسأل الخالق عز وجل بطريقته وهو يقول: "ونحن نسأل الله تعالى، أن يمحو ببعض بعضا ويغفر بخير شرا ويجدّ هزلا ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ويتغمّدنا بعفوه ويعيدنا بعد طول الأمل فيه وحسن الظن به والرجاء له من الخيبة والحرمان."(4)

ولابد هنا من الإشارة إلى أن هذا المكون القفل في مقدمات المؤلفين القدامى يرد موجزا مختصرا بعكس الافتتاح بالبسملة والحمدلة والتصلية والتسليم الذي وجدنا بعض المؤلفين الذين ينفقون فيه أكثر من صفحة، ومهما يكن من أمر فإن ورود هذا العنصر المتأخر في هذه المقدمات المتنوعة سواء من ناحية الشكل أو المضمون، يوثق مرة أخرى صلة العبد الفقير المؤلف بربه وخالقه، كما أنه فرصة لظهور عنصر من عناصر المقدمة، وهو ذلك الاعتراف الجلي بالذنب والزلل في القول. وهم كثيرون ممن اختاروا التقصير في الدعاء وعدم التطويل فيه والاكتفاء بطلب التوفيق من الله، وقد عمد القلقشندي إلى ذلك إذ نجده يناجي ربه فقال: "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"(5) وصورة أخرى يعرفها لنا المبرد في آخر مقدمته فقال: "وبالله التوفيق والحول والقوة، وإليه مفزعنا في درك كل طلبة، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته، وعقد برضاه، وقول صادق يرفعه عمل صالح، إنه على كل شيء قدير."(6)

(1) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ص17.
(2) أبو علي القالي: الأمالي، ص16.
(3) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص18.
(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص (ر) من المقدمة.
(5) القلقشندى: صبح الأعشى، ص10.
(6) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ص07.

أما قدامة فاختار قوله: "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"[1] كما فعل القلقشندي أيضا، في حين فضل البعض من الكتاب اعتماد الحمد والتصلية معا كما فعل الجرجاني في آخر مقدمته فقال: "الحمد لله وحده، وصلواته على رسوله محمد وآله."[2] ومن هذا أيضا طريقة المرزوقي نفسها حين أورد قوله الصريح فقال: "والله الموفق للصواب، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الأخيار."[3]

ومن المؤلفين كذلك من أغفل هذا النوع من الختام كما فعل ابن الأثير في كتابه إذ لم يدع ولم يحمد الله تعالى ومثله القرطاجني وابن طباطبا وغيرهم، وقريب من هذا الأمر ما جاء به ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) إذ اكتفى بقوله: "إن شاء الله تعالى."[4] حتى في كتابه (أدب الكاتب).

وبالتالي فإننا وجدنا كثيرا من المؤلفين يوردون هذا العنصر لأنهم يعتذرون في مؤلفاتهم عن بعض الهفوات أو السقطات التي تكون قد طالت تأليفهم أو قصرت، ولا محالة أن القارئ سينتبه إليها، وهم يعتذرون على هذا الأمر بأن الكمال لله وحده تعالى، وأن الإنسان معروف بالنقص والخطأ ومجبول على التهاون والنسيان والتماطل...

بهذه الطريقة مارس العلماء المسلمون صنعة المقدمات التي قدموا بها مؤلفاتهم، ولا أحد يشك في أنهم كانوا على وعي تام بأهم الوظائف والمقاصد والفوائد التي تؤديها مكونات خطاب هذه المقدمة فيما كانوا بصدد إبلاغه هذه الرسالة إلى الشخص أو المتلقي، مما يثبت هذا الأمر حرصهم الشديد على الإتيان بهذه المكونات منظمة تنظيما منطقيا جماليا، فلا يجد لذلك القارئ فرصة للنقد أو فجوة تخل بنية خطاب المقدمة التي من شأنها أن تفوت عليه فرصة تعرف المتن في الألوان التي تعكسها مرآة المقدمة وبناها الحقيقية والضرورية.

والمتفحص لتطور حركة التأليف التي صاحبت هذه المقدمات يلاحظ أن العلماء المسلمين القدامى كانوا دائما يتابعون باهتمام ما جدّ من شروط وقواعد منهجية تتعلق بخطاب المقدمات، لعلهم يستفيدون من ذلك لصالح قرائهم، ومما يثير الانتباه في هذه الممارسة شدة اهتمام المؤلف بشخصية القارئ في هذه المساحة الكتابية التي تتراوح بين الطول والقصر تبعا لاهتمامات المؤلف"[5] .ومهما يكن ومن خلال كل هذه التحليلات، فإن العلماء المسلمين القدامى لم يقصروا اهتمامهم تنظيرا وتطبيقا على عتبة المقدمة، بل وقفوا عند عتبة العنوان الرئيس

(1) قدامه بن جعفر: نقد النثر، ص05.
(2) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص12.
(3) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ص20.
(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: ص35.
(5) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص61.

للكتاب وكذا العناوين الداخلية وتوزيع أقسام الكتاب وفصوله وغيرها من الأمور، هذه المنهجية التي تختلف وتتعدد من مؤلف إلى آخر... ونستفيد من كل ذلك أن خطاب المقدمة الذي عني به العلماء القدامى انقسم إلى قسمين اثنين: **القسم الأول** وهو الذي يتكون من خمسة مكونات كما رأينا سابقا وهي البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم والتشهد، وهذا القسم يعد تمهيدا لنص المقدمة الآتي بعده، باعتبارها واجبة ولا يمكن الاستغناء عنها، ولا ندري إلى حد كتابة هذه السطور السبب الذي جعل القدامى يتصرفون هكذا، وكانوا ربما أشد الناس تعلقا بالدين وأوامره ونواهيه، وكان منهم الفقهاء والمفسرون وعلماء الأصول والكلام. وإذا كنا نجد أن معظمهم لم يلتزموا بكافة العناصر واهتموا ببعضها وتركوا الأخرى تفسيرا قد لا نجد له جوابا ولكن الملاحظ في ذلك أن جل المقدمات حوت على مكون يتسم دون تركه أبدا وهو البسملة.

أما **القسم الثاني** من خطاب المقدمة، فهو جسم التقديم وعليه المعول في تعريف القارئ بما يشتمل عليه الكتاب، وهو القسم الذي يقوم على ثمانية مكونات ، هذه المكونات التي لاحظنا اختلاف العلماء في الإلمام بها كما وكيفا وذلك تبعا لطبيعة التأليف وموضوعه واهتمام صاحبه، إلا أن الذي وجب التنبيه عليه في هذه الخلاصة أننا عثرنا على مقدمات موجزة جدّا حيث لم يتجاوز كمها بضعة أسطر كمقدمة كتاب (شرح المعلقات السبع)*1 وفي الوقت الذي وقفنا فيه على مقدمات طويلة استوفت كامل شروط التقديم، فأحاطت بجنس التأليف ودواعيه وكذا خطته، وبسطت القول في مصادره وأقسامه وكامل مستلزماته الأخرى.

هذا الخطاب وظيفته اطلاع القارئ على فحوى الكتاب قبل الدخول في متنه. إذ أن القدماء كانوا على وعي تام بهذه الوظيفة وإلا لما اهتموا بها وأثبتوا فاعليتها، فهذه العلاقة الموجودة بين هذه الأقسام المكونة لجسد التأليف بما في ذلك خطاب المقدمة بدءا من العنوان والقسم التمهيدي وجسد المقدمة والمتن والخاتمة علاقة ثابتة وقوية تحتضن إليها كافة هذه المكونات وهنا يكمن السر وراء تسمية الكتاب بذلك الاسم أو غيره وسبب اختيار الموضوع وغيرها من الأمور. لأن المؤلف الناجح بطبيعة الحال هو الذي يكون قارئا قبل كل شيء لأنه بذلك يصل إلى ذهن القارئ الفعلي ويعرف ويتقصى مطالبه بطريقة مزدوجة فعالة ليفيده أولا وينجح مؤلفه ثانيا وكأنه يقوم بلعب دورين أساسيين كلاهما له دور في زيادة القيمة المعرفية والإنتاجية سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي، فالمبدع سيظل مبدعا حتى النهاية لأنه في كلتا الحالتين ينفع وينتفع منه بالضرورة.

*1- شرح المعلقات السبع للإمام الزوزني (ت486هـ).

وهذا رسم بياني نوضح من خلاله تسلسل هذه الأقسام التي تكون مشروع الكتاب كما كتبه العلماء القدامى ابتداء بالعنوان وانتهاء بالخاتمة مبينتا بذلك طابع الصلة بين كل هذه العناصر التي لا يمكن التغاضي عنها نلاحظ:

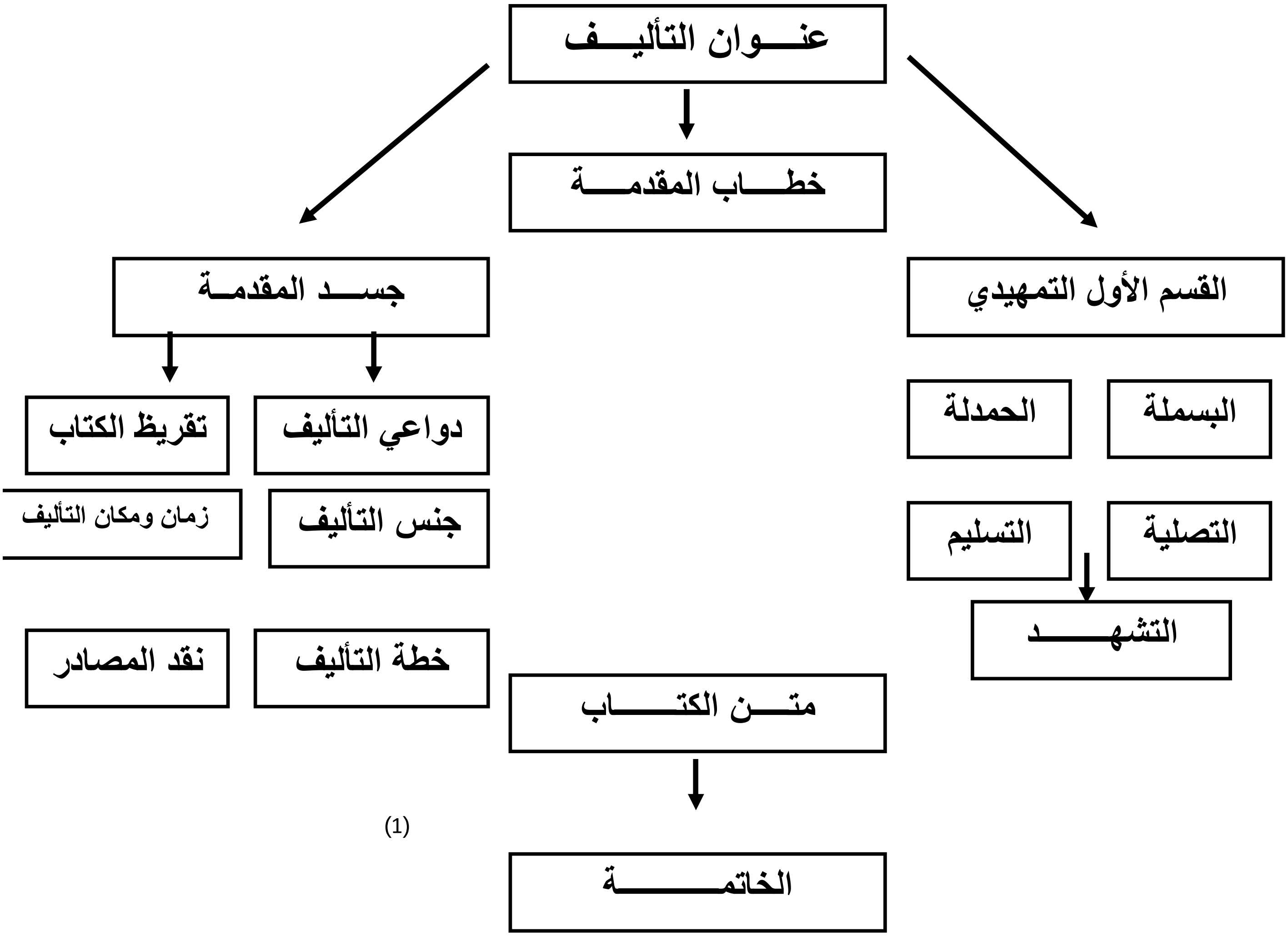

(1)

من خلال هذا المخطط نجد أن المقدمات التي أبدعها العلماء القدامى ،قد سارت على نفس النهج والترتيب لمخطط خطاب المقدمة من قسمه الأول وصولا إلى الدعاء، وهذا دليل على البراعة الفنية والمنهجية التي أبدعوها وأورثوها الأجيال.

وفي ختام حديثنا عن المقدمة باعتبارها مكونا من مكونات فضاء النص وبعد تحليلنا ومناقشتنا لأهم تجلياتها يتعين علينا الآن تحديد وظائفها، وحسب تلك النقاط فإن للمقدمة وظيفتان:

---

(1) مصطفى سلوي: عتبات النص، ص65.

1)- جلب انتباه القارئ أو السامع أو الشاهد وشده إلى الموضوع، فبضياع انتباهه تضيع الغاية وجلب الانتباه يتم بأدوات كلامية حسنة وبأسلوب تعبير مثير ويعد ذلك من أخص أسباب النجاح."[1]

هذه الوظيفة لا أعتقد أن فيها شيئا جديدا، لأن البلاغة العربية القديمة قد تناولتها كثيرا وبأسلوب أعمق، محددة بذلك أصولها وغاياتها، إذ لا يخلو أي كتاب من الكتب البلاغية أو النقد القديم، وهذا لتداخلهما، من الحديث عن " حسن الابتداء ".

2)- أما الوظيفة الثانية، فهي التلميح بأيسر القول عما يحتوي النص، الاستهلال له موقع يرتبط به مع بقية عناصر النص برابط عضوي "[2] وهذه الوظيفة تقترب من تعريف أرسطو لبداية النص باعتبارها تكون هي المبدأ وترتبط بباقي أجزاء النص. وذلك أن البداية هي المبتدأ في المفهوم النحوي الذي يستلزم ورود خبره، فمتن النص هو خبره، أي الجزء الذي يعلن عن مضمون خبره بشيء من التوضيح.

وهكذا نستنتج أن المقدمةفي العمل الأدبي تعتبر بمثابة المولد للعديد من الدلالات التي تمتد على مستوى فضاء النص الذي يحوي في طياته عدد لا يحصى من الدلالات التي تتوجه إلى القارئ لفك رموزها ومعانيها بدقة وبطريقة إقناعية جمالية.

---

[1] د/ حسين خمري: نظرية النص، ص 122.

[2] المرجع نفسه، ص 123.

	العناصر	حجم	ع 1	ع 2	ع 3	ع 4	ع 5	ع 6	ع 7	ع 8	ع 9	ع 10	ع 11	ع 12	13ع	14ع	ع 15	ع 16	المجموع
	المقدمة	المقدمة	الحمدلة	البسملة	التصلية	التسليم	التشهد	دواعي التأليف	جنس ت	خطة ت	مصادر ت	تقريظات	نقد المصادر	زمان ومكان ت	الحمد والشكر	الدعاء	الاستعاذة	أما بعد	
1	طبقات الشعراء لابن سلام	15		x				x				x							03
2	الشعر والشعراء لابن قتيبة	34		x				x	x	x		x	x			x			07
3	أدب الكاتب	16	X	x	x							x				x			05
4	عيون الأخبار	12	X	x	x	x					x	x	x		X	x		x	10
5	عيار الشعر	18	X	x	x	x						x				x			06
6	الحماسة للمرزوقي	18	X	x	x	x						x				x			06
7	الامتاع والمؤانسة	18	X	x	x			x				x				x	x	x	08
8	نقد النثر	04	X	x	X	x		x				x			X			x	09
9	أسرار البلاغة	12	X	x	x							x							04
10	دلائل الإعجاز	06	X	x	x							x			x	x			06
11	الخصائص لابن جني	03	X	x	x	x		x			x	x	x		x	x			10
12	الامالي للقالي	03		x	x	x			x			x				x	x	x	08
13	البيان والتبيين	16		x				x				x	x			x	x		06
	العناصر	حجم	ع 1	ع 2	ع 3	ع 4	ع 5	ع 6	ع 7	ع 8	ع 9	ع 10	ع 11	ع 12	ع 13	ع 14	ع 15	ع 16	المجموع

	المقدمة	المقدمة	الحمدلة	البسملة	التصلية	التسليم	التشهد	دواعي التأليف	جنس ت	خطة ت	مصادر ت	تقريظات ت	نقد المصادر	زمان ومكان ت	الحمد والشكر	الدعاء	الاستعاذة	أما بعد	
15	الأغاني	04		x					x			x			x	x	x		06
16	صبح الأعشى	06		x	x	x	x		x	x		x		x	x			x	10
17	الوساطة	48		x				x		x		x							04
18	الكامل للمبرد	02		x	x	x		x	x			x				x			07
19	شرح القصائد العشر	01		x					x			x				x			04
20	شرح المعلقات السبع	01		x				x	x			x				x			05
21	جمهرة أشعار العرب	01		x					x			x				x			04
22	منهاج البلغاء وسراج الأدباء	24		x	X							x				x	x		05
23	فقه اللغة	15		x				x	x	x	x	x			x	x			08
24	الفلك الدائر على المثل السائر	05		x	X							x							03
25	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر	25		x				x	x			x						x	05

الفصل الثاني

أصناف المقدمات

1- المقدمات النقدية
2- المقدمات اللغوية
3- المقدمات التأليفية
4- المقدمات البلاغية

1-المقدمات النقدية :

الشعر،و الشعراء، والأغراض الشعرية:

لابد في بد في بداية الحديث أن نوضح أن فكرة تقسيم أو تصنيف المقدمات هو تقسيم ليس نهائيا كليا ولكنه مجرد تقسيم افتراضي جزئي ،اعتمدناه من أجل توضيح الفكرة التي نود إبلاغها للقارئ ،وهي أن هذه المقدمات تتفرد عن بعضها البعض في تناول الموضوعات، وكل واحدة منها لها خصوصيات قد لا تكون متوفرة في الأخرى ،فخصصنا على سبيل المثال قضية النقد في الحكم على الشعر من حيث معياري الجودة والرداءة وكيفية الموازنة بين الشعراء،فسميناها بالمقدمات النقدية وهكذا مع باقي الأقسام التي تلي هذا العنصر ، ويجب أن نؤكد فقط أن هذه المقدمات لا يمكن حصرها أبدا في هذه المواضيع وحدها ،لأنها في الوقت نفسه شاملة متعددة الجوانب وغنية بالمعارف التي تحتاج إلى بحث وتحليل .

وقبل الحديث عن موضوع المقدمات النقدية ،لا بد من معرفة سبب تسميتنا لها بهذا المصطلح ، ذلك يعني ارتباط المقدمات بموضوع النقد بدرجة كبيرة ، خاصة حين وصل النقد الى أوجه ، فصار خصبا متسع الآفاق، معتمدا على مناحي العلم في الصورة والشكل ، واحتفى من حلبته اللغويون والنحاة وحمل رايته الأدباء ،فتميز نقد هؤلاء العلماء القدامى باستقصاء البحث وشمول الفكرة ،وتوضيح العلل والموازنة العامة بين الشعراء ، فعنوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله وتخاصموا فيهم، فهذا ينتصر لأبي تمام وذاك يتشيع للبحتري ، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبي وينسبون اليه كل فضيلة في الشعر ، وأولئك يرمونه بالنقص والتعقيد والالتواء ... فكان من هؤلاء النقاد الأفذاذ : ابن سلام ، وابن قتيبة ، وأبو الفرج الأصفهاني ، وقدامة بن جعفر والآمدي والجرجاني وغيرهم ممن غلب عليهم النقد وتوسعوا فيه ونجحوا .

وكان من ميزة هؤلاء النقاد كذلك أنهم خاضوا في مسائل النقد الفني وفي النظرات في الأدب خاصة تدوين الشعر الذي نشط في أوائل القرن الثالث والرابع ،ومنه الشعر الجاهلي والإسلامي ،ودونت سير الشعراء وأخبارهم وحوادثهم ،كما أن مهمتهم تمثلت في جمع الآراء المبعثرة التي قيلت في الشعر والشعراء، وجمع كل ما قاله الأدباء و العلماء في نقد الشعر وفي الكلام عن الشعراء وحاولوا بذلك أن يتناولوا نماذج من الشعر العربي في مختلف مراحله التي أدركوها تناولا نقديا ليبينوا لنا كل الأدوات التي تساعد على صناعة الشعر وإتقان ضروبه المتنوعة ،لأن للشعر أدوات تهذبه وتصقله وتسمو به إلى ذرى الفن الأصيل، وهم يؤكدون ضرورة النظم الجيد والكتابة المنظمة الخاضعة للدربة والخبرة.

ولأنهم يعدون من أقدم رواة تاريخ الأدب العربي، والناقلين لتجارب أدبية قديمة ،فقد إستطاعوا فعلا أن يقدموا لنا الإيضاحات عبر فن النقد للشعر القديم ، وعبر بدايات اللغة العربية وعلمها،ولهذا السبب بالذات أردنا أن يكون هذا العنصر يتميز بما قدموه من آراء نقدية في الشعر والشعراء والإخبار عنهم من خلال جودة كل شاعر عن الآخر، وهذا هو مقياس الذوق الذي وجد فيه النقد سبيله لولوج حلبة المواجهة الفنية.

ويمكن القول كذلك أن العلماء القدامى نقلوا لنا تجارب أدبية قديمة ،ففي مقدماتهم صورة واضحة لحياة النقد منذ نشأ في الجاهلية ،وصورة للأذهان المتنوعة التي خاضت فيه ،وله الفضل تبويب الشعر من خلال عملية الجمع والاختيار واستعمال الدقة في توضيح الفكرة والجزالة اللغوية، فهذه المقدمات النقدية تعد أكبر الشروح التي وصلت إلينا وأكثرها عناية بمعاني الشعر والنقد والموازنة بين النظم والنثر وأيهما أشرف وأعلى قدرا.

وهذا الفصل من البحث يحيلنا على قضية التأليف في التراث الثقافي عامة والتراث النقدي العربي خاصة، وذلك من زاويتين مهمتين هما: النظرة التاريخية والنظرة الآنية للكتاب العربي ومنه مقدمته، التي تمثل مجالا خصبا للبحث والكشف عن أسرارها ومعانيها . فظهور العلماء المسلمين القدامى في العصر العباسي الأول والثاني أدى الى الحفاظ عليها بشكل واضح في بداية كل كتاب وتألبف ، مما جعلها ميراثا اعتمده أصحابها ومن جاؤوا بعدهم أثناء عملية الكتابة ، فالتأليف اذن مرتبط بظاهرة الكتابة، فلا تأليف بدون وجود نظام من الرموز الكتابية التي تحول المنطوق إلى مكتوب، وهذا طبعا من أجل الحفاظ على المعارف وتدوينها خوفا من الضياع والنسيان والتحريف... وكان للقرآن الكريم دور كبير في ذلك باعتباره الكتاب الأول الذي ظهر في اللغة العربية، و فاتحة القرآن خير دليل على وجوب التقديم واعطاء خلاصة الفكرة التي ستعرض لاحقا في المتن " فأصبح التأليف فنا وإبداعا لا يدركه الأقلة من الناس"[1]

---

[1] د/ حسين محمد سليمان: التراث العربي الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت ص: 201.

إذا كانت المقدمة هي تلك المساحة التي خصصها المؤلف لذكر الله وحمده وتوضيح الدواعي التي حملته على التأليف والإبداع وتقوم على"إخبار القارئ عن الجنس الأدبي والمتن المرجعي لهذا النص، فهي تفتح أفق الانتظار كما يقول أصحاب نظرية القراءة والتأويل"(1). ألم يقل أسامة بن منقذ "أحسنوا الإبتداءات فإنها دلائل البيان"، هذا بالنسبة لفضل المقدمة أما النقد فهو ركن من أركان النص الأدبي والذي لا ينفل عنه ، باعتباره ظاهرة إنسانية وضروريا في حياة المرء على جميع الأصعدة،ولهذا كانت العملية النقدية عبارة عن صورة جمالية فنية لا يمكن للنص التخلص منها ، وبالتالي "فالنقد يقوم على تحليل القطع الأدبية وتقدير مالها من قيمة فنية، وقبل ذلك كانت تستعمل بمعنى الذم والاستهجان، ومنهم استعارها الباحثون في النصوص الأدبية ليدلوا بها على الملكة التي يستطيعون بها معرفة الجيد من النصوص والرديء منها،وما نتيجة هذه الملكة في الأدب من ملاحظات وآراء وأحكام مختلفة، وواضح أن الأدب يوجد أولا ثم يوجد نقده، ذلك أن النقد يتخذه موضوعا له وبالتالي إذا كان الأدب موضوعه الطبيعة والحياة الإنسانية فالنقد موضوعه الأدب ولا غير."(2) والنقد هو الذي يبلغ الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها أو يصرفهم عنها" وهو يدل الناس على ما يحسن أن يقرؤوا على ما يحسنوا أن يفهموا مما يقرؤون."(3) نفهم من ذلك أن للنقد قيمة كبيرة في حياة الإنسان والأدب.

إذن فالمقدمة النقدية هي المقدمة التي وضع فيها المؤلفون القدماء كل إمكاناتهم وجهودهم في تبيين أهمية الشعر والشعراء في تلك الحقبة من ازدهار الأدب العربي ،وهم يعدون من كبار نقدة الشعر والنفاذ فيه،هؤلاء العلماء المسلمين الشعريين لهم فضل كبير في إيصال ثروة أدبية عظيمة،كان للنقد فيها حصة كبيرة ،فرووا كثيرا من الآراء والنظرات في قول الشعر ومميزات الشعراء وأغراضهم الفنية المتعددة ،ذاكرين بذلك الأسباب والمسببات فنذكر من هؤلاء العلماء "ابن سلام الجمحي(ت 232 هـ)" ونجد أيضا أن من بواكير التأليف النقدي كتاب"جمهرة أشعار العرب "لأبي زيد القرشي (ت 170هـ) وفيه نقد لأعلام الشعر الجاهلي ومصطلحات نقدية مبتكرة في مجال المختارات الأدبية.

---

(1)د/ حسين خمري :نظرية النص من المعنى إلى سيميائية الدال ،الدار الغربية للعلوم ،منشورات الإختلاف ،ط1 ،1428هـ-2007.الجزائر،ص122،123.

(2) د/ مصطفى الصاوي الجويني: تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث هجري ، كلية الآداب، دار المعرفة الجامعية ط5 1999 – 2000 ص 7 – 8 (المقدمة).

(3)د/ محمد مصايف:دراسات في النقد والأدب ،الشركة الوطنية للنشر الجزائر ،1981،ص145.

وكان لمقدمة طبقات فحول الشعراء مقاييس نقدية التي تؤرخ للنقد فامتازت بتعمق النظر ونضج في التطبيق لموروث ابن سلام في الروايات النقدية من خلال تقسيمه للشعراء وفق المبادئ التي اختارها و التي تتمثل في :

1-الزمان: فجعل منهم مجموعتين: جاهليين وإسلاميين،متبعا في ذلك جودة شعرهم وكثرته.

2- المكان:وذلك أن ابن سلام عندها وزع الشعراء بين الجاهلية والإسلام وقسم هؤلاء وأولئك إلى طبقات، كما أنه ذكر في باب شعراء القرى مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين وهي ظاهرة كثرت حولها الفتن والقلاقل في تاريخ العرب ،قال ابن سلام"ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء"[1].

3- الفن الأدبي:"فمن الشعراء الأصليين من انفراد بفن بذاته،وهم لم يقصدوا إلى ذلك الفن بل سيقوا إليه بدوافع من حياتهم،وهؤلاء هم أصحاب المراثي"[2]، ولقد فطن ابن سلام بذوقه الأدبي السليم إلى أن هؤلاء الشعراء ليسوا كغيرهم ممن صدروا عن فن، بل هم إنسانيون قالوا الشعر لشفاء نفوسهم من الآلام لفقد ذويهم.

فأفكار ابن سلام منظمة تنظيما علميا وذلك باعتماده على الذوق وحسن التمييز والاختيار ،فقد تعرض لمسألة خطيرة في الأدب وهي مسألة الشك في الشعر الجاهلي ،وهل الأشعار المنسوبة لأقوام كعاد وثمود وآدم صحيحة؟ وتكلم عن الشعر الموضوع في عصر كادت تنتهي فيه الرواية فهم العلماء يدونون الشعر خوفا من الضياع والنسيان، وخير ما افتتح به ابن سلام مقدمته بيان ما ينبغي للناقد من ثقافة فقال"وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"[3]. ويبين أن كثرة مدارسة الشعر هي التي تعين على معرفة هذه القواعد وإدراك أصولها ومقاييسها"ذلك أن كثرة المدارسة لتعين على العلم ،يصور في ذلك عن روح علمية وعن ميراث أدبي ولغوي مجيد، أخذه عن ابيه سلام الذي روى عنه في مواضع كثيرة ...وعن أخيه عبد الرحمن أحد رواة الحديث ،درس الأدب والشعر والرواية وعلم الأنساب والأخبار..."[4]

---

(1) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 33.

(2) د/ مصطفى الصاوي الجويني: تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث هجري ، كلية الآداب، دار المعرفة الجامعية ط5 1999 – 2000 ص16(المقدمة).

(3) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 26.

(4) د/ حسن عبد الله شرف: النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام، ص 43 – 44.

والملاحظ من ذلك أن أسلوب ابن سلام مكون من جانبين: الهيكل العام واخذ فكرة الطبقات إطارا له للإقناع، وعرض فكرته عن طريق الألفاظ والصور والأخيلة فكان يعرضها على طريقة:

1- التسلسل المنطقي في قضاياه الكلية وشرحها شرحا موفيا.

2- الاستقصاء البعيد الغاية.

3- الجزالة والدقة وروعة الألفاظ ووضوحها.

فهذا المنهج النقدي الذي اتبعه ابن سلام يدعو إلى تذوق الشعر تذوقا سليما "وما أثاره من قضايا متعلقة بهذا الفن خاصة وأنه يرفض أخذ الشعر عن طريق الكتب بل لابد له من الرواية عن العلماء الموثوق بهم وبعلمهم"(1) .ومن خلال هذا الموقف فقد وضع ابن سلام الأسس والمعايير العلمية التي يجب أن تتوافر في الناقد البصير ليستعين بها في تمييز صحيح الشعر من مدخوله من خلال:

أولا:الذوق الفطري وهي موهبة يجب توافرها في الناقد حتى يمكنه التصدي لمهنته في نقد الشعر.

ثانيا: التجربة: والدربة والممارسة وهي أمر مكسوب ينشأ عن كثرة مطالعة الأشعار وحفظهما.

ثالثا: المعرفة بخصائص الشعر، ومعرفة القواعد التي بنى عليها هذا الفن وأسراره.

وهو يجعل بداية الشعر ونشأته وازدهاره من خلال "حسن القيس واستقراء ما بين أيدينا من شعر يدعم رأيه من خلال تتبع تطوره"(2).

ويمكن القول أن المؤلف هذب النقد الساذج من موروث الجاهلية ،وان لم يضف إليه كثيرا وهذا يظهر من خلال مقدمته التي أبان فيها اهتمامه بسير الشعراء وحياتهم ليفسر في ضوئها إنتاجهم ،وهذا دليل على أن أسلوبه عبارة عن "نمط جديد من التأليف يهدف إلى تقرير الشعراء وفق لمقاييس معينة تفتق عنها ذهنه وعلمه وذوقه الشخصي"(3). لم يكن ابن سلام وحده المستأثر بالاهتمام بالشعر وأقسامه وأغراضه فحذى حذوه ابن قتيبة من خلال مقدمته للشعر والشعراء،فقسمها قسمين:" **الشعر**" و " **الشعراء**" ،ففي القسم الأول تحدث عن الشعر لفظه ومعناه وما حسن منه وما رذل متبعا المنطق الشكلي في ذلك، أما القسم الثاني فقد توسع فيه كاتبنا لأنه الأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأدب على الشعراء أنسابهم وأشعارهم ،وما اتصل بهم من تاريخ وحكايات مهد له بحديث قصير عن أوائل الشعراء منهم:دريد بن نهد القضاعي، وأعصر بن أسعد بن قيس الكيلاني ،والحارث بن كعب وغيرهم .

(1) د/ محمد زغلول سلام: ابن قتيبة، دار المعارف بمصر 1957، ص 265.
(2) د/ منير سلطان :ابن سلام وطبقات الشعراء ،منشأة المعارف الإسكندرية ،1977،ص146.
(3) د/ عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية، ص 227.

فالشعر يعد السجل النفيس للعرب المحافظ على تراثهم وتاريخهم وآدابهم وأخلاقهم، وهو"متحفهم الناطق الذي دون فيه أبطالهم ووقائع بطولاتهم، والحكم البليغة من حكمائهم وأمثال بديعية وآيات في حياتهم... حتى أضحى أروع تجارتهم وبضاعتهم وأنفس منتجات قرائحهم."(1) هذه الخصائص التي حاز عليها الشعر هو الذي جعل ابن قتيبة إلى اعطائه حقه من الاهتمام حين قال:"هذا كتاب ألفته في الشعراء ...وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته..."(2). وبهذا المفهوم أصبحت روايته اختصاصا شائعا عامتهم وخاصتهم أغنياء وفقراء فهو" علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء... "(3) وهو ذلك " الكلام المنظوم، بائن عن المنثور يستعمله الناس في مخاطبتهم..."(4)حتى أن النبي صلى اله عليه وسلم في الشعر"وَإِنَما الشِّعْرُ كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ فَمَا وَافَقَ الحَقَّ مِنْهُ فَهُوَ حَسَنٌ وَمَا لَمْ يُوَافِقْ الحَـقَّ مِنْهُ فَلَا خَيْرَ فِيهِ" وقوله"إِنَمَا الشِعْرُ كَلَامٌ فَمِنَ الكَلَامِ خَبِيثٌ وَطَيِبٌ" (5)ومن دلالة هذا المعنى، أن الشعر كان يؤثر في نفسه الكريمة، يروى أن فتيلة بنت النضر ابن الحارث بعد مقتل أبيها استوقفت النبي وقالت هذا البيت: **أَمُحَمَدُ وَلَدَتْكَ خَيْرُ نَجِيْبَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرَقٌ.**

أما الشاعر فهو يمثل محطة إذاعية وصحيفة يومية واسعة النشر والانتشار، "والشاعر اللسن الفرد يعادل في معايير الحياة العربية والقديمة الجيش العديد، ولسانه الدفاعي أو الهجومي عند قبيلته أجدى من كثير السلاح...، وكل أغراض الحياة عندهم ميدان مباح للشعر والشعراء بحسب أسلوبهم، فبعضهم يقرض الشعر كالنحات للصخر، وبعضهم يتعاطى صناعته مثل الجواهري في صناعته، وبعضهم ينقح لسانه به كالعطر وينثره من حوله كالزهر أو كفرائد الدّر وبعضهم يرويه فيبكيك فيسحرك أو يقوله فيبعث نار الحماسة فيك ".(6)

والشاعر يظل منذ نشأته مهتما بأمر نفسه خاضعا لضروب التعليم حتى يكون جديرا بلقب شاعر يقول الأصمعي:" لا يصير الشاعر في قرض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ."(7) هذه الأخبار التي تدل على بيئة الشاعر وقبيلته وبالتالي وجب معرفة أمجادها وأيام عزها وفخرها.

---

(1)ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مقدمة المحقق ص 5 – 6.
(2)المصدر نفسه ،ص02.
(3)القاضي الجرجاني: الوساطة ص 15.
(4)ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر ص 09.
(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مقدمة المحقق ص 08.
(6)المصدر نفسه ص08.
(7) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 23.

واهتمام ابن قتيبة بالشعر وقائله جعله يعتبر شكل القصيدة نظاما صارما لكل شاعر جاهلي أو إسلامي أو محدث فقال :"فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام"(1). هذا يعني أنه يعارض الخروج عن طريقة القدماء،وهو يرى أن الشاعر له الأولوية في الاهتمام به دون إغفال الشعر والجمهور الذي يراقب عمل هذا المبدع ،وإلمامه بكل هذه الأمور هو الذي جعل من مقدمته تحمل طابعا نقديا امتاز بالثروة المعرفية مثله مثل ابن سلام الذي جاء قبله،فكان له رأيا جريئا ومنهجا واضحا عرضه في جانبين : الأول أنه قدم عرضا تاريخيا ذكر فيه المؤلف أسماء الشعراء وتراجمهم وعرض للناحية النقدية في الجانب الثاني فذكر ما يستجاد من شعرهم وما قاله العلماء فيه ثم طبقات ذلك الشعر"أخبرت فيه عن الشعراء و أزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم ..." ثم يواصل ويقول "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب"(2). ويمكن أن نلخص أهم الأفكار التي عرضها كالآتي:

1- الشاعر:يعتبر شاعرا كل من غلب عليه الشعر،ولم يكن الشعر بالنسبة إليه في المرتبة الثانية أو من قال شعرا يسيرا"لأنه قل أحد له أدنى مسكة من أدب وله أدنى خط من طبع، وقد قال من الشعر شيئا."(3)

2- الشعر:هو الجيد الذي يتفق ومفهومات العصر،يقول في هذا:" فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله،ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن،ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل زمن ودهر وجعل كل قديم حديثا في عصره."(4)

ويذكر أمثلة هؤلاء العلماء الأصمعي ويشير إلى معارضة الجاحظ وازرائه لهم وعدم الاكتراث لآرائهم في الشعر والشعراء.

3- أسلوب الشعر: أو أقسامه فهو ينظر للشعر من ناحية الأسلوب والصياغة فيقسمه من حيث ألفاظه ومعانيه إلى أربعة أضرب فقال: "الأول: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، والثاني منه ما حسن لفظه وحلا فإذا أنت لم تجد هناك فائدة في المعنى إن فتشته، والثالث ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ،والرابع ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه والرابع ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"(5).

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص24.
(2) المصدر نفسه ،ص2-2.
(3) د/ محمد زغلول سلام: ابن قتيبة، دار المعارف بمصر 1957، ص 51.
(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص7-8..
(5) المصدر نفسه،ص07.

الأول مثل قول الشاعر أوس بن حجر:**أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا**

والثاني قول القائل: **ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح**

وشدت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

والثالث: قول الأعشى في إمرأة:

وفـوهـا كأقـاحـي غـذاه دائـم الهطـل

كمـا الـشـيـب بـراح بـا رد مـن عسـل النخـل

والرابع: قول لبيد بن ربيعة:**ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح**

4- بناء القصيدة: تبدأ القصيدة العربية القديمة بذكر الديار والدمن والآثار، والنسيب وذكر الوجد وألم الفراق وذلك كي يستدعي به الأسماع، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، ولما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء، تم يذكر الرحلة ومشاقها من سرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير، ثم المديح وطلب الجائزة والشاعر الجيد " من سلك هذه الأساليب وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد."[1]وليس لمتأخر الشعراء عنده أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام.

5- عيوب الشعر: وهي أربعة:

- **الإقواء:** وهو اختلاف الإعراب في القوافي وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة كقول النابغة: **قالت بنو عامر خالوا بني أسد يا بؤس للجهل ضرّار الأقوام**

- **السناد:** هو أن يختلف إرداف القوافي كقولك (علينا) في قافية و(فينا) في أخرى كقول عمرو بن كلثوم: ألاهبي بصحنك فأصبحينا، وقول آخر: تصفقها الرياح إذا جرَينا، أي بدل جرينا.

- **الإيطاء:** هو إعادة القافية مرتين وليس بعيب عنهم كغيره.

- **الإجازة:** هو أن تكون القوافي مقيدة، فتخلف الأرداف كقول امرئ القيس:

لا يدعي القوم أين أفرُّ، وقال في آخر: وكندة حولي جميعا صبُرُ، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي في ذلك: « هو أن تكون قافية ميما والأخرى نونا » كقول الشاعر:

يا ربّ جعد منه لو تدرين يضرب ضرب البسط المقاديم

وهذه العيوب متصلة بالصياغة من حيث سلامة الأوزان أو اعتدال القوافي وصحتها وتواردها على روى واحد،أو هي عيوب متصلة بالإعراب وتظهر فيما قد يلجأ إليه الشاعر من تسكين

(1) د/ محمد زغلول سلام: ابن قتيبة، دار المعارف بمصر 1957، ص 54.

متحرك أو تحريك ساكن، أو قصر ممدود أو إيراد ألفاظ وحشية، واستعمال اللغة القليلة في العرب ومن تلك الضرورات ما يصح التجاوز عنه، ومنها ما لا يغفر للشاعر إذا وقع فيه.

6- دواعي الشعر وبواعثه: وقد عدها خمسة هي التي تحدد أوقات وظروف الشعر، إذ نجده قال " وللشعر دواع تحت البطئ، وتبعث المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشرب ومنها الطرب ومنها الغضب."[1] وأمثلة ذلك ما يلاحظ من قوة شعر الكميت في بني أمية مع تشيعه ويعلله « بقوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة». ومنها ما قله كثير من أن الشعر إذا عسر عليه طوق بالرياض المعشبة فيسهل عليه أرضه ويسرع إليه أحسنه.

وهناك حالات تعتري القريحة فتعوقها عن قرض الشعر " ولا يعرف لذلك بسبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم."[2]

7- منازل الشعر: الحكم على شعر شاعر وتفضيله على شعر آخر يخضع عنده لعدة عوامل أولهما مقدار الجيد في مجموع شعر أحدهم ونسبته إلى الرديء منه، ومنها التأثر الوقتي فيفضل الشاعر الذي يشغل شعره الذهن بطول القراءة ولله در القائل: أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه، ويحفظ الشعر ويختار للفظه ومعناه، وحسن التشبيه فيه، وخفة الروي وغرابة المعنى، أو لنيل القائل – كان يكون خليفة أو أميرا أو رجلا فاضلا – ويحكم على الشعر بالتكلف فلا يختار إذا ما كانت صياغته دالة على شدة العناء بكثرة ما يرد فيه من الضرورات أو ما يلاحظ فيه من تفاوت

بين معانيه وأبياته فيأتي البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضمونا إلى غير لفقه."[3] ولذلك قيل فيه ليس له قرآن.

8- الشعراء وموضوعات الشعر: يختلف موقفهم ومقدار إجادتهم في الموضوعات المختلفة فبعضهم " من يسهل عليه المديح، ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسر له المراثي ويعتذر عليه الغزل وأمثلة ذلك كثيرة، فنحن نجد ذا الرمة أشعر الناس في التشبيب وإذا صار إلى المديح والهجاء، خانه الطبع."[4]

---

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص 21 - 22.

(2) المصدر نفسه: ج1، ص 26.

(3) المصدر السابق: ص 26.

(4) د/ أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري، ترادريس بلمليح، دار توبقال المغرب ط1 1993، ص 07.

تعددت الآراء في مقدمة الكتاب وكل يرى بمنظاره الخاص فهذا عبد السلام عبد العال يقول: " وابن قتيبة لا تضعه كتبه بين من غلب عليهم النحو أو اللغة، أو الحديث، بقدر ما تضعه بين من غلب عليهم الأدب والنقد."(1) فنجد أنفسنا أمام عالم بالكتب السماوية والعلوم المختلفة والآداب والأنساب والأخبار فهو حين تحدث عن مكانة الشعر عند العرب ظهرت ثقافته الموسوعية بين ثنايا مقدمته واضحة صريحة.

ويقول الناقد الفرنسي جود يفروي ديمومبين:"ابن قتيبة هو الرجل الذي أحاط بعلوم عصره، فأذاع منها الكثير،اهتم بالقرآن والفلسفة،واللغة والنثر والشعر والشريعة والتاريخ وعادات وتقاليد العرب.(2)

9- أغراض الشعر: تكاد تكون في كل شأن من شؤون الحياة العربية، أين كانت حركة الحضارة في أوجها وفي زحم اندفاعها الأول " وكانت العلوم والمعارف منتشرة أين غمر التنافس المكان والناس، وكانت حركة التأليف في قمة عطائها وإنتاجها ومثلها حركة النقل والترجمة فكانت أشعار العرب هي مجامع الاحتجاجات بفصاحة الكلام ودلالة وحسن تركيبه، وهي أسانيد إلى حيازة علوم القرآن والحديث النبوي."(3)

ولهذا السبب كان لدور التأليف الجانب الأكبر في تفوق وازدهار الحضارة العربية كما أن جهود هؤلاء العلماء زادت هذه العلوم تشويقا واقبالا من قبل القراء والمطلعين على هذا التراث وهو ما يجعل منها علوما لا تضاهيها أية علوم، إلا إذا لم تكن الغاية منها هو الكسب لا المعرفة فهناك من اتخذ " الشعر مكسبة وتجارة وتوصلوا به إلى السوق كما توصلوا به إلى العلية ،وتعرضوا لأعراض الناس ،فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم ،والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم حتى قيل :الشعر أدنى مروة السرى ،وأسرى مروة الدنى "(4). وطبعا هذا لا يقبله أي عربي سرى في دمه حب الشعر في كونه شعرا يخفف عن الناس لا أن يؤدي بهم إلى التهلكة والفساد.

وعلى كل حال وما لاحظناه على ابن قتيبة أنه "لم يتناول النصوص ولا الشعراء بنقد فني تطبيقي،وإنما اكتفى وإن عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة يحاول أن يضع لها مبادئ

---

(1) د/ عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، دار الفكر العربي 1978 ص 20.

(2) Geudefroy demombynes: Introduction ou livre de la poésie et des poètes introduction et commentaire par geudefroy demombynes, edition les belles lettres paris 1949, page 10.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج 1 ص 10 (مقدمة المحقق).

(4) المرزوقي :شرح ديوان الحماسة،16-17.(المقدمة).

ثم أخذ في سرد الشعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ في التأليف "[1].

والجاحظ الذي عد من منظري النقد الأدبي استطاع أن يبرز اهتمامه بهذا الموضوع من خلال مقدمته للبيان والتبيين ،الذي حث على حسن القول والاتصاف بالبيان والبلاغة التي تؤهل الشاعر أو الخطيب إلى أن يكون مستحقا لاسمه فهو يخطو خطوة من خلال منهجيته الأصيلة حين يصور مناخ النقد الأدبي في عصره القائم على عدة أسس فهو يدير درسه النقدي على أربعة محاور يمكن أن نوجزها كالآتي:الإبداع ،والتلقي،والفنون الأدبية ،ثم صور التعبير.

ذلك أن البلاغة تمثل الإبداع الذي عرف في عصره ،فكانت تعلم نظريا كما كان الشعر يلقى شفويا، أما التلقي فيتمثل في اختلاف الأذواق بين الطبع والصنعة أي ظهور الأدب الفطري والأدب الموضوع كما سماه ابن سلام: فالأول دليل على الفترة والثاني هو التكلف والتصنع الذي ينزع عن الشعر حلاوته وسحره الحقيقي ،والفنون الأدبية التي دعى إليها الجاحظ عني بها النص القرآني بالدرجة الأولى ثم جاء الحديث النبوي والخطابة والرسائل والأمثال ... والمحور الرابع ركز فيه الجاحظ تركيزا شديدا فتحدث عن" الصور التعبيرية التي هي من البراعة الأدبية كمصطلح البديع والمثل والاستعارة والتشبيه...إلى جانب بعض النصوص الجدلية التي حاول فيها الدفاع عن آراء الشعوبية والتسوية كما فعل ابن قتيبة"[2].

وهذه الأمور كلها لا تكون إلا إذا كان المتكلم صاحب فصاحة وبيان لأن الغاية من قول الشعر مثلا هو الإفهام والإفصاح عن الرغبة أو الموضوع المطروح سواء كان ذاتيا أو موضوعيا" وكلما كان اللسان أبين كان أحمد كما أنه كلما كان القلب أشد إستبانة كان أحمد..."[3]. في حين يحرص ابن خلدون على نفي "فطرية الملكة الشعرية ،فهو مكتسبة بفضل الصناعة والإرتياض"[4].

فهو يعد الأسلوب أنه عماد الفن الشعري من خلال طرح فكرة ما الذي يكسب نص ما صفة الشعرية؟ وكيف تكتسب قدرة التحكم في وسائل الشعرية من جهة أخرى؟ فالبلاغة والبيان عنده ليسا كافيين لخلق الشعر ،فهذا الموقف يجعلنا ندرك أن الإبداع في حد ذاته كامن في الذات الإنسانية بنسب متفاوتة من شخص لأخر ،أو هو ملكة وموهبة لا تكون هند الكثيرين.

---

(1) د/ محمد مندور :النقد ومناهجه عند العرب ،ص12.

(2) د/ مصطفى الصاوي الجويني: تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث هجري ، كلية الآداب، دار المعرفة الجامعية ط5 1999 – 2000 ص124-125 (بتصرف).

(3) الجاحظ : البيان والتبيين ،ج1 ،ص 11،(المقدمة).

(4) ابن خلدون :المقدمة ،ص472.

أما الإنتاج الشعري عند الآمدي فهو يخضع للتقويم واختبار الامتثال للعمود ومقارنته بين أنواع من النصوص ونتبين ذلك من خلال مقدمته التي طغت عليها الموازنات والمقارنات بين الشعراء-شعر البحتري وأبى تمام-" وكان هوسه بالموضوعية والإنصاف واعتبر أن التحليل المقارن هو وظيفة جوهرية للخطاب النقدي ،مما يؤدي إلى نتيجة حاسمة على صعيد تاريخ الأدب ،إذ أن الإنتاج الشعري لا يعتبر تعاقبا لآثار مستقلة ومنغلقة على ذاتها ولكنه يعتبر نصا متصلا لا يحقب تاريخيا إلا بشكل غامض"(1). فنجده يميز بين كل قصيدة وأخرى من خلال الوزن والقافية والأغراض ، وهنا يظهر اهتمامه على تأمين وظيفة تربوية، فيخلق نمط شعريا يفتتح به الكتابة والتحقق من قيمة الشعر الذي تحتويه هذه المختارات بدقة ويسر ،خاصة وإن كان هذا الشعر يمثل خطابا نقديا يؤثر في المشاعر لأنه "حافظ على الذاكرة الجماعية للأحداث والأنساب القبلية كما حافظ على ملامح معرفة معيشية وكذا على البيئة كونه يندمج في وظيفة معرفية وفي مجال من مجالات العلم تسعىفي اكتشافها" (2).

والشعر عند الآمدي لا يكون شعرا إلا إذا زين بحلية من حلل البديع ، ومن هنا نشأت حركة النقد التي انقسمت قسمين:أحدهما يثور على اتجاه أبي تمام الذي خرج عما ألفته العرب في الأسلوب في صياغة الشعر ،والثاني فقد قام على أكتاف أنصار البحتري الذي كان يمثل التيار المقابل لتيار الصنعة والزخرف ،والذي كان يجاري أشعار الجاهليين والإسلاميين"ولهذا فقد قدم الآمدى في هذا البحث للنقد الأدبي إضافات من خلال دراسته للشاعرين ،فكان موضوعه الخصومة والمقارنة ،وما حققه من أسس في الدراسة النقدية المنهجية"(3)، وهو يؤكد في موازنته على أهمية الذوق عند تناول أي شعر بالدرس والتحليل قال "فإني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما في الأشعار التي أتركها مرتبة في الأبواب وأنص على الجيد وأفضله، وعلى الرديء أرذله وأذكر من علل الجميع ما ينتهي إليه التخليص"(4).

ولعلنا نلاحظ تشابها واضحا بين كلام الآمدى وكلام ابن سلام فيما نص عليه من أهمية طول المعاشرة للآثار الأدبية ،حتى تتكون لدى الناقد الخبرة والدربة ولا يتحقق له هذا بأية حال دون أن يواتيه طبع وذوق يتقبل هذه الصحبة الطويلة لتلك الآثار الأدبية،وهذا ما يحققه له ذلك الذوق الذي يمكنه من الحكم على الشعر والشعراء بذوق سليم عادل ليس فيه تحيز ولا تعصب ويخرج ما في هذه الأشعار من معان وصور وألفاظ...

(1) جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، المغرب ط1 1996، ص 35 – 36.
(2) المرجع نفسه، ص:11.
(3) د/ محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي والبلاغة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص: 375.
(4) الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، دار المعارف، القاهرة، 1961، تحقيق أحمد صقر، ص: 50

فعامل الذوق الأدبي يساعد في تحديد نوعية الأعمال باعتباره تيارا لم يخمد أبدا طوال عصور النقد وتاريخه الطويل ،باستثناء تلك المرحلة التي بدأها قدامة بن جعفر في البديع ،والتي لم تحقق نجاحا ولم تجد صداها عند النقاد والمتذوقين ،وهو بذلك يعد"المرجع النهائي في كل نقد ولا يمكننا تنحيته جانبا مادام ذوقا مبصرا يمكننا اعتباره وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة ،أما إن بدى هذا الذوق كستار تختبئ خلفه الأهواء بعيدا عن عناصر الفن والحدس الصادر،فهذا ما يجب علينا أن نرفضه ،ولا نتقبل بالطبع الذوق الذي يفتقر إلى الخبرة ..."(1)

ومن أسلوب الآمدى في إثبات فكرته في اختيار ما يريد يحسب مقياسي الجودة والرداءة اللذان مشى عليهما العديد من النقاد من بعده ،أنه كان يورد العديد من الأبيات الشعرية ويردف بقوله أنه أفضل ما قيل في زمانها مثل قول البحتري:

هذي المعاهد من سعاد فسلم واسأل وإن وجمت فلم تتكلم (2)

وقول الفرزدق: **وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع (3)**

ولعل الآمدي اختار هذه الأبيات لما فيها من قيمة اجتماعية تتمثل في عدم رضاء العرب عمن يحاول الكبر عليهم، وما يميزه أنه يورد الكثير من الأحكام المعللة متسلحا فيها بذوق واع مثقف،وهذا يعود إلى قدرته على معرفة وإدراك الحسن والقبيح في الأعمال الأدبية وخاصة في مجال الشعر الذي خصه بقوله:" ليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله،وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه."(4)

هذا يعني أن طريقته في الكشف عن إيجابيات وسلبيات كل شاعر تعتمد على أسس خمس هي:

1-حسن التأتي: وهو إيصال المعنى بدون تكلف أو زيادة أو نقصان.

2- قرب المأخذ: أي الحصول على معنى بعيد دون اللجوء إلى الغرابة والغموض.

3- البلاغـــة: التي تبنى على إصابة المعنى بواسطة اللفظ السهل والعذب والمستعمل.

4- الاستعارات اللائقة: غير المنافرة للمعنى والتي يتم لها الوضوح والإفصاح.

5- اللفـــظ: ويكون في البراعة فيزيد في بهاء المعنى وحسنه.

والناظر لهذه الأسس الذوقية والنقدية يتبين له أن الآمدي ناقدا محللا ن فهو صاحب روح

(1) د/ محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص 362.

(2) الآمدي، الموازنة ، ص 38-50

(3) المصدر نفسه ، ص38

(4)المصدر نفسه ،ص 50.

ناضج واتجاه منهجي محكم ، حرص من خلاله أن يعرض شواهده ويعلل لأحكامه بطريقة تقنع القارئ والناقد في حد ذاته ،وطبعا كل هذه المحاولات والجهود هي التي ساعدت الباحثين على دخول الساحة الأدبية انطلاقا من بنياته ووحداته الداخلية المشكلة من ذلك النظام المحكم الذي يكمن السر وراءه ومن خلال هذا الهدف جاء القاضي الجرجاني **(ت392هـ)** الذي يطالعنا بمنهج جديد يختلف اختلافا كبيرا عن منهج من سبقوه وعاصروه ومن أتوا بعده ،فكانت مقدمة وساطته بين ابي الطيب المتنبي وخصومه تتمثل في الدفاع عنه واثبات جودة شعره ،والدعوة إلى النظر في أغاليط الشعراء التي لم تأت قصدا والاعتذار عنها وتصحيحها بالطرق الملائمة"ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة، لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مرتذلة ،ومردودة منفية لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ،ونفى الظنة عنهم"[(1)].

والبحث في النقد عند القاضي الجرجاني ينطلق من هذا البعد العميق للظاهرة النقدية فهو عنده ليس بالعمل السطحي بل هو عمل أساسي إن لم يكن مقدسا،لأن به تتحقق العدالة التي هي رأس الحياة الإنسانية وروحها ،فإذا كان الموضوع الذي شغل الآمدي هو نفسه الذي دعا إليه القاضي الجرجاني من خلال الدقة والهدوء العلميين،ففيه نظرة وعمق مثيران حين فتح الجرجاني ملف المتنبي كما فتح الآمدي ملفي أبى تمام والبحترى، وهذا ليس من قبيل الصدفة فكلاهما ناقد متمرس يهتم بالشعر والشعراء وباقي الأعمال الأدبية التي لقيت اهتمامهم بشدة لما حوته من متانة في الكلام وجزالة في المنطق وفخامة في الآداء" وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ،وعظم غنائه في تحسين الشعر فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء والبحتري في المتأخرين..."[(2)]

كما يشترك الجرجاني مع ابن قتيبة في استعمال كل منهما ألفاظ العدل والإنصاف ،فنجده يطرح مبدئيا وبذكاء فيما يتعلق بالقدماء ويباشر دراسة الأغلاط التي يقترحها الشعراء ،كما أنه يوافق الآمدي في الإعتماد على عمود الشعر وإن لم يعلن ذلك بصراحة ووضوح، إلا أنه يميل بفطرته وذوقه المحض إلى كل ما هو مطبوع وإن لم يعبه ذلك،وكلمة طبع عنده تعنى الذوق والموهبة وهو يشير إلى سلامة الطبع بالدرجة الأولى قال:"فالشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له"[(3)]، لكن في الوقت الذي لا يعتمد

(1) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي دار القلم بيروت، لبنان، ص4 (المقدمة).
(2) المصدر نفسه ،ص24
(3)المصدر نفسه ،ص15

"الشاعر التعمل وتحسين ما جاش به خاطره من معان شعرية بل أن يصوغها كما تمثلت في عقله وقلبه دون تدخل،بحثا عن تحسين كلمة أو معنى أو صورة"[1] والشاعر لا بد له أن يتدخل في تحسين ألفاظه ومعانيه عن اقتدار ووعي والابتعاد عن كل ما يشوب هذا الفن من تصنع وتكلف وزخرف غير مرغوب فيه ،ونحن نعرف أن تراث العرب القدامى مشتركة "في اللغة واللسان ،وأنها سواء في المنطق والعبارة "[2]خاصة وإن كان هذا اللسان هو ترجمان اللب وبريد القلب والمبين عن الاعتقاد بالصحة أو الفساد وفيه الجمال"[3] كما قال تعالى<<وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ>>[4]

والقيمة من كل هذا هو الوصول إلى أن مدار النقد عند هؤلاء العلماء الشعريين يدور بمجمله حول فكرة العدل التي تظهر في مقدماتهم على أكثر من صورة وفي أكثر شكل قال الجرجاني "ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف أو تخرج في بابه إلى الإسراف ،بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك...وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك"[5].

فهذا العدل الذي يقيم به النقاد القدامى ميزان الحكم على الأمور ،هو الذي بين نبل مقصدهم وحقيقة غاياتهم ،فالرجل يعرف بالعدل والحق لا تصنعه الأهواء الشخصية ، بل هو قائم خارج ذواتنا يسعى الناس إلى إدراكه ،كما أن إحقاق العدل بين الناس هو أمر يكون فوق كل شيء، لأنه أساس الحياة المدير لنظامها، بل هو سنة الله التي أقام الكون عليها والتي بها يقوم أمره، وبانعدامه تختل الموازين وتضطرب كل القواعد"والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم "[6] .وحين يكون العدل هو روح النقد النابضة وغايته السامية، تغدو العملية النقدية في مقدمات المبدعين ومؤلفاتهم محاكمة ترفع فيها الدعوات ، و تبت فيها الأمور بتا عادلا، يوفر لكل ذي حق حقه، لأن هذه هي ركيزة كل عمل نقدي أو أدبي...وعلى هذا الأساس تبقى المقدمات النقدية على قدر كبير من التنظيم والترتيب ،وهي طريقة أولى في عملية التأليف العربي المنظم ،كما أنها تعد من أجل ما يحتاج إليه الناقد المبتدئ الذي يسير مكملا ما بدأه القدماء في توصيل الرسالة وتوضيح الفكرة ونشر المعرفة الإنسانية إلى آخر درب ونفس.

---

(1) د/ نجوى محمود صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس هجري، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2006، ص:106

(2) القاضي الجرجاني :الوساطة ،ص16.

(3)المصدر نفسه ،ص2-3.

(4)ابن قتيبة :عيون الأخبار ،ص(ع)،المقدمة.

(5)قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص 12.

(6)سورة محمد ،الآية 30

*1 ولحن له :قال قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره.

2-المقدمات اللغوية:

اللغة ،والكلام ،والقول:

أما هذه المقدمات فقد غلب عليها الطابع اللغوي البحت،فالعلماء اللغويون :ابن جني والمبرد والثعالبي ...وغيرهم تكلموا كثيرا في مجال الشعر الفني وفي مذاهب الشعراء ومنازلهم ،وفي الأشعار التي تسند إلى غير قائليها ،وحتى النظر إلى الأدب بنظرات متصلة ببيئته وصاحبه والحالة الاجتماعية التي نشأ فيها. ونجد اهتمامهم منصب على قوانين النحو خاصة حين ظهور الخطأ في الإعراب من أل الحفاظ على سلامة معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم القدماء، ونقل المعرفة صحيحة كما هي دون تحريف أو تزوير،ولم تفتهم العناية باللغة والاشتقاق وأيضا المسائل الصرفية، وتصنيف الألفاظ حسب معانيها وترتيبها متدرجة كي يسهل حفظها والرجوع إليها، وهذه كلها أمور لا بد على عالم اللغة الإحاطة بها وتعليمها لمن سيأتي بعده لحفظ التراث والسير قدما بشكل صحيح وفعال.

لقد أخذ سيل التأليف ينهمر بعد الجاحظ، وبدأت تخصصات الأدباء والعلماء تتحدد وتتنوع، ولم يكن الكاتب منهم يقتصر على التأليف لكتاب أو كتابين، بل كان كل منهم في حد ذاته موسوعة في علمه ومن بين هؤلاء كان المبرد(ت 285 هـ). الذي يميل إلى الثقافة اللغوية والنحوية، فقد كان معظم أساتذته من علماء اللغة والنحو، أين أخذ عن الجرمي والمازني وكان كل منهم مهتم بالنحو ومطلع على كتب سيبويه، ولكن هذا لا يعني أن المبرد استقى ثقافته من هؤلاء العلماء فقط، بل كان مثل الجاحظ واسع الإطلاع على الكتب، شديد الحرص على اقتنائها فصار إماما للنحويين البصريين وذاع صيته في الدراسات النحوية واللغوية فيما بعد، لما كان يتصف به من غزارة العلم وفصاحة اللسان وحلاوة المخاطبة ووضوح الشرح والحائز على لقب الناقد التطبيقي في الدراسات النحوية.

وكتب المبرد فيما كان يشغل علماء عصره، من نحو ولغة واشتقاق وشعر يختاره أو يشرحه أو يعلق عليه، فكان الكامل آخر ما ألف المبرد من كبريات كتبه، فكان خيرها جلال قدر وعميم نفع، وتمثلت فيه بوفاء وصدق ثقافة المبرد بكل جوانبها لغوية أو نحوية أو أدبية، فقد قال عنه القاضي أبو الفرج المعافي كتابه (الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي):"وعمل أبو العباس محمد بن يزيد النحوي كتابه الذي سماه الكامل وضمنه أخبارا وقصصا لا إسناد لكثير منها، أودعه من اشتياق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها ما يأتي به مثله، لسعة علمه وقوة فهمه، ولطيف فكرته، وصفاء قريحته، ومن جلي النحو والإعراب وغامضهما ما يقل وجود من يسد فيه مسده."(1)

(1) د/ محمد بركات حمدي، دراسات في الأدب، ص: 192.

وإلى جانب هذا كله، كان المبرد يكثر من حفظ الشعر ذواقا له، وكان صديقا لأكثر شعراء عصره ومنهم أبو تمام والبحتري وابن المعتز وغيرهم، وكتابه "الكامل" يعد من أهم الكتب التي عالجت أهم القضايا اللغوية والنحوية من خلال عرضه للمقدمة، التي توضح على وجه التحديد مادة الكتاب والغرض من تأليفه فقال:"هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب مابين كلام منثور وشعر موصوف ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا. "(1)

معنى هذا أن المبرد قد أتى بالنصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويا أو نحويا، وهو مجال اهتمامه الأول كما ذكرنا، وهذا يشير إلى أن تخصصات علماء هذا العصر كانت قد تحددت وكان كل أديب يعرف مجال تخصصه، وبناء على ذلك يوظف المادة التي حفظها واستوعبها هو وغيره من رجال عصره، فكل كاتب له أسلوبه واستخداماته الخاصة، وذلك بقصد الكشف عن المشكلات اللغوية والنحوية، ولهذا فنحن نرى أن تحديد المبرد هدف تأليف كتابه بأنه تقويم هذه القضايا ليكون الكتاب مكتفا بنفسه، وذلك عن طريق" تقديم النصوص وشرحها فيه شيء من التواضع، ذلك أن المشكلات اللغوية والنحوية التي أثارت اهتمام المبرد تعد في الحقيقة من قبيل البحث العام في اللغة والنحو، ومثال ذلك البحث في وظيفة حروف الاستفهام إذا كانت أسماء. كقوله تعالى: " وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ. " وقد قال نصب أيّ بقوله ينقلبون، ولا يكون نصبا بـ (سيعلم) لأن حروف الاستفهام إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها، كما يمتنع ما بعد الألف من أن يعمل فيه ما قبله. "(2)

هذا كله يدفعنا إلى القول أن مقدمة المبرد وبالرغم من إيجازها، إلا أنها ذكرت فيها العديد من القضايا إضافة إلى أنها تعد موسوعة لغوية ونحوية، وليس مجرد شرح لنصوص أتى بها الكاتب. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار المبرد الذي شغلته الأبحاث اللغوية والنحوية بأن ما فيه من آراء نقدية يعد في الحقيقة على هامش النقد فهو كثير ما يعلق على أبيات الشعر بعبارات عامة تكشف عن ذوقه الشخصي، ولكنها لا تعالج قضية نقدية. ويمكننا أن نقول: أنه قد مس ثلاث قضايا نقدية اهتمت بها كتب البلاغة والنقد، وهي قضية اللفظ والمعنى التي كانت

(1)أبو العباس المبرد، الكامل: المقدمة، ص: 06.

(2)د/ عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية، ص: 153.

تهم المعتزلة في عصره، وقضية الجديد والقديم، وفضلا عن ذلك بأن الكتاب يحتوي على قدر كبير من أدب الخوارج، ومن ثم فهو يعد مرجعا مهما في هذه الناحية، ومن أجل ذلك فهو كذلك يعد مصدرا أساسيا للتراث العربي سواء كان في مادته الأدبية أو النحوية واللغوية.

كما أنه تحدث في إشارات مختصرة عن الشعراء، المحدثين للمولدين بلغته ويعني بهم أولئك الذين عاصروه من شعراء الدولة العباسية فوصفهم وتحدث عنهم وذكر أشعارهم، وهذا ما جعل كتاب الكامل يحمل طابع العصر الذي ألف فيه، فهو يميل إلى الاستطراد وينتقل من قضية إلى أخرى، وأن دوره في النصوص الأدبية تعدى الجمع والاختيار وإلي الشرح اللغوي والتصويب النحوي وتتبع دلالات اللفظ الواحد في وجوهها المختلفة، عند جمهرة الأدباء والشعراء.

والكتاب معرض حافل بألوان من اللغة في مختلف جوانبها من اشتقاق ونحو وصرف ودلالات مبثوثة خلال ما أحسن اختياره من نصوص، فإذا عرض لتفسير لفظ مختلف دلالته ويوضح ما غمض من ألفاظه حتى قال عنه ابن ولاد: "هذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلا، وكلام العرب فرعا فستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله. "

وما جاء به الكامل من معارف وكمحاضرات يدرسها الطلاب بلغ الغاية في بابه، لأن تعليم النحو واللغة عن طريق الأدب من خلال النصوص الجيدة، أفضل ما يشير به مرب عارف، ويجاري أفضل وأحدث النظريات التربوية، لأن دراسة كتاب مثله يمكن أن تحقق أكثر من هدف في وقت واحد وتعلم النحو، وتربى الذوق وتربط النظرية بالتطبيق، فلم تقتصر تعليقات المبرد على النحو واللغة وإن كانت مناط اهتمامه الأول، فتعرض لعدة مسائل بلاغية دون أن تأخذ شكل قاعدة علمية محددة، فتكلم عن الكناية وأقسامها والمجاز وأنواعه والاستعارة وألوانها والالتفات والتجريد، وأطنب القول في التشبيه وبين أنواعه"[1].

وبالرغم من أن حظ النقد في مقدمته محدود،إلا أنه ذكر نيته في توضيح المعاني وشرح الغامض من الألفاظ والإعراب واللغة ،لكن ما أخذ عنه أنه لا يتعرض لمناحي الجمال في الشعر فيذكرها ويورد ذلك في إيجاز لا يتعدى تقديم البيت وعرضه وحسب ،وكأن مهمته هي نقل هذه المختارات والأخبار دون الإضافة فيها أو التعليق عليها، وهذا لم يمنعه من أن يجتمع إليه الناس ويقتبسون منه ما خفي عنهم فهو ضليع بهذا العلم الشريف وهو علم اللغة والنحو الذي يحتاج إليه كل ناقد وأديب.

---

(1) د/ بركات حمدي، دراسات في الأدب، ص:01-02

وأبو عثمان بن جني(**ت 392 هـ**) أحد أشهر علماء اللغة في القرن الرابع الهجري، صاحب كتاب "الخصائص"الذي عد أنه أوفى ما نعرف من كتب اللغة وهو أيضا أوفى كتاب وضع في خصائص العربية،لم يكتف فيه صاحبه بالنقل ووصف الظواهر، بل ناقش القضايا وعلل لها.فغاص في أغوار العربية وفهم أسرارها وخرج بعدد من خصائصها، استطاع أن يبررها في جدول سهل وحجاج لطيف، ويخيل لقارئ الخصائص أن المؤلف لم يترك شيئا يتصل بالعربية إلا تناوله وتحدث فيه.

ومن أهم الموضوعات التي ذكرت في مقدمته، موضوع نشأة اللغة، وهو الموضوع الذي شغل اللغويين العرب القدماء، فهذه اللغة هل نشأت توقيفا وإلهاما أي بوحي من الله وإلهام منه، أم نشأت تواضعا واصطلاحا، حسب حاجة المتكلمين وتواضعهم على ألفاظها ومصطلحاتها، ومعلوم أن من ذهب إلى توقيفية اللغة قد استند إلى ما ورد في تفسير قوله تعالى: " **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**."(1) إذ ذهب هؤلاء إلى أن الأسماء الواردة في الآية مقصود بها اللغات التي علمها الله آدم إلهاما وتوقيفا وفريق آخر يرى أن اللغة ربما نشأت مواضعة، بيد أن ابن جني تردد بين الفريقين فلم يقبل لرأي القائلين بتوقيفية اللغة إلا على تأويل لتفسير الآية الكريمة، إذ يذكر أن الله سبحانه أقدر آدم على أن واضع عليها، إلا أنه في بعض الأحيان نجده يؤيد من ذهب هذا الاتجاه، وأحيانا أخرى ينحاز إلى رأي القائلين بالاصطلاح، حتى الموقف هو الذي جعله يقرر رأيه على الوجهين معا، التوقيف والاصطلاح.

فهو يرى أن اللغة الأولى التي تكلمها الإنسان الأول(آدم) كانت إلهاما ثم لما احتيج فيها إلى الزيادة زيدت بحسب حاجة الإنسان نفسه، كما أنه تطرق إلى الحديث عن الاشتقاق وابتدع فيه وأصبح عنده نوعين، صغير وهو ما في الناس وكتبهم أي المصدر وما يشتق منه، وهذا الضرب من الاشتقاق الأكبر، وهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية، فتعتقد عليه على تقاليبه الستة معنى واحدا تجتمع التراكيب وما ينصرف من كل واحد منها عليه، فمعنى: ق و ل، أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض، وتأخره إنما هو للخفة والحركة، وفي معنى ك ل م، حيث تقلبت دلالة القوة والشدة. "(2)

ولا يمكن أن نغفل حديثه عن (السلب) لأنه من المعروف أن كل فعل أو اسم مأخوذ من الفعل أو فيه معنى الفعل، قد وضع في كلامهم على إثبات معناه، فقولك: (قام): لإثبات القيام،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 31.

(2) د/ سعد سليمان حمودة، دروس في المكتبة العربية، ص: 65.

و(جلس) : لإثبات الجلوس.كما أننا نجده يتحدث عن فضائل ما جاء في مقدمته ،قائلا : " واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علـــم العرب وأذهبه في طريق القياس والنظر، وأعوده عليه بالحيطة والصون، وآخذه له من حصة التوقير والأون، وأجمعه الدلالة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة."(1)

كما أن الشيء المهم الذي جعله يفكر في تأليف كتابه هذا، الذي سماه طبقا لمضمونه وما حواه متنه اللغوي الأصيل، هو عدم الاهتمام به من قبل ولم يتعرض له ويتناول بالدراسة والتوسيع خاصة أن في تلك الحقبة الزمنية والتنافس القائم بين المدرستين المشهورتين آنذاك في أصول النحو واللغة: المدرسة البصرية والكوفية، فنجده يبين هذا الأمر فقال: "وذلك أنّا لم نر أحدا من علماء البلدين، تعرض لعمل أصول النحو، على مذهب أصول الكلام والفقه، فأما كتاب أصول أبي بكر فلم يلمم فيه بما نحن عليه إلا حرفا أو حرفين في أوله، وقد تعلق عليه به وسنقول في معناه."(2)

كما أن الأمر الثاني الذي جعله يقدم هذا الإبداع اللغوي هو ذلك الإلحاح والاهتمام الذي ظهرعلى وجوه المهتمين بهذا العلم والمصرّين على إنشائه والعمل فيه، هؤلاء الذين ساعدوا كثيرا ابن جني حتى وصل إلى هذه المرحلة العظيمة واعترف هو بذلك قائلا: "ثم إن بعض من يعتادني، ويلم لقراءة هذا العلم بي، ممن آنس بصحبته لي، وأرتضي حال أخذه عني، سأل فأطال المسألة، وأكثر الحفاوة والملاينة، أن أمضي الرأي في إنشاء هذا الكتاب وأوليه طرفا من العناية والإنصاب، فجمعت بين ما أعتقده من وجوب ذلك علي، إلى ما أوثره من إجابة هذا السائل إلي."(3)

وقد كان ابن جني حجة في التصريف ما مكنه علمه هذا من أن يضع يده على الأخطاء، التي وردت في أمهات المعاجم ومنها كتاب العين للخليل والجمهرة لابن دريد، فهو يشير إلى ما ورد من أخطاء في كتاب العين مبرئا الخليل من أن يقع فيها. وكتابه "الخصائص" كما يتضح من عنوانه يبحث عن خصائص اللغة العربية وإن اشتمل على مباحث تتصل باللغة بصفة عامة مثل البحث في الفرق بين الكلام والقول، والبحث في أصل اللغة ألهام هي أم إصلاح...أما بقية الأبحاث فتختص باللغة العربية فلسفتها ومشكلاتها.

والمؤلف نص على أن الهدف من تأليف كتابه ليس هو البحث في المشكلات اللغوية الجزئية ولكنه البحث في مشكلاتها الكلية وهذا هو الداعي الأول والهم الشاغل في النقد الأدبي القديم

(1) ابن جني: الخصائص: المقدمة، ص01.
(2) المصدر نفسه: ص02.
(3) ابن جني: الخصائص: (مقدمة الكتاب)، ص03.

أي فلسفتها فقال: "إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم، لأن هذا أمرقد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه، وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع وكذا المبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي."[1]

ذلك أن اللغة والنحو هما عماد الأدب فإذا كان"موضوع الحساب هو الأعداد من جهة ما يعرض لها من الضرب والقسمة ونحوهما ،وموضوع بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض، وموضوع النحو هو اللفظ من جهة الدلالة على المعنى من طريق الوضع اللغوي وموضوع علم البيان هو اللفظ والمعنى من جهة الحسن والقبح،وصاحب هذا العلم هو النحوى يشتركان في النظر في دلالة الألفاظ على المعنى من جهة الوضع اللغوي ،وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة"[2] كما أن مفسري الأشعار جعلوا قصدهم وكدهم كشف مراد الشاعر ليعلم ،ففسروا الألفاظ اللغوية وما في الشعر من إعراب نحوي يتعلق فهم المعنى به،وتارة يشرحون المعنى فقط إذا لم يكن في البيت ألفاظ لغوية ولا يرتبط المعنى بإعرابه"[3]

ثم إن العلماء القدامى اهتموا كثيرا باللغة" وخصوا بمتانة الكلام وجزالة المنطق وفخامة الشعر،حتى إن أعلمنا باللغة وأكثرنا رواية للغريب لو حفظ كل ما ضمت الدواوين المروية والكتب المصنفة من شعر فحل ،وخبر فصيح ،ولفظ رائع ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروي وجعل الغريب محفوظ منقول "[4].ولهذا السبب بالذات عرف عنهم أنهم علماء استطاعوا الحفاظ على التراث بشكل جيد "والاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل "[5].

خاصة وأننا نعرف أن لأهل البصرة قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية ،وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"[6]. والدليل على ضرورة اللغة والنحو هو اعتماد ابن قتيبة على "الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو"[7].

---

(1) د/ عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص340.
(2) ابن الأثير ،المثل السائل في أدب الكاتب والشاعر ،ص35.
(3) المصدر نفسه ،ص35
(4) القاضي الجرجاني :الوساطة ،ص16.
(5)عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة ،ص14.
(6) ابن سلام :طبقات الشعراء ،ص29.
(7) ابن قتيبة :الشعر والشعراء،ص02

ولفهم الشعر فهما دقيقا يحتاج إلى الإعراب الذي يظهر وحده حركات الكلمة و يبينها ويساعد على شرح مقاصد الشاعر من خلال "تفسير المشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل الإعراب وأعاريض الشعر التي توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه..."(1)

وعلى الرغم من حرص المؤلف على أن ينص على هدفه في التأليف، ليس هو البحث الجزئي في اللغة، فإن الذين ترجموا له، عرفوا كتابه بأنه كتاب يبحث في النحو والتصريف يقول ابن الأنباري: "وأما أبو الفتح عثمان ابن جني النحوي، فإنه كان من حذاق أهل الأدب، وأعلمهم بعلم النحو والتصريف،صنف في النحو والتصريف كتبا أبدع فيها كالخصائص والمصنف وسر الصناعة، ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف."(2) والواقع أن المؤلف عندما يبحث في مشكلة صرفية أو نحوية التي شغلت نقاد الأدب منذ زمن بعيد، لا يبحث في حد ذاتها ولكنه يتخذها منطلقا أو لنقل وسيلة للوصول إلى مشكلة لغوية أكبر، ومثال ذلك بحثه في الفرق بين القول والكلام. ولكن هذا لا يعني أننا نراه يشير إلى أن الموضوع لا يقف عند حد التصريف والاشتقاق ولكنه يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك وهو الفرق بين ما ينطق به اللسان أحيانا فيسمى قولا وما ينطق به أحيانا أخرى أو يكتبه القلم فيسمى كلاما.

ويخلص ابن جني من هذا التحليل إلى أن الكلام هو اللفظ المستقل بنفسه، المفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل، ولهذا يقال عن القرآن أنه كلام الله وليس قول الله، ويظل ابن جني يعالج هذا الموضوع من كافة زواياه، مثيرا بذلك مشكلات لغوية ما تزال تعالج حتى اليوم في الأبحاث اللغوية الحديثة، ولم تكن عقلية المؤلف عقلية حافظة ناقلة وحسب بل كانت عقلية علمية جدلية لا تسلم بالأمر إلا بعد اقتناع وإن صدر من كبار العلماء. خاصة أننا نجده يصرح برأيه في اللغة التي لا يمكن وضعيتها لأن: "المواضعة لابد معها من إيماء وإشارة بالجارحة، نحو المومأ إليه والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جارحة له، فيصح الإيماء والإشارة بها منه."(3)

و ينبغي من وجهة نظر ابن جني أن يناقش عالم اللغة المشكلات اللغوية الجوهرية حتى يصل بها إلى حد الوضوح والإقناع، لأن هذا هو أساس كل مبحث أدبي ونقدي وفلسفي ولهذا فقد صرح بأن العلل اللغوية أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين، أما عالم اللغة

(1)أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني ،ص11

(2) المرجع نفسه، ص 341.

(3) ابن جني: الخصائص (مقدمة الكتاب)، ص01.

فيجب عليه " أن ينعم الفكر فيها ويكاس*1 في الإجابة عنها."[1] والعالم اللغوي برأيه هو الذي ينظر في الألفاظ"من حيث كانت دلالة بالوضع اللغوي على المعاني"[2]

أما موضوع علم النحو فهو الألفاظ من جهة تغيرات تلحق أواخرها ، أو تلحقها أنفسها على قول من جعل التصريف جزءا من النحو ،ولم يجعله علما منفردا "[3] ،وقضية الفرق بين القول والكلام قضية حساسة بيد أن ابن جني تصدى لها باعتبار أن كلا منهما له خصائص ومميزات فالكلام مثلا "هو الذي يعطي العلوم منازلها ،ويبين مراتبها ويكشف عن صورها...فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ،ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ،ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها"[4]

فالنحو ضروري كالماء للحياة ،والكلام بطبعه أربعة:"أمر وخبر واستخبار ورغبة ،ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة ،وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ...،وإنما الكلام أربع :سؤالك الشيء ،وسؤالك عن الشيء ،وأمرك بالشيء ،وخبرك عن الشيء ،فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد ،وإن نقص منها رابع لم تتم ،فإذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح ،وإذا أمرت فأحكم ،وإذا أخبرت فحقق"[5] .فصورة أن نتصور الإنسان وهو صامت على الدوام تنقص من كونه إنسان حي ،فالإنسان حيوان ناطق إذ لا يمكن فصل هذا المعنى عنه"والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه ،كما قال بعض الحكماء (للكلام جسد وروح ،فجسده النطق وروحه معناه)"[6].

ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين رضي الله عنه:"(المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر)،وهذا من أشرف الكلام وأحسنه وأكثره معنى وأخصره لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته وسمعت منطقه"[7] ،إلا أن للكلام كذلك حدود فصحيح أن الجمال يكمن في اللسان إلا أنه في بعض الأحيان يستحب للمتكلم أن يسكت "وكان لكثير منهم يسرع إلى القول في غير موضعه ،ويعجب بما ليس بمعجب من منطقه ،احتاطت العلماء على الدهماء *2

(1) نفسه، ص45. *1: بمعنى يتحرى الكيس.

(2) ابن الحديد :الفلك الدائر على المثل السائر ،ص36

(3)المصدر نفسه ،ص36.

(4) عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة ،ص13.

(5) ابن قتيبة : أدب الكاتب ، ص 4-15

(6) ابن طباطبا : عيار الشعر ، ص17

(7) قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص12. *2 الدهماء :العامة.

بأن أمروهم بالصمت ...وأعلموهم أن الخطأ في السكوت أيسر من الخطأ في القول ،وقالوا كلهم :عثرة اللسان لا تستقال "[1] .

والكلام في وقته يكون أحسن وخاصة إذا احتاج الإنسان لذلك فيكون له معنى ،كما أن للصمت أوقات والمرء لابد أن يكون متوازنا لا هو كثير الكلام ولا كثير الصمت فكما قيل :(الكلام من فضة والصمت من ذهب)وإن الكلام وحسنه ما قل ودل "وهو مصايد القلوب والسحر الحلال "[2] .أما بالنسبة للقول فهو ضروري أيضا كالكلام ، قال النبي (ص): " (الإيمان عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان)،وليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في النفوس وصدقته الأعمال ،وذلك لأن النية مغيبة عنا وليس يعلمها إلا الله عز وجل وإنما يستدل عليها بالقول والعمل ،ألا ترى أن الإنسان إنما تعرف حكمته الباطنة بما يظهر من صحة قوله وإتقان عمله وبين في العقل "[3] ،ذلك أن النطق هو كمال الصورة الإنسانية "[4] .

إذن فكان كل همه اللغة التي برهن عليها من خلال القرآن الكريم الذي وصف بالإعجاز فنلمح كثيرا أثر قراءتنا خصائص ابن جني، الذي عد من مختصي اللغة العربية وآدابها وأصولها والمشتغلين الجادين في ميدانها والعارفين أسرارها" فكانت الأسباب كذلك التي جعلت أبا الفتح عظيما بنتاجه وخدمته اللغة العربية التي هي سر من أسرار الإعجاز القرآني الكريم، ومفتاح من مفاتيحه العظيمة وقنطرة من القناطر التي نعبر عليها حتى ندخل جنة الحياة الأخرى في فهم آيات القرآن وكذا عظمته، هذه القضية التي كانت قد شغلت العديد منالأدباء والنقاد كما رأينا سابقا، كما أن من أسباب نضوج ثقافة ابن جني وتفتح عبقريته اتصاله الوثيق بالقرآن الكريم، درسا وفهما وعبادة"[5] .

ومهما قرأنا المقدمات لا نستطيع المفاضلة بينها لأنها جميعا ألوان أدبية مهمة كثيرة، كمن يتجول في حقل زهور فلا يستطيع أن يفرق بين جمال واحدة عن أخرى فالمقدمات منفردة سواء في موضوعها أو أسلوبها وطريقتها التركيبية أو تلك الدقة المتناهية في شرح مراد كل كاتب ومؤلف لما جاء به تفصيلا وإجمالا، يجعلنا نتشارك معه تلك الحروف والأسطر والألفاظ التي ميزت كل كاتب بحق وها هو ذا الثعالبي يكشف لنا وبصورة تكاد تكون مشابهة لما أتى

---

(1)المصدر السابق ،ص12.

(2) ابن قتيبة :عيون الأخبار،ص(ك) المقدمة .

(3) قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص16.17.

(4) ابن الحديد :الفلك الدائر على المثل السائر ،ص34.

(5)د/ عبد الله التطاوي: الموقف الفكري والنقدي في إبداع أبي تمام، دار غريب القاهرة، 2003 ص281

به سابقوه، من خلال قدراته وتفانيه في إظهار الأسس التي كونت فكرته وبراعته الإنتاجية، هذه المقدمة التي بدأها الكاتب بآية قرآنية لخصت كل مضامينه ويمهد بها طريقه الذي رسمه فأحسن ذلك , فقال تعالى:« رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً .»[1]

فالثعالبي يدعو إلى حب الله ورسوله (ص) الكريم حتى نستطيع أن نحب هذه اللغة التي تعد آية من آيات الله على خلقه ولغة من خير اللغات فهو عنده "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا (ص) ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها."[2]

واللغة هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسلاح المبدع والمؤلف، والإقبال على تفهمها يعد من أصول ديننا الحنيف "ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر المناقب كالينبوع للماء والزند للنار"[3] واللغة العربية هي لغة القرآن، اللغة التي توحد الناس العرب كافة، ونطق بها لسانهم للعلم والمعرفة، ليعلموا أنها السبيل الوحيد للنجاة، ويعرفوا أنها أم كل اللغات في الدنيا وكذا الآخرة. فالثعالبي من خلال مقدمته اللغوية يدعو إلى الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها والغوص في ثناياها ودقائقها فهي "قوة القضية في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة اللذين هما عمدة الإيمان". هذه اللغة التي شرفها الله عز وجل وكرمها ورفع قيمتها أين أوحى بها إلى خلقه وجعلها لسان حبيبه محمد(ص)وخلفائه أجمعين وأراد بقاءها حين قال سبحانه:"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[4]فقد جاهد الكثير في سبيل أن يبقى اسمــــها عاليا حفظة وكتابا، خواص الناس وعوامهم،وهي تعد من قيم المعرفة الإنسانية جميعا، أين اتفق على تخليد كتبها أعمار المؤلفين والمبدعين والراغبين على إحيائها وتجددها، فمن "يحب الأدب ويتعرف عليه ويتعصب للعربية، فيجمع شملها، ويكرم أهلها، ويحرك الخواطر الساكنة لإعادة رونقها، ويستثير المحاسن الكاملة في صدور المتحلين بها ويستدعي التأليفات البارعة في تجديد ما عفا من رسوم طرائفها ولطائفها."[5]هؤلاء المبدعين الذين لم يبخلوا بعلمهم، أين بينوا مواهبهم وتحدياتهم العلمية والأدبية التي تعد من أغنى العلوم جميعا لفظا ومعنى وأسلوبا... كان هذا

(1) سورة الكهف: آية 10.
(2) الثعالبي: فقه اللغة، (مقدمة الكتاب) ص25.
(3) المصدر نفسه، (مقدمة المحقق) ص28
(4) سورة: الحجر: آية09.
(5) الثعالبي: فقه اللغة، (مقدمة الكتاب) ، ص27.

الحديث عن العربية وخصائصها "فأما سائر آلات الفضل وأدوات الخير وخصال المجد، فقد قسم الله له منها ما يباهي الشمس ظهورا، ويجاري القطر وفورا، وأما فنون الآداب فهو ابن بجدتها وأخو جملتها وأبو عذرتها ومالك أزمنتها نعم ومن ضمن هذه الأدوات التي لا يمكن الاستغناء عنها، كانت البلاغة العربية التي تعد هي الأخرى جوهرة الأدب وهذه اللغة التي ننطق بها..."(1)

فلابد أن نعرف إذا أن سر نجاح العربية يكمن في الأساس في ذلك التوحد الرائع بين جزئياتها وكلياتها دون الفصل بين أي عنصر من عناصرها، لأن هذا الإتحاد هو الذي يشكل المعنى الكامل لأهميتها.كما أنه ذكر فضل البلاغة دون أن ينسى السحر الذي تقوم به في الأعمال الأدبية شعرا و نثرا،فالنظم عنده هو ما يبين جمالها وضرورتها "فمن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر الشعر ورقية الدهر، ويرى صوب العقل وذوب الظرف، ونتيجة الفضل فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده وأثمره عالي فكره من ملح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها وتشرب بالقلوب لسلاستها."(2)

تحدث مؤلفنا عن كل ذلك، دون أن ينسى فضل من ساعده ووقف معه، هذا الصديق الذي لم تخلو مقدمته من ذكره أبدا فيقول فيه "فما من يوم أسعفني فيه الزمان بمواجهة وجهه وأسعدني بالاقتباس من نوره والاغتراف من بحره."، وراح يعبر عن هذه الصداقة التي لا يمكن نسيانها كما فعل قبله أبو حيان التوحيدي. فنجده يؤيد أميره الأوحد بافتتاح رسالته هذه ومن خلال تأليفاته وإبداعاته، لم لا وهو من حفزه لدخول هذا المجال والنجاح فيه بكل جدارة وكفاءة خاصة وأنه كان يغتنم الفرصة لتعلم وحفظ وسماع الكثير من النكت التي كانت تجري في مجالسه التي كانت تصدر"من أقاويل أئمة الأدب في أسرار اللغة وجوامعها ولطائفها وخصائصها، من لم ينتبهوا لجمع شمله،ولم يتوصلوا إلى نظم عقده، وإنما اتجهت لهم في أثناء التأليفات وتضاعيف لتصنيفات لمع يسيرة كالتوقيعات وفقر خفيفة كالإشارات."(3)

ومن مميزاته أنه يعمد إلى سهولة البلاغة. فجمع في التأليف بين أبكار الأبواب والأوضاع وعون اللغات والألفاظ، وكمال هذا كله يوجد طبعا في براعة الاستعمال والاقتناء، وآخر ختام ما قاله أبو تمام:**أمـــا المعاني فهي أبكـار إذا إف تضت ولكـن القـوافي عــون**

(1) الثعالبي: فقه اللغة (مقدمة الكتاب) ص28.

(2) أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة، (مقدمة المحقق جمال طلبة) ص28.

(3) المصدر نفسه، ص33.

وعلى العموم كانت مقدمة الثعالبي منصبة على تصنيف الألفاظ حسب معانيها وترتيبها ، فهي إنا ألفاظ مستعملة شائعة أو ألفاظ غريبة غير معروفة ، وهو يعتمد كثيرا على الألفاظ الواردة في القرآن الكريم والاستشهاد بالشعر والشعراء القدامى كالأعشى وامرئ القيس ...والجديد أنه يقارن بين الألفاظ التي يستعملها كل شاعر فيشبه بينها ويصنفها حسب معانيها ،وتميز بوساعة الإطلاع في نقله مختاراته وأدبه من الفصحاء واللغويين الذين يثق فيهم ويعرفهم حق المعرفة .

وفي الأخير أهيب بالمختصين والعاشقين للغة العرب،أن ينشروا جمالها ويبعثوا رواءها بأسلوب يناسب الحياة المائلة عرضا وشرحا وتقريبا إلى الأذهان والأفهام حتى لا توصف هذه اللغة بأنها من مخلفات التاريخ وعليها أن تسكن ملفات الرفوف الأثرية ....ويفاخروا بها أقوى الأمم، لما فيها من فكر وحضارة وشعور وعواطف وأمان واطمئنان، وخبر الدارين،وفضاء الدارسين والمهتمين،الجامعة بين المؤلفين والقارئين.

3-المقدمات التأليفية:

العقل والعلم:

والمقصود بها هو نقل كل المعرفة وفنون العلم ، أي الأخذ من كل علم بطرف والاهتمام بكل ما يمت بالأدب من قريب أو بعيد ،فالمقدمات التي صنفناها في هذا الجانب تكاد تكون معرضا حافلا لشتى ضروب المعرفة والثقافة القديمة ،فهؤلاء العلماء المصنفون :أبو حيان ،والقالي...وغيرهم اهتموا بتنوع مادة الكتاب وذلك بإيراد كل ما يتعلق بأدب ولغة العرب شرحا وبيانا، ونقلوا لنا ما قيل من نوادر وحكايات وقصص وأخبار ومرويات وأسانيد،وزودونا بأروع الأشعار والخطب والرسائل،إضافة إلى أخبار الهوى والعشق وأحوال الناس والحديث عن روعة الطبيعة والمعادن وما جاء من قرآن وحديث ولغة ونحو وفقه وفلسفة وغيرها،وكل هذا ما هو إلا دليل على ثراء مخيلة علماءنا القدامى ومدى خبرتهم الطويلة في هذا الميدان الذي لا يقدر عليه كل الناس.

أبو حيان التوحيدي من أولئك العلماء الأدباء الذين أصيبوا في حياتهم بالبؤس والشقاء وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار، قصد الأمراء والوزراء بغية الإعلاء لعلمه وأدبه، ويعد كتابه "الإمتاع والمؤانسة" من أنفس ما ألفه خاصة مقدمته التي جاءت فيه، مفصلة بما عاشه أبو حيان **(ت.414هـ)** من حياته في قصة ممتعة سردها لنا في شكل مرتب ومقنع وجميل في آن واحد، هذه القصة التي توافرت جميع شروطها والتي دارت أحداثها بين أبي حيان والوزير من حديث ووقائع على شكل مسامرات ومحاورات جاءت متسلسلة حسب زمان ومكان ورودها في كل ليلة من تلك الليالي المشوقة.فمقدمة الكتاب تعد "كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسطه محدّثا، وختمه سائلا ملحفا."(1)

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال بحسب ما أورده في المقدمة التأليفية، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبته... وموضوعات المقدمة متنوعة تنوعا ظريفا لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضع لخطوات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى لنجد فيها مسائل من كل علم وفن، فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه،وهذا ما يسمى بنظرية المعرفة في النقد.

(1) أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، (مقدمة الكتاب)، ص (م).

هذا الكتاب ذو المقدمة الغنية ممتع مؤنس كاسمه يلقي نورا كثيرا على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع هجري، هذا العصر الذي تعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية بدءا من وصف الأمراء ومجالسهم ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة والمفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي ورأي العلماء في الشعوبية والمفاضلة بين الأمم.

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة، فهو يصف كثيرا حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأمراء والملوك، ثم إن أسلوبه في تقسيمه إلى ليال وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار شبيه بألف ليلة وليلة، ولكنها ليست ليالي اللهو، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء، كالبحث عن الروح والعقل والقضاء، والحديث عن النثر والنظم وكذا المفاضلة بينهما، وهي كلها تدخل في أصول النقد واهتماماته.

وقد نجح في إيصال هذه المميزات لنا من خلال أسلوبه الأدبي الراقي فيثير القضايا النقدية في العصر، خاصة أنه يحب الازدواج، ويطيل في البيان، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولا.

فحديثه عن دور العقل الرشيد في الوصول إلى القوة التي يريدها كي يحقق كل أهدافه، فالعقل السليم يساعد صاحبه على النجاح وتكون له قيمة ومرتبة عليا لا ينافسه فيها أحد "...ولم ير أن عقل العالم الرشيد، فوق عقل المتعلم البليد، وأن رأي المجرب البصير مقدم على رأي الغمر*1 الغرير." فيحدث المؤلف صديقه أبا الوفاء المهندس*2 بالدعاء له بالخير والنعم لأن فضله في تلك الأيام سبق لما كان يعرف من البشاشة في وجوه الناس، والمال الذي يسعد به المحتاجين، وإذ وعد وفى "ولا ثقل عليك إدناء قريبهم وبعيدهم، وإنالة مستحقهم وغير مستحقهم أكثر مما في نفوسهم وأقصى ما تقدم عليه من مواساتهم من بشر تبديه، وجاه تبذله، ووعد تقدمه، وضمان تؤكده، وهشاشة تمزجها ببشاشة، وتبسم تخلطه بفكاهة فإن هذه كلها زكاة المروءة ورباط النعمة وشهادة بالمحشد الزكي.*3"

والدليل على أن الله عز وجل إنما فضل الإنسان بالعقل دون غيره"أنه لم يخاطب إلا من صح عقله واعتدل تمييزه ،ولا جعل الثواب والعقاب إلا لهم ووضع التكليف عن غيره من الأطفال الذين لم يكمل تمييزهم... فالعقل حجة الله على خلقه والدليل لهم إلى معرفته والسبيل إلى نيل رحمته وقد أتت الرواية: (أن الله كعز وجل لما خلق الخلق ثم العقل بعدهم ،استنطقه ثم قال :أقبل !

---

*1: الغمر: الجاهل الغير مجرب.

*2: أبو ألوفاء المهندس: هو محمد بن يحيى البوزجاني ولد 328هـ وتوفي 376هـ، عالم في الهندسة والرياضيات صديق أبو حيان (أنظر: مقدمة الإمتاع والمؤانسة ص: ي).

*3: المجد.

فأقبل ،ثم قال له أدبر ،فأدبر ،فقال :وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب،أما إني إياك آمر وأنهي ،وإياك أعاقب وأثيب، وبك آخذ وبك أعطي "(1)

والعقل قسمان :موهوب ومكسوب ،فالموهوب ما جعله الله في جبلة خلقه وهو الذي ذكره في كتابه عز وجل فقال << وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ>>(2)والمكسوب ما أفاده الإنسان بالتجربة والعبر وبالأدب والنظر وهو الذي ندب الله عز وجل إليه فقال:<< أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا >>(3) وقد شبه بعض العلماء العقل الغريزي بالبدن وشبه المكتسب بالغذاء"(4) والمهم من هذا كله أن يكون العاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا(5) وهذه هي الميزة التي يتصف بها الناقد الناجح الذي يصبوا إلى هدف عماده الدقة والصحة من خلال الحجة والإقناع ونشر العلوم بشكل عقلاني لا زيف فيه ولا بطلان .

وفي نفس الوقت تبرز تلك الصداقة التي جمعت أبى حيان والوزير، التي لم تستطع لا الدروب ولا الأوقات تفرقتها: "ولعمري إن السفر فعول لهذا كله ولأكثر منه، فأرعيتك بصري وأعرتك سمعي، وساهمتك في جميع ما وقرته في أذني... ولم أقطع عنك عادتي معك في الاسترسال والاستنباط والبر والمواساة والمساعدة والمواتاة*1 والتعصب والمحاماة."(6)

ثم يكمل حديثه معه في مسائل السياسة والاختلاط بالوزراء والمسؤولين في أنه يتحدث "بما تحب وتريد، وتلقي إليه ما تشاء وتختار... ولعلك في عرض ذلك تعدو طورك بالتشدق*2 وتجوز حدك بالاستحقار،وتتطاول إلى ما لبس لك، وتغلط في نفسك وتنسى زلة العالم وسقطة المتحري... هذا وأنت غر لا هيئة لك في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء"(7)لأن هذا طبعا يحتاج إلى روح التعود وقوة المران والتغيير في الشكل والمظهر،فالتقرب إلى الوزراء في ذلك الوقت وحتى الآن قليل من ينجع فيه ويجيد،هكذا يقول أبو حيان،فهو حينا ينصح صاحبه، وحينا آخر ينصح هو أيضا من قبل الشخص الذي لطالما أراد له الخير دائما،خاصة حين قال له وأمره:"وإذا عزمت فتوكل على الله وليكن الحديث على تباعد أطرافه

(1)قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص5-6.
(2)سورة النحل ،آية:78
(3)سورة الحج ،آية :46
(4) قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص6-7.
(5)ابن قتيبة :عيون الخبار ،ص(ع) المقدمة.
*1: الموافقة. *2: التشدق: التوسع في الكلام من غير احتياط.
(6) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، (مقدمة الكتاب)، ص4-5.
(7) المصدر نفسه ،ص5.

واختلاف فنونه مشروحا، والإسناد عاليا متصلا والمتن تاما بينا واللفظ خفيفا لطيفا، والتصريح عاليا متصدرا ومتصورا، والتعريض يسيرا، وتوخ الحق في تضاعيفه وأثنائه، والصدق في إيضاحه وإثباته، واتق الحذف المخل بالمعنى، والإلحاق المتصل بالهذر، واحذر تزينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلله، وتقليله عما لا يستغنى عنه، واعمد في الحسن فزد في حسنه وإلى القبيح فانقص من قبحه... فإن الكلام صلف تياه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان وخطره كثير ومتعاطيه مغرور وله أرن*1 كأرن المهر وإباء كإباء الحرون، وزهو كزهو الملك"[(1)] ،فاللسان عنده كثير الطغيان، وهو مركب من اللفظ اللغوي والصوغ*2 الطباعي والتأليف الصناعي والاستعمال الاصطلاحي ومستملاه من الحجا ودريه*3 بالتمييز ونسجه بالرقة والحجا في غاية النشاط ،لا يكف هذا الصاحب عن الوعظ والتوصية من أمور كثيرة لها علاقة وطيدة بالغاية النقدية ومنهجه طالما يبحث في اللغة والكلام واللسان وهي أمور لا يمكن التغاضي عنها أبدا،لأنها لابد منها وإتباع سبل النجاح فيها، خاصة وإن كان من باب التعامل والتواصل والتبليغ،سواء كان عن طريق اللفظ المكتوب أو المنطوق[(2)].

كما أن باب التعامل الجيد حسن الأمانة وإعلاء الحق واستبيان الصواب منه وقول ما يجب قوله حتى وإن كان سيؤدي إلى التهلكة، ونسيان الأحقاد والضغائن التي تفسد مروءة الإنسان ولا تزيد الوضع إلاّ اشتعالا وصعوبة، لأن الإنسان الحق هو الذي: "ينظر إلى الدنيا بعين بصيرة ويعزف نفسه عن زهراتها بتجربة صادقة."[(3)] وخير ما في هذه الحياة هو "ما يفكه النفس ويدعو إلى الرشاد، ويدل على النصح، ويؤكد الحرمة ويعقد الذمام، وينشر الحكمة، ويشرف الهمة ويلقح العقل، ويزيد في الفهم والأدب، ويفتح باب اليمن والبركة"[(4)] كما قال الشاعر:

من لم يكن لله مهتما لم يمس محتاجا إلى أحد

كما أن صيانة النفس والقناعة، تعد من أهم ما يجب على المرء الحذو به في دنياه لأنها الركيزة المثلى التي بها سيعرف طعم السعادة الحقيقية، فكما قال ابن السماك:"لولا ثلاث لم يقع حيف ولم يسل سيف، لقمة أسوغ من لقمة، ووجه أصبح من وجه، وسلك*4 أنعم من سلك،وليس

---

(1) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، (مقدمة الكتاب)، ص ، ص09.
*1 أرن: النشاط.
*2 الصوغ: الصرع.
*3 دريه: علمه.
(2) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، (مقدمة المحقق أحمد أمين وأحمد الزين)، ص 10
(3) المصدر نفسه،ص 12.
(4) المصدر نفسه، ص13. *4 السلك: خيط.

كل أحد له هذه القوة، ولا فيه هذه المنّة*1 "(1) إلا أن الصراع بين ملذات الدنيا والآخرة أمر صعب هو أيضا ولا يمكن إرضاؤها معا وفي نفس الوقت، هذه القضية تعرض لها كاتبنا أبو حيان عندما وصفها وشبهها" بضرتان،متى أرضيت إحداها أسخطت الأخرى،ومتى أسخطت إحداها أرضيت الأخرى".هذا لأن الإنسان نفسه ضعيف الحول، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وإرادته وآماله وبين السعي في إرضاء ربه بأداء الفرائض والثبات على حدوده سبحانه، إما بالأمر والنهي ولكن هذه سنة الحياة، فتارة نعمل لدنيانا وتارة نعمل لآخرتنا .فهو يستعيذ بالله من الفقر،طالبا التقوى والصبر من الله سبحانه وشكره على كل نعمة،لأنه هو المعطي والآخذ ولا قوة إلاّ قوته عز وجل.لأنه يدعونا بحكمه إلى أخذ تجارة العلم والدين والحكمة أفضل بكثير من تجارة الدنيا والمال والبعد عن طريق الله السوي.ونحن نعرف أن"كنايات الظلم والتجديف*2 والخساسة والجهل وقلة الدين وحب الفساد،وليس فيها شيء مما قدمنا وصفه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف،وينهي أبو حيان مقدمته بدعاء كان لابد منه في صرف الأذى وسوق الخير، فالأعمال عنده بخواتيمها، والصدور بأعجازها، وخير أمر هو ما قدمنا من قول وفعل لما فيهما من صلاح وفلاح في الدنيا والآخرة.

هذا التعدد في المواضيع التأليفية الأدبية التي تحدث عنها أبو حيان،جعلته"يتناول بالدراسة كأدباء وشعراء وفلاسفة، عاشوا زمنه،واستطاع أن يقدم مسحا للمجتمع المفتوح على حضارات وقيم وافدة دون إغفاله مسائل اللغة والمنطق والنحو والأدب والنقد، وتحدث بإسهاب عن الإنسان وأفكاره وكذا هواجسه."(2)

ويمكن أن نعد المقدمة من أجل أعمال الكاتب وأخطرها شأنا، به يقف التوحيدي على قمة الإبداع الأدبي والفكري، منزلته بين الفطاحل ثابتة لا تأتي عليها الدهور، ولا يلحقها الدثور" فقد نجح في إبداع كتاب لا تلحق جدته، كتاب يمكن أن يقف إلى جانب كتب الجاحظ وابن قتيبة، ويتفوق على كل ما تلاه من المتأخرين."(3)

وتميز القالي عن الأدباء الآخرين في مجال التأليف في أنه جرى كتابه على طريق السلف في مثل هذا النوع من التصنيف، حيث يسرد المؤلف ما حضره ويملي ما أراده في مجالس متفرقة لا ينتظمها سلك واحد ولا يشتملها باب بعينه أي الأخذ من كل علم وفن بطرف،

---

*1 المنة: القوة.

(1) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، (مقدمة الكتاب)، ص 14.

*2 التجديف: الكفر.

(2) محمود إبراهيم: أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، الدار المتحدة للكتاب تونس- ليبيا، 1985، ص 107.

(3) محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدار العربية للكتاب،ليبيا، 1984، ص 47.

والاهتمام البالغ لكل ما يمت بالأدب من قريب أو بعيد وهذه الطريقة التأليفية عنده قديمة رغم شهرتها في ذلك الوقت وشمل ذلك اللغة والحديث وغيرهما من علوم الإسلام إلى جانب المرويات والأخبار...وقد حرص القالي في مقدمة كتابه(الأمالي) على سرد الأخبار والحكايات بأسانيده التي وصلت إليه عن طريقها وميز بين الروايات وحاكم بين الألفاظ واختار الأصح الأرجح فاستدل لاختياراته بما عرف من لغة العرب وأورد أدلته في ذلك من كلام العرب وأشعارها،"ونلاحظ حرصه على شرح الألفاظ الغريبة فيما يريده من كلام العرب والغريب يختلف باختلاف الأزمان فربما ترك السلف شيئا لوضوحه ثم رأينا نفس الشيء مستعجما على من بعده، وهذا باب واسع، كما أنه حرص على إيراد طائفة من أمثال العرب وأقوالها وشرح المواد من ذلك لدى العرب واعتمد في ذلك كله على أئمة اللغة وأعلام الدرب كالأصمعي وابن دريد وابن الأنباري... وقد يذكر القالي شيئا سمعه من بعض مشايخه أو قرأه عليه فيستطرد في بعض الأشياء التي سمعها أو قرأها عليه وإن لم تنتظم في موضوع ثم يتحول إلى شيخ آخر من مشايخه فيذكر بعض ما تحمله عنه من علم ويشرحه بوضوح تام".[1]

واهتمامه بتنوع مادة كتابه جعله يورد كل ما يتعلق بلغة العرب شرحا وبيانا وأورد طائفة من أمثال وأشعار وأقوال العرب،وطرز ذلك بأخبار الخلفاء والأمراء فنجده يفاخر بأحدهم قائلا:"وابن سيد العالمين أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد الإمام العالم والخليفة الفاضل الذي لم يرى فيما مضى من الأمراء شبهه ولا نشأ في الأزمنة من الكرماء مثله ولا ولد النساء من الأجواد نظيره،ولا ملك العباد من الفضلاء عديله... "[2]

كما نجده قد تحدث عن دور العلم في حياة الإنسان فقال :"فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة أيقنت أن طلبه أفضل تجارة ،فاغتربت للرواية ولزمت العلماء للدراية ،ثم أعلمت نفسي في جمعه وشغلت ذهني بحفظه ،حتي حويت خطيره وأحرزت رفيعه ورويت جليله...والعلم يذكر بالرجاحة طالبه وينعت بالنباهة صاحبه"[3]،والجمحي بدوره يؤكد ضرورة العلم وفضله فقال:"وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات "[4].ذلك أن الإنسان يتصف بالعلم ولا يكون هذا العلم إلا بالتعلم والبحث والتمكن من اللغة "واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير"[5]

(1) القالي: الأمالي مقدمة المحقق الشيخ صلاح بن فتحي، ص 8.

(2)المصدر نفسه ، مقدمة الكتاب، ص 09.

(3) المصدر نفسه ،ص14-15.

(4) ابن سلام :طبقات الشعراء ،ص26.

(5) عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة ،ص 3 ،مقدمة الناشر.

واعلم مقرون بالحياة وضروري للإنسان مهما بلغ عمره ،فهو لا يتوقف في طريق معين "وإذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف ونتبين مواقعها من العظم ونعلم أي أحق منها بالتقديم وأسبق في إستيجاب التعظيم ،وجدنا العلم أولاها بذلك وأولها هنالك إذ لا شرف إلا وهو السبيل إليه ولا خير إلا وهو الدليل عليه"(1) ،ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا وأبسق*1 فرعا ،وأحلى جنى وأعذب وردا وأكرم نتاجا وأنور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ويصوغ الحلي ،ويلفظ الدر ...والذي لولا تحفيه بالعلوم وعنايته بها وتصويره إياها ،لبقيت كامنة مستورة"(2).

كما ذكر بعض نوادر الحمقى والنساء مما شحن به مقدمته فجاءت مستوعبة لجملة من الفنون، جامعة لأخبار الناس وحكاياتهم وما فسره من آي الذكر الحكيم وأحاديث النبي الأمين– ص– فضلا عما أورده من وجوه القراءات وطرائق الحكمة وفنون الموعظة وأحوال الناس وصروف الدهر أضف إلى ذلك ما شحن به مقدمته من أخبار الهوى وأحاديث العشق(فكأنك في بستان للفنون يأخذ بلبك ويشحذ ذهنك ويرغمك على ملازمته حبا في مطالعته وازديادا من جمال أخباره وطرائق أحواله).

ونجد كل هذا في آخر مقدمته حين قال:"... وأودعته فنونا من الأخبار وضروبا من الأشعار وأنواعا من الأمثال وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته ولا ضربا من الشعر إلا اخترته... ثم لم أخله من غريب القرآن وحيث الرسول - ص – على أنني أوردت فيه من الإبدال ما لم يريده أحد وفسرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعا..."(3)

هذا التنوع المعرفي الذي حوت عليه هذه المقدمات، هي مؤشر واضح على غناء الساحة الأدبية وبرهان قاطع على نوعية الإبداع التأليفي الذي لا زال الزمن يضمه ولن يفارقه.

---

(1) عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز ،ص 13-17.

(2)المصدر نفسه ، ص 15

*1 بسق النخل :بسوقا أي طال وعلى.

(3) القالي: الأمالي مقدمة المحقق الشيخ صلاح بن فتحي، ص 9.

4-المقدمات البلاغية:

البيان والنظم والإعجاز:

وسميناها بالبلاغية لأنها تفرد فيها أصحابها بتأسيس نظرية النظم التي هي عمود الدراسات البلاغية والتي لولا ما رسمه لها العلماء ووضعوه من علامات لما استطاع ممن بعدهم الاطلاع على هذا العلم الواسع والمتشعب ،فنجدهم قد تكلموا في أمر الفصاحة والبلاغة والبيان والكلام والإعجاز،واجتهدوا في وضع ضوابط توظيف المحسنات البديعية وبيان متى يجب أن تكون أو لا تكون ،كما أنهم جمعوا في مقدماتهم طائفة من النصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب القدامى يتصورون البيان في القرن الثاني الهجري والنصف الأول من القرن الثالث ، حتى وضعوا للمعاني والألفاظ وهيئة الخطيب والشاعر من القواعد ما نجده متفرقا في هذه المقدمات.

إلى جانب الحديث على صحة مخارج الحروف وسلامة اللغة والصلة بين الألفاظ بعضها ببعض،ووضحوا العلاقة بين اللفظ والمعنى والملائمة بين الخطبة والسامعين لها ،إضافة إلى المميزات التي لا بد أن تتوافر في الشاعر والخطيب ليصل كل منهم إلى الرتبة المنشودة،وما لاحظناه أن هؤلاء العلماء البلغاء:الجاحظ وأبو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني...وغيرهم جمعوا في البلاغة بين العلم والعمل فبعدما ظهر ضعف اللغة في القرن الخامس الهجري ، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو و مدلول الألفاظ المفردة، والانصراف عن معاني الأساليب وربما هذا ما بعث عزيمة العلماء إلى تدوين علم البلاغة ووضع قوانين للمعاني والبيان وإعطاءها حقها من البحث والتقويم، حتى صارت أهدافها تنمية الذوق الأدبي والارتقاء به .

بدأت بذور البلاغة بملاحظات نقدية بسيطة منذ العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي،ثم أخذت هذه الملاحظات في التطور والتوسع، غير أنها ظلت هامشية عابرة حتى كان عصر الجاحظ والمبرد في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فبدت في مؤلفاتهما القضايا البلاغية بعدئذ، وقد اعتبر الجاحظ من خلال كتابه" البيان والتبيين" المؤسس الحقيقي لعلم البلاغة، التي لم تظهر على الساحة إلا من خلال الكثير من الجهود والأعمال ،المنظر للنقد والداعي إليه.

ثم كانت مرحلة جديدة أواخر القرن الرابع الهجري وبداية الخامس،اجتهد فيها علماء البلاغة في لم شتات ما وصل إليهم من العلوم البلاغية وبوبوها،حتى أصبحت علم البلاغة بفروعه الثلاث: المعاني والبيان والبديع،الذي كان قد وضعه ابن المعتز في القرن الثالث الهجري،فأصبحت البلاغة علما قائما بذاته وهي تنمو وتسير في ظل بلاغة القرآن الكريم الذي يمثل الرمز الأعلى، والكلام المعجز الذي لا يطيق البشر الإتيان بمثله،ثم كانت بداية القرن

الخامس الهجري مرحلة ضعف وجمود في الأدب، إذ بدأ الاهتمام بالشكل دون المضمون،وكان جهد الشعراء والأدباء منصبا على تكلف السجع والجناس دون الاهتمام بالمعنى،مما أدى إلى ظهور تيار يدعو إلى إهمال الشعر والإعراض عن اللغة،وهنا ظهر العالم الجليل الإمام عبد القاهر الجرجاني فتصدى لهذا التيار،وهاجم الذين يهتمون باللفظ دون المعنى،مبينا أن الألفاظ ما هي إلا وحدة متناسقة مع المعاني وخدم لها،وان البلاغة والفصاحة لا تكون إلا في اللفظ ومعناه، والمعول عليه هو النظم وليس الكلمات المفردة في اللغة. فوضع بذلك عبد القاهر بداية مرحلة جديدة في تاريخ دراسة علوم اللغة العربية التي تدعو دائما إلى التوحد الكامل بين اللفظ والمعنى اللذان بهما نصل إلى فهم وقراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة وكاملة.

وأهم شيء جاءت به مقدمة الجاحظ، تلك الافتتاحية الفريدة التي اختارها للولوج إلى أفكاره، الاستعاذة من فتنة القول والعمل والتكلف والسلاطة والهذر، كما أنه استعاذ من العي والحصر في الكلام واللسان، فقد تحدث كثيرا عن العي وأراد التصدي له بكل الطرق إما بالعقل أو المال أو الصمت،مشيرا إلى أن الله تعالى حين بعث موسى عليه السلام إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته من خلال قوله سبحانه: " **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي**". إذ دعا موسى ربه أن يعطيه البيان والحكمة، فقال تعالى:" **وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**". رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، ومن الدليل على أن الله تعالى حل تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد و الحبسة قوله عز وجل :"**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي**" فاستجاب سبحانه لدعائه فقال تعالت قدرته:" **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**".ومن عظيم الآيات الدالة على تعليم البيان ونعمته في تقويم اللسان قوله تعالى في سورة الرحمن:" **الرَّحْمَنْ عَلَّمَ الْقُرْآنْ خَلَقَ الْإِنسانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**" وقوله تعالى:" **عَرَبِيٌّ مُبِيْنٌ**" وسبحانه لما أرسل رسله إلى الأمة، كان مدار الأمر على البيان والتبيين أو الفهم والإفهام، لأنه كلما كان اللسان سليما وأبين كان أحمد، فالمفهم والمتفهم شريكان في الفضل، إلا أن الأول أفضل من المتفهم وكذلك الحال بالنسبة للمعلم والمتعلم، فقد قال تعالى:" **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**"(1).

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 11.

إلى جانب حديثه عن عيوب الخطيب التي لا بد من التخلص منها ،لأنه يريد أن يكون للخطيب مرتبة معتدلة وله مواصفات تجعل منه أساسا للغة والبيان أين تمكنه قدرته الكلامية على الوصول إلى مبتغاه بطرق واضحة دون لف ودوران أو مماطلة وثرثرة أو تكلف، لأن نجاح الخطيب يعتمد على حسن كلامه وطريقته في إبداء الآراء "فالبيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة"(1).

يقدم لنا الجاحظ أمثلة على ذلك من خلال القرآن الكريم ونحو ما وهب الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام"من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة ومع المحنة والاتساع في المعرفة، فأعطاه سبحانه من الحجة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة،إلى أن حل الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة واسقط تلك المحنة"(2)هذا كله من أجل أن يبين أهمية النطق السليم للحروف لأن ترتيبها ضروري في كل كلمة خاصة إذا طرأت تلك العيوب التي تفقد المعاني والكلمات دورها الوظيفي في الدلالة كاللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء وغير ذلك من العيوب التي لابد من تحسينها للحفاظ طبعا على النطق الصحيح لهذه الحروف.

وتحدث أيضا عن لغة أهل الأمصار مبينا الاختلاف في الألفاظ بين الكوفة والبصرة والشام ومصر،خاصة وأن أهل مكة يعتبرون هم من فصحاء العرب لأن ألفاظهم تتماشى مع القرآن الكريم، ومذكورة فيه مثل قولهم أن القدر تسمى برمة عند الأمصار ويجمعونها برام،وهم يقولون قدر ويجمعونها قدور مبرهنين على ذلك بقوله تعالى:"**وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ**"وإلى غير ذلك من الأمثلة التي تبين أيضا في القرآن معان لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، الجوع والخوف، الجنة والنار،الرغبة والرهبة،والجن والإنس(3).

أما فيما يخص بمخارج الألفاظ وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون، فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم،كالذي يرد أن يقول زورق،قال سورق،ويجعل العين همزة،فإذا أراد أن يقول مشمعل قال مشمئل...فاللكنة واللثغة ونطق الهاء حاء كلها أمور تجعل من الألفاظ غير مفهومة وواضحة،أما فيما يخص طبقات الكلام،فهي متعددة بحسب كلام الناس أنفسهم فمن

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ص14.

(2) بطرس البستاني، أدباء العرب – منتقيات – في الأعصر العباسية، دار مارون عبود، ص 14-15.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، ص19

الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن،والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وكله عربي، الكلام نفسه تدخل فيه عدة أمور لا نحبها ولكن وجدت معالإنسان، لأن لولا هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء كالعي والبكي*1 والحصر والمفحم،والخطل*2 والمسهب*3 والمتشدق والمتفيهق والمهمار*4 والثرثار والمكثار والهمار*5"[1]. وقد حرص الجاحظ على مادة البيان، فتحدث تحت عناوين ثلاثة:البيان والبلاغة والخطابة، وعن قضية واحدة هي الكلام الجيد، خطبة أو جدلا أو حوارا أو قصصا.

- فالبيان عنده:كل شيء كشف لك قناع المعنى،وهتك الحجاب دون الضمير،حتى يفضي السامع إلى حقيقته،فأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان،وجميع أصناف الدلالات على المعاني، من لفظ وغير لفظ،خمس أشياء لا تنقص ولا تزيد: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال، والبلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام وحسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة وهي وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة، وكل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الخطأ، وتصوير الباطل في صورة الحق، وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة والألفاظ معتدلة واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن، السمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال[2].

- وفي الخطابة ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فكما يقال لكل مقام مقال.

ومن خلال هذا تطرق الجاحظ إلى مقام الاستدلال والمقارنة، فنجده قد أفاض القول في الخطابة وما تتطلبه من جهر بالقول وترفيع الصوت... فعدة الخطيب" شدة العارضة، وقوة المنة وظهور الحجة، وثبات الجنان" وعبر هذا كذلك يقدم لنا الجاحظ معلومات كثيرة عن البلغاء والخطباء والفقهاء وكذا الأمراء وهو لا يهتم بتراجمهم الشخصية وأخبارهم بقدر ما يركز على تصورهم للبلاغة،وتفوقهم في مجال القول وبسط القول عن علماء المعتزلة،فمـــــا

(1) بطرس البستاني، أدباء العرب، ص 210.
*1 البكي: قليل الكلام.
*2 الخطل: الفاسد الكلام.
*3 المسهب: الكثير الكلام.
*4 المهمار: الكثير الكلام.
*5 الهمار: الكثير الكلام.
(2) الجاحظ : البيان والتبيين , ج1،ص 14-15(المقدمة)

منهم إلا وأورد عنه خبرا أو ذكر له نادرة،كواصل بن عطاء، وعيسى بن حاضر،وترجم لبعض علماء الخوارج وخطبائهم في إيجاز كالقاسم بن عبد الرحمن بن صديقة"[1].

وخاصة إذا كانوا يتصفون بالبيان الذي هو على أربعة أوجه:"فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ،ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكرة واللب ،ومنه البيان الذي هو نطق باللسان ،ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد أو غاب ...وكان الله عز وجل قد أراد أن يتم فضيلة الإنسان خلق له اللسان وأنطقه بالبيان "[2] .ولهذا كان لابد على المرء أن يكون متعلقا بهذا البيان حتى يقترب من فهم آي القرآن فهما دقيقا وصحيحا :"لأن ذلك يعلمنا من البيان ما تقصر عنه مزية النطق وفضله"[3] .

والبيان ليس خطابة وحسب، فقد يكون رسائل ووصايا،ونحن ومن خلال قراءة قضايا مقدمته نلمس اهتمامه الشديد بالرسائل الشفوية أيضا،وقد يكون حكما في منافرة،أو وعظا لقوم وما نلاحظه أيضا أنـه لـم يخص الشعـر كفن مستقل إلا بصفحات قليلة ليستشهد بها على ما يقول وخص ما قيل منه في مدح الخطب واللسن بباب مستقل ويورد قول أبي عمرو بن العلاء حين قال:"أن الشاعر كان مقدما في الجاهلية على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم...فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وشرعوا إلى أعراض الناس،صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"وإذا كانت المقابلة تزيد الأمر وضوحا فلا يعرف الشيء إلا قرين نقيضه،تحدث الجاحظ عن العي والصمت،والحمق والتشادق والإغراق والفضول واللحن ونوادر الأعراب والألغاز والمجانين وأخطاء العلماء،ومزدوج الكلام والإيماء،كل هذا من اجل ترويح نفس القارئ،ونفع له في بيانه وعباراته كيلا يضل السبيل.

وكانت دراسة المسلمين للحديث في عصر الجاحظ وبعده، قائمة على نقد الإسناد، دون تعرض للمتن نفسه، أما الجاحظ فقد خرج عن هذه القاعدة عندما روى حديث يمس "البيان" رفضه ورد عليه: زعمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" شعبتان من شعب النفاق: البذاء والبيان وشعبتان من شعب الإيمان الحياء والعي"[4] ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ورسول الله يحث على العي، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله بين الـبذاء والبيان ، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصر

---

(1) د/ محمد بركات حمدي أبو علي، دراسات في الأدب، دار وائل للنشر 1999-2000 ط1 ص 172.
(2) قدامة بن جعفر :نقد النثر ،ص 9-15.
(3) ابن الأثير :المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ص45.
(4) الجاحظ : البيان والتبيين , ج1،ص05(المقدمة)

على المقدار، فالعي مذموم والخطل مذموم ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي"[1].

وفي المقدمة أيضا مادة موفورة لدراسة عادات وتقاليد المجتمع الإسلامي في بغداد والبصرة على أيام الجاحظ ، لأنه يغترف مما حوله، ويلتزم الدقة في إيراده حتى الألفاظ العامية يوردها كما هي، فهو يبحث في تطور الكلمات، وتوزع اللهجات، وظواهر اللحن، وخصائص القبائل وفروق الدلالات والحروف الأكثر دورانا، والألفاظ الأكثر توافقا وتطور المصطلحات في مختلف مجالات العلوم، ويورد قصة الأعرابي وقد سئل: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذا لرجل سوء فقيل له: أتجر فلسطين؟ أجاب : إني إذا لقوي، لأنه لم يعرف من الهمز والجر غير معناهما اللغوي"[2].

كما ضمن مقدمته بعض خواطر معاصريه وسابقيه في الشعر العربي،وهي خطوات ذهن دقيقة ولفتات فيها من الذكاء واللماعية أكثر مما فيها من التأمل والقاعدة، إضافة إلى أنه استخدم عدة كلمات منها:الإيجاز،الحذف،السجع،الازدواج،التشبيه،الإطناب،إلا أن حديثه عنها كان حديثا فضفاضا ومفهومه لها مرتبط كما قلنا بلون معين من القول، والقارئ لمقدمة الجاحظ البلاغية تستوجب عليه معرفة تفاصيل كل ما كتب فيها، وذلك يتطلب أداة التأني في القراءة ومعاودة لها، وتحليلا دقيقا لمدلولات كل لفظ، لأنها تعد جزء من فهم النص فهما دقيقا وصادقا.

فنجد أبو هلال العسكري يوجز في كتابه الصناعيين فضائل المقدمة وهو يتحدث عن البلاغة قائلا:"وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمري كثير الفائدة،جم المنافع،لما يشتمل عليه من الفصول الشريفة،والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة،وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء..."[3]وابن خلدون جعله من أركان الأدب الأربعة بعد ابن قتيبة في أدب الكاتب،الكامل للمبرد، الأمالي للقالي ثم البيان والتبيين للجاحظ. لما لا تكون له هذه الأهمية وله الفضل الكبير في تطور علم البلاغة واعتدالها، أين برهن فعلا على جدارته في تبيان عدة قضايا أساسية نلخصها كالآتي:

1- الكلام عن صحة مخارج الحروف ثم على عيوب النطق اللسانية.

2- الكلام على سلامة اللغة والصلة بين الألفاظ بعضها ببعض والعيوب الناشئة من تنافر الحروف تنافرا يمجه السمع وينفر منه الذوق.

---

(1) د/ سعد سليمان حمودة : دروس في المكتبة العربية , ص 173

(2) المرجع نفسه ، ص174-175.

(3) د/ المرجع نفسه، ص 176.

3- الكلام عن الجملة والعلاقة بين اللفظ والمعنى ثم على الإيجاز والإطناب والملائمة بين الخطبة وموضوعها وبينها وبين جمهور المستمعين بها .

4- الكلام على هيئة الخطيب وإشارته.

فأسلوب الجاحظ نحا منحى آخر، تحرر فيه من الغموض ومن تنميق اللفظ مع الاحتفاظ بجزالته ثم مزج في هذا الأسلوب ما تعلم وبما قرأ وبما سمع وبما خبر من أحوال الناس، "فلقد نظر إلى وظيفة التأليف الأدبي من زاوية أخرى خلاف تلك التي نظر منها كتاب عصره، فليست وظيفة الكتابة عنده مجرد إفراغ مزيج من المعلومات التي تدل على ثقافة الكاتب ، لكي يتثقف بها القارئ بل تتمثل وظيفتها بصفة أساسية في الكشف عن شخصية الكاتب وفلسفته اللغوية أو الكلامية أو الأدبية من ناحية، ثم في التعبير عن وقفه إزاء أنماط من السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية التي يعيشها أهل عصره"[1]

وليست مقدمة كتاب البيان والتبيين في الحقيقة مجرد مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة ممزوجة بماله من آراء في مسائل عدة"[2]. بل إن للمقدمة موضوعا رئيسيا يسيطر عليه إلى حد كبير، وهو الذي يوجه الكاتب إلى اختيار مختاراته وإن كثرت هذه المختارات بحيث تجعل البحث في الموضوع الرئيسي مشتتا، وهذا الموضوع الرئيسي هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون وكما مارسها عمليا علماء الكلام وخاصة الجاحظ ونظرة إلى محتوى المقدمة تؤكد لنا هذا خاصة وأنه يتحدث عن نعمة فصاحة اللسان وسلامته من العيوب. والجاحظ يحث على براعة القول في أن يكون الكلام وسطا لا غرابة فيه ولا ابتذال، وان يكون فصيحا لا ثقل في صروفه، ولا تنافر في كلماته، وأن يكون رقيقا في موضع الرقة جزلا في موضع الجزالة وأن يكون صحيح السبك جميل الديباج، فالوعاء الخارجي به هو كل شيء في الأدب.

فالتاليف البلاغي تميز بعدة سمات منها :

-ارتبط التأليف البياني بالتفسير واللغة إرتباطا كبيرا خاصة في ظل الدراسات القرآنية التي تعد من النصوص البيانية التي شملت فكرة الإعجاز وقوة اللغة التي لم يستطع أحد من الكتاب الإتيان بمثلها.

---

(1) د/ عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية ، ص 139

(2) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج1 ص390.

- أصبح مفهوم البيان مرتبط بالبلاغة ،خاصة حين ظهر مصطلح البديع وباقي العناصر البلاغية .

- يعد النص الأدبي هو النص الذي أراد الباحثون كشف مواطن الجمال فيه من خلال تحليله وشرحه معتمدين في ذلك على علم البلاغة.

- مع مرور الوقت استقلت علوم البلاغة عن بعضها ،وأصبح لكل مستوى من هذه المستويات: المعاني ،والبيان ،والبديع طريقه الخاص ،فالأول اهتم بالألفاظ وعلاقتها بالمعاني ،والثاني اختص بالمجاز والدلالات ،أما الثالث فقد اختار لنفسه منهج البحث في جماليات اللفظ والمعنى.وهذه الأسس هي التي جعلت من علم البلاغة ركنا من أركان الدراسات الأدبية والنقدية.

ويبقى للإمام عبد القاهر فضل السبق لأنه أول من أسس كذلك لهذا العلم، وواضع نظرية النظم فيالنقـد العربـي، بعض المحدثين يتهمه بالاضطراب والتناقض والتردد في آرائه، غير أننا في نفس الوقت لا نستطيع، بعض المحدثين يتهمه بالاضطراب والتناقض والتردد في آرائه، غير أننا في نفس الوقت لا نستطيع البلاغة متكئا على سليقة عربية سليمة وعلى معرفة وثيقة باللغة وأسرارها حتى كان يعرف بالنحوي: بل سماه الحافظ الذهبي إمام النحو أو النحاة[2].

فلم يكن النقد في مسافة متصلة في مساقه العام موجها كما أصبحت البلاغة موجهة إلى خدمة فكرة الإعجاز على نحو عامد، ولكن عدم انفصاله عن البلاغة كان من الطبيعي أن يقف به عند الفكرة ذات يوم، وكان من الممكن أن يتطور النقد حتى يتمرس بمشكلة الإعجاز، لأن الجاحظ كان قد سبق جميع النقاد إلى اعتبار النظم سر الإعجاز ثم جاء بعده عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ودراساته البلاغية الجليلة، ولهذا كانت أقرب النظريات النقدية التي يمكن أن تخدم البحث في الإعجاز هي عبر نظريتهما، ذلك أن كلا منهما تغذى من آراء الآمدي ونظريته في حسن التأليف حين احتكم إلى ما سماه طريقة العرب وكان يهتدي بذوقه إلى أن حسن التأليف في شعر البحتري هو التزام بهذه الطريقة فكأنه التقى مع الجاحظ في جعل جمال النظم مقياسا للشعر الجميل، وصادف أن كان في اتجاه الآمدي ثورة صريحة وخفية على الاتجاه إلى الفكر اليوناني في استنباط مقاييس

(1)عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة :المكتبة العصرية بيروت د.ط، 1424هـ - 2003 مقدمة التحقيق لمحمد الفاضلي، ص 05-06.

نقدية تعرف بها مستويات الجودة، وكان الحزام العلمي الضيق الذي شد به قدامه النقد في ابتكار مصطلح جديد مما باعد الأذواق عن طريقته، وقد كان أبو سليمان المنطقي وهو المتحدث عن نوع من البلاغة سماها "بلاغة التأويل"، ولكن انهزمت أمام "صحة التأليف" التي نادي بها الآمدي .

وكانت نظرية هؤلاء النقاد البلاغيين تعتمد على ركنين كبيرين أولهما إمكان الموازنة بين اثرين أدبين متفقين في الموضوع وإبراز دور الناقد الكفؤ الذي يجب أن يصغي الآخرون إلى حكمه سواءاستطاع التعليل أو لا، وبهذه الطريقة يحكم على ما لا يستطيع أن يورد فيه علة واضحة، وذلك يعني أن هناك دائرة في الشعر أو النثر يحس فيها الجمال ولا يستطيع التعبير عنها بلم وكيف؟ وهي وقفة أمام أثر يعجز الناقد وغيره في كلام البشر"[1].

فلم لا تكون تلك الوقفة أمام القرآن، وقد رأينا كيف ألح الجرجاني على هذه الفكرة في مقدمة كتابه"دلائل الإعجاز" فكأن نظرية الآمدي قد لاقت نجاحا من قبل بلاغي القرن التالي ونقاده واتبعوه لم وصل إليه، في أنه اعتبر الذوق كما رأينا سابقا وطريقته، هما اللذان انتصرا في السياق البلاغي والنقدي في تاريخ الأدب العربي، " فالآمدي أوصل النقد إلى منطقة اللاتعليل وهي التي تقبل فيها شهــادة الناقد العـدل، فمن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى نتيجتين، أولا أن يقال لكل من يتصدى لإنكار الجمال في أثر ما بعد ورود شهادة الناقد البلاغي إنه جاهل لا يطمئن أحد إلى ذوقه وحكمه على المستوى النقدي، وثانيا أن يلح النقد إلحاحا كليا على التأثير الذي يتلقاه القارئ و السامع من الأثر الفني،" وقد حاول لونجينوس رغم ذلك أن يضع للروعة مصادر خمسة هي:

1- القدرة على تكوين فكر عظيمة.

2- العاطفة الجياشة.

3- استخدام ضروب المجاز.

4- استخدام الألفاظ الرفيعة.

5- التأليف السامي الجليل.

ويتضح لنا من خلال هذه العناصر الخمسة أن الاثنين الأولين منها يتصلان اتصالا وثيقا بنفسية الشاعر أو الكاتب، بينما تتعلق الثلاثة الأخرى بالأثر الأدبي نفسه"[2]

(1) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 338.

(2) المرجع نفسه : ص 339

هذا الحرص الشديد على الروعة اللفظية والدلالية مستوحاة من قرآننا الكريم الذي نحرص عليه بكل ما لدينا من ماديات ومعنويات ونقدم في سبيله كل ما يجول في الخاطر ويتردد في النفس ويداعب الوجدان، فهذا الكتاب المقدس الحبيب على قلوبنا الغالي على كل مسلم صادق قد كثرت الدراسات حوله وتلاقت حلقات العلم والبحث لفهم آيه، "والتلذذ بذكره والاطمئنان بعبره،والتتلمذ على يده، والانتفاع بعظاته والأخذ بتوجيهاته،وهو ما شافع لتكيف اجتماعي في كل زمان ومكان ومن لدن نزوله على رسولنا الكريم صلوات الله عليه، إلى وقتنا الماثل يبهرون بأساليبه وألفاظه وصوره، ولا ينتهون إلى رأي في إعجازه،وهذا سر وجوده واهتمام الدارسين به على تقلب الأزمان وتعاقب الأجيال "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[(1)]

فكانت ألفاظه أداة فهم وتفاهم وتوصيل منافع للفرد والجماعة وكان تأثيره مناط الهدوء النفسي وعلاج القلق، والحيرة للإنسان والمجتمع، وإعجاز القرآن هو مقدار ما ينتفع به في حياة الفرد والمجتمع ومدى تذويب الصلابة الاجتماعية التي تعوق مسيرة الإنسان في هذه الحياة، وتبصيره بالطرق المؤدية إلى رضا الله سبحانه، هذا الإعجاز الذي يحوي على خصائص عديدة منها تفرعه إلى الإعجاز النفسي، العلمي، البياني"[(2)]

فالأول مختص بالرشاد والتوجيه النفسي، فالآيات تخفف آلام النفس الإنسانية، أما الثاني نرى فيه خلق الله سبحانه البديع في خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار والرياح...، والثالث فيه حديث طويل، ولكن ما يهمنا نحن هنا الطريقة البيانية التي بها أسس شيخ العربية وأستاذها عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" فتراه يتحدث بأسلوبه الأدبي الرائق الأخاذ عن الإعجاز البياني وعن تفانيه في رسم صورة لتعانق اللفظ مع المعنى، وهو ما يسميه بالنظم.وهذا النوع الثالث من الإعجاز هو الذي يشبع وجدانيات الناس وعواطفهم ونوازعهم،ومهما قيل في طبيعة الإعجاز القرآني فسيبقى شغل الأدباء والنقاد والعلماء والفقهاء في جميع العصور وكذا اختلاف الأمكنة.

وانطلق عبد القاهر من هذه النقطة استنادا على من سبقه لذلك، فقد استفاد ممن أتوا قبله من اللغويين والأدباء والنقدة في بحثه وتحديده لمعنى النظم بين اللفظ والمعنى، أين يحاول تعليل جمال الصور البيانية وكشف أسرارها على الدراسات البلاغية، "وهي كشف آثارها في جودة اللغة النفيسة ولكن هذا لا يدل على أن اطلاع عبد القاهر على البحوث التي سبقته لا تقلل من الجهود التي بذلها عن إعجاز القرآن، وأنه معجز بنظمه وتأليفه، وحديثه عن نظرية النظم

(1) سورة الحجر: آية 09.

(2) د/ محمد بركات أبو علي: دراسات في الأدب، دار وائل للنشر 1999-2000 ط1 ص 217.

حديث الفاهم لقضاياها وجزئياتها وهو الذي حدد معالمها وجعلها صورة أدبية واضحة إلى يومنا هذا، وعبر القاهر عن اشتراطه لجمال الألفاظ أن تكون "مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم، فلا يكون اللفظ وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا...أما الألفاظ يجب أن تكون حروف الكلمة أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد"(1) ،حتى تجد صداها إلى قلب المستمع فتبهره بسحرها وجمالها.

ومن أراد أن يسمع سر النظم وسحر الشعر ورقية الدهر ،ويرى صوب العقل وذوب الظرف،ونتيجة الفضل فليستنجد ما أسفره عنه طبع نجده ،وأثمره عالي فكره من ملح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها ،وتشرب بالقلوب لسلاستها:

قواف إذا ما رواها المشو ق هزت لها الغانيات القدودا

كسون عبيدا ثياب العبيد وأضحى لبيد لديها بليدا(2)

وفي مقدمة دلائل الإعجاز يعرف عبد القاهر النظم بأنه " تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(3) وتعلق حرف بهما، ويشرح التعلق شرحا وافيا،" ويؤكد أن نظم الكلام يقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس"(4) و" ليس النظم في مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها"(5) وخلاصة ما يقرره عبد القاهر من خلال نظريته في النظم:

1- أنه لا فضل بين الألفاظ ومعناها، ولا بين الصورة والمحتوى ولا بين الشكل والمضمون في النص الأدبي.

2- أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة ولا في مجرد المعاني والباحث عن الإعجاز عليه أن يتتبعه في النظم وحده.

3- أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه، وذوقه ووجوهه فيما بين معاني الكلم.

4- ولذلك أخذ عبد القاهر في مقدمة كتابه "دلائل الإعجاز" يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو مستنبطا الفروق بينها عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها وهذا هو هدفه الذي يريد.

5- اعتمد على الذوق الأدبي الخالص اعتمادا كليا في كل ما قرره من أحكام فنجده قال:"أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا النظر في الكتاب الذي وضعناه واستقصاء التأمل لما أودعناه وأنه الطريق

(1) د/ درويش الجندي: نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة 1960 القاهرة ص 234
(2) الثعالبي :فقه اللغة ،ص29.
(3) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 07 (مقدمة الكتاب).
(4) المصدر نفسه، ص 08.
(5) المصدر نفسه، ص 09- 10.

إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان"[1] ،والحقيقة الكاملة أن الجرجاني من خلال مقدمة كل من كتابيه ومن اجل فهم البلاغة العربية قـــام بالتأليف كما انه عمل على هدم النظريتين السائدتين آنذاك ، نظرية القائلين بأن بلاغة الكلام في اللفظ ونظرية القائلين بأن البلاغة في المعنى ليقيم على أنقاضها صرح نظرية جديدة في النظم "[2] تقوم على الأسس التالية:

1- الألفاظ تتبع المعاني وهي أوعية لها.

2- إن العقل هو الأساس في ترتيب الألفاظ.

3- العلاقة وثيقة وتامة بين النحو والبلاغة لأن الكلام هو نظم المفردات حسب ما يقتضيه علم النحو، وهذا وإذا كان الجرجاني قد تعرض للمصطلحات البلاغية السابقة في علوم البيان والمعاني والبديع، فقد كان يوجه هذه العلوم ليربطها بالنحو في نظرية متكاملة تعود إلى دمج العلوم اللغوية، لأن بلاغة اللغة في أساليبها ونظمها، ولذا لا يمكن فصل النحو عن البلاغة مهما كان.

فهذا التعدد في المواضيع ،هو ما يجعل القارئ والباحث يحمل بعض الإغراء في داخله من أجل فهم نظرية عبد القاهر، خاصة ما ورد من بعض الإشارات الغامضة في مقدمة الدلائل، "فهو يشير إلى أن كثيرا من الناس قد حرصوا على علم البيان الذي يساعد على إدراك الإعجاز في علم اللغة، وزاد سوء أن انتهى الحال بهم إلى أن زهدوا في النحو وفي الشعر كذلك، وهو يرى أن هذين الفنين –النحو والشعر- هما الدعامتان اللتان يستند إليهما علم البيان"[3],فعبد القاهر لم يترك جانبا يتصل بفكرة الإعجاز إلا وتناولها خاصة حين وردت هذه النقاط في مقدمته:

1- قضية الإعجاز وملابساتها حتى عصره، أي من العصر الذي اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم.

2- فتنة القول بخلق القرآن.

3- ماهية الكلام.

4- الإعجاز و النظم.

5-الحملة على نظرية النظم وموقف علماء الإسلام والعروبة إزاءها.

6-البيان وعلم اللغة.

(1) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 11.

(2) محمد عبد المنعم خفاجي: النقد العربي الحديث ومذاهبه، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة الأزهر ط 2 ص 59.

(3) د/ درويش الجندي : نظرية عبد القاهر في النظم، ص 10.

ويتحدث الباقلاني عن البيان مشيرا إلى أنه أربعة أقسام:كلام وحال وإشارة وعلامة،ولهذا فقد تضمن كتابه كثيرا من المواضيع البلاغية التي حددها سابقوه فوضع كثيرا من جوانبها بالرغم من أنه في كثير من الأحيان لا يقصد الجانب البلاغي قصدا،خاصة وانه متكلم على مذهب الأشاعرة المهتم بإعجاز القرآن لكريم أين يرى أن هذا الإعجاز يتمثل في:

1- ما تضمنه القرآن من أخبار عن الغيوب

2- أن في القرآن إجمالا لما حدث تاريخيا من أهم الأحداث منذ آدم عليه السلام حتى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

3- "أنه بديع النظم، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه و كذا يشرح ذلك بأن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتبيان مذاهبه خارج عن المعهود في نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم"(1).

وهو يرى أن الإعجاز القرآني لا يعرف إلا من جهة العربي الفصيح العارف للسان العربي أما الذي لا يعرف الفصاحة وأساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة فهو كالأعجمي فلا يعلم إعجاز القرآن إلا إذا علم أن العرب قد عجزوا عنه فهو لذلك أعجز، فقد وصف الباقلاني البلاغة ذكرا لأقسامها المعروفة كالاستعارة والتلاؤم والإيجاز والتجانس والتصريف شارحا هذه الأنواع ومستشهدا بذلك بأمثلة من القرآن والشعر العربي فقال:" إن التلاؤم هو تعديل الحروف في التأليف وهو نقيض التنافر الذي هو كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر(2)

والقاضي الجرجاني في الوساطة، ورغم قلة جذور البلاغة فيه، لأنه في الحقيقة كتاب نقد بالدرجة الأولى، ذلك أن نقده الأدبي جاء وفق أسس بلاغية، فنجده يفرق في مقدمته بين الاستعارة والتشبيه حين قال:" وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أم مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس:

والحب ظهر وأنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا(3)

ويرى القاضي أن من التشبيه ما هو عام مشترك لا انفراد فيه ومنه نوع آخر هو الذي يسبق إليه البعض، ولكنه يتداول فيما بعد فيصبح كالأول، خاصة وأن التفاوت و التفاضل بين كفتي اللغة هي اللفظ و المعنى،وعند تعرضه للبديع من جناس وقسمه أقساما كالمطلق والمستوفي والناقص والمضاف مع ضرب أمثلة لكل صنف،وهو بذلك يعده-البديع-

(1) عبد الرؤوف مخلوف: إعجاز القرآن للبا قلاني،ص14-16.
(2) المرجع نفسه ، ص 15.
(3) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 29.

براعة الاستهلال والتخلص والخاتمة، كما ذكر من فنون البديع والالتفاتات وهذا كله كان "زادا للباحثين في النقد والبلاغة بعده"(1)

في حين عرف قدامة البلاغة تعريفا جديدا فقال:"وحدها عندنا أن القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان"فنجده كذلك قد تعرض إلى التشبيه والاستعارة والكناية مستفيدا بما تركه الجاحظ والمبرد،واهتم بالبديع بعد ابن المعتز رغم أنه لم يقصد لهذا العلم قصدا، فنجده يتفق في حديثه عن البديع مع ابن المعتز مع اختلافه معه في التسمية فما يسميه ابن لمعتز الاعتراض يسميه قدامة التتميم، كما أنه أضاف أنواع جديدة مثل الترصيع والإشارة والتمثيل والتصريع..."

ومن خلال نفس الهدف بنى الآمدي مقدمته مستعينا بالبلاغة وأسس لأفكاره النقدية وموازناته على أساسها، فكان منهجه قريبا من مناهج النقد الحديث فهو لا يسارع إلى الحكم والتفضيل ولكنه يوازن بين القصيدة والقصيدة لكل من الشاعرين والحكم أيهما هو الأشعر، فتعرض إلى موضوع الإسراف في البديع فنجده يعيب على أبي تمام المغالاة وإعمال الذهن في الصنعة الشعرية أين يصبح البديع عنده غرضا مقصودا لذاته، كما اخذ عن أبي تمام فصول المقدمة تعقيده اللفظي وسوء نظمه ومجيئه بالكثير من حوشي الكلام ويضرب لذلك بقول أبي تمام: **خان الزمان أخا خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد**

ونجده لم يفرط في ذكر أقسام البلاغة بما تحتويه من استعارة مكنية وتصريحية وغيرها...

أما أبو هلال العسكري فقد فضل الحديث في أول مقدمته على أهمية علم البلاغة، ويرى أن هذا العلم من أحق العلوم بالتعلم لأنه به يعرف إعجاز القرآن "أنه يأخذ على مؤلفات سابقيه تخليطهم فيما يتعلق باختيار الكلام، فالجاحظ في البيان والتبيين، رغم أهمية الكتاب في ميدان البلاغة، كانت البلاغة وأقسام البيان ضالة عنده بين الأمثلة التي لا تعرف إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير "(2)

وفي الوصل أبرز أبو هلال قيمته البلاغية، وضرب لذلك أمثلة من أقوال البلغاء مثل قولهم: قال الخليفة المأمون لبعضهم من أبلغ الناس، فأجاب المسؤول بكلام طويل ختمه بقوله:"فإن البلاغةإذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والفصل كانت كاللآلئ بلا نظام، وفصل العسكري في علم البيان القول في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتعريض جاعلا إياهما أمرا

---

(1) أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية،ديوان المطبوعات الجامعية ،بن عكنون الجزائر،1995 ص 165

(2) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص 4 و 5 .

واحدا، هذا وقد خصص للبديع هو أيضا بابا فشرحه وبين أنواعه وفنونه فقال: وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع:التشطير،المحاورة، التطريز و المضاعف، الاستشهاد والتلطف"[1]

ويمكن تلخيص جهد العسكري في ميدان البلاغة بما يلي:

1- الإلمام بما وضع وعرف في فنون هذا العلم وقضاياه حتى عصره.

2- جمع ما تفرق في موضوعات البلاغة في مكان واحد لكل موضوع مع الترتيب والتنظيم.

3- التمثيل وإدراج الشواهد من الشعر والنثر مع الشرح والتعليق.

4- إغناء هذا العلم بما اكتشفه واهتدى إليه بنفسه.

هذا غرض أبي هلال(ت395هـ) من مقدمته، والبلاغة عنده لا تدرس إلا للاهتداء بها إلى إثبات إعجاز القرآن"، وهكذا تنتهي عنده إلى غرض كلامي اعتقادي، والحق أن القضية هذه –الإعجاز- قد أثرت تأثيرا كبيرا في توجيه التأليف في البلاغة وتكوين الآراء في حسن الكلام، كما أن لها الفضل الأكبر في ظهور مؤلفات بلاغية بعينها"[2]

فهذه إلمامة بقضية الإعجاز والكتب التي ألفت حولها قبل أبي بكر الباقلاني، وعلى طول المدى كان القرآن من بين الآثار العربية،شعرها ونثرها،هو الدافع الأول إلى تدارس اللغة العربية من حيث خصائصها الفنية،لتستبين منزلته ومكانته،وأنه منها في المحل الأسمى وقبل أن نقرأ مقدمته في النقد الأدبي لا يشفع صاحبه فيه بالقرآن الكريم,وأنه من أجل إثبات إعجازه قد ألف مل ألـف وذلك أثر من آثار هذه المقدمات وهي تحذو آثار الكتاب الكريم على تلك اللغة التي حظيت بأن جاء بها هذا الإبداع والتأليف.وإذا صح هذا أساسا لدراسة الأدب فقد كان لابد لعبد القاهر أن يجعل الكشف عن مميزات هذه الدراسة البلاغية،كون أن المقدمة والمتن يعتبران عالمين متصلين،ومثلهما اللغة والفكر في الفلسفة.

هذا المنهج الذي يفسر القيمة في الأدب بما يكون بين اللغة من علاقات هو المنهج الذي تتلقى فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن"[3] وفي هذا يقول هيوم في تأملاته:" مهما يستعمل الكاتب من كلمات فإنه يفيد أكثر ما يمكنه من تاريخ تلك الكلمات، ومن الاستعمالات التي جرت فيها، فهذه المعرفة تسهل عليه إعطاء الكلمة حياة جديدة..."[4] وهذا هو قصد علم البلاغة في ربط أسس وأدوات الفهم والإفهام لإيصال الرسالة إلى أصحابها سالمة واضحة مقنعة.

---

(1) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص 267.

(2) عبد الرؤوف مخلوف: إعجاز القرآن للبا قلاني ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1973، ص 53.

(3) محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي والبلاغة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 371.

(4) المرجع نفسه، ص 181 -182.

ويمكن القول أن شعرية الكتابة انطلقت في الأساس من خلال الشعرية الشفوية ذاتها، كان أصحاب هذه القراءة يقرأون النص القرآني بوصفه نصا كونيا روحيا وفكريا، فلم يكن بالنسبة إليهم فطرة وحسب وإنما كان أيضا ثقافة ورؤية فكرية شاملة، فلئن كانت لغة القرآن نبوية أو إلهية من جهة كونها وحيا , فإنها في الوقت نفسه شعرية من حيث أنها هي نفسها لغة الشعر الجاهلي."(1)

وبهذه القراءة وفي مناخها صاغ الجرجاني مبادئ الشعرية الكتابية، فيما كان يصوغ نظرية النظم القرآني وكان قد مهد لها بعض النقاد خصوصا الصولي (ت 336هـ)، ومن هذا المنظور يمكن القول أن النص القرآني الذي نظر إليه بصفته نفيا للشعر بشكل أو بآخر, هو الذي أدى على نحو غير مباشر إلى فتح آفاق للشعر, غير معروفة ولا حد لها والى تأسيس النقد الشعري بمعناه الحق". (2) فنجد الجرجاني يعطي لهذه القضايا وبخاصة شعرية الكتابة شكلا نقديا متكاملا كما عرفنا في مقدمته "لأسرار البلاغة " و" ودلائل الإعجاز " فهو يرى أن النظم هو الأساس في الكشف عن شعرية الكتابة أو النص من خلال تعريفه للنظم وشرح معانيه بدقة، وهو من خلال ذلك يبرز العلاقة الوطيدة الموجودة بين اللفظ والمعنى اللذان لا يمكن الفصل بينهما في أي عمل أدبي.

ويتجلى لنا في ضوء ما تقدم، أن جذور الشعرية العربية خاصة شعرية الكتابة عامة كامنة في البيان القرآني، من حيث أن الشعرية القديمة تمثل القدم الشعري وأن الدراسات القرآنية وضعت أسسا نقدية جديدة في دراسة النص بل ابتكرت علما للجمال، جديدا ممهدة بذلك لنشوء شعرية عربية جديدة، وبهذا تصبح الشعرية كما يعبر الجرجاني " ضربا من الفتنة " كما يعبر أيضا " أنها كيمياء تعطي الشبهة سلطان الحجة، وترد الحجة إلى صيغة الشبهة... وتفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ما ترى به الكيمياء... إلا أنها روحانية تتلبس بالأوهام والأفهام، دون الأجسام والأجرام". (3)

وهذه الخصائص هي التي جعلت منها نظرية جوهرية للأدب ،لما تضيفه من دلالات وجماليات فتظهر خصائصه وبنياته بطريقة مميزة تمتزج فيها اللغة والبيان وباقي القضايا التي سنعرضها في الفصل التالي .

---

(1) محمد زكي العشماوي :قضايا النقد الأدبي والبلاغة ، ص 42.

(2) المرجع نفسه، ص 42 – 43.

(3) المرجع نفسه، ص 317 – 318.

الفصل الثالث

القضايا النقدية في المقدمات

1- تقسيم الشعراء إلى طبقات
2- اللفظ والمعنى
3- الطبع والصنعة
4- المنظوم والمنثور
5- القدم والحداثة
6- الإنتحال
7- اللحن

العناصر / المقدمات	اللفظ والمعنى	الطبع والصنعة	الانتحال	اللحن	النظم والنثر	القدم والحداثة	تقسيم الشعراء إلى طبقات	المجموع
طبقات فحول الشعراء			x	x			x	3
الشعر والشعراء	x					x	x	3
أدب الكاتب				x				1
عيار الشعر	x				x			2
شرح ديوان الحماسة	x	x			x			3
نقد النثر	x							1
الوساطة	x					x		2
الموازنة	x	x						2
شرح المعلقات السبع							x	1
شرح القصائد العشر							x	1
جمهرة أشعار العرب	x						x	2
عيون الأخبار	x			x		x		3
الأمالي	x							1
الأغاني				x				1
صبح الأعشى في صناعة الإنشا	x							1
منهاج البلغاء وسراج الأدباء	x			x				2
الموشح	x	x						2
الصناعتين	x	x						2

العناصر / المقدمات	اللفظ والمعنى	الطبع والصنعة	الانتحال	اللحن	النظم والنثر	القدم والحداثة	تقسيم الشعراء إلى طبقات	المجموع
العمدة	x	x						2
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر	x	x						2
الفلك الدائر على المثل السائر	x	x						2
أسرار البلاغة	x	x						2
دلائل الإعجاز	x	x						2
الحيوان	x							1
البيان والتبيين	x	x						2
الكامل	x			x	x			3
الخصائص	x							1
الإمتاع والمؤانسة	x	x						2
فقه اللغة	x							1

جدول إحصائي لأهم القضايا التي تتكون منها المقدمة

تقسيم الشعراء إلى طبقات:

إن فكرة تقسيم الشعراء إلى طبقات سعى إليها العديد من الكتاب والمؤلفين، و اشتهرت هذه الطريق عند ابن سلام وابن قتيبة، ومن خلال كتابيهما المعروفين وقد بنى كل منهما عنوانه على فكرة الطبقات وتقسيم الشعراء الجاهليين، وكما سبق الذكر أن ابن سلام ذكر من شعراء الجاهلية العشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء، ثم أتبعهم بذكر ثلاث طبقات أخرى هي طبقة أصحاب المراثي وطبقة شعراء القرى العربية وطبقة شعراء اليهود،ثم جعل شعراء الإسلاميين في عشر طبقات أخرى، منتهيا بذلك إلى أواخر العصر الأموي، ولم يلق بالا إلى من نشأ بعدهم من شعراء عصره.

فاعتمد بذلك ابن سلام في طبقاته على الناحيتين التاريخية والفنية، وقسم الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين، وصنفهم حسب ذوقه وإجادة وكثرة كل شاعر، ثم قسم كل فئة منها إلى عشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء فحول، يشتركون في بعض الخصائص الفنية."(1)

لابد لمن يطالع هذه القسمة من أن يتساءل، على أي الأسس أقام ابن سلام هذا التمييز والتدريج؟ يبدو أن الفحولة هي الأساس الأول في ذلك، فكل من ذكرهم في كتابه شعراء فحول، أما الأساس الثاني فهو تقارب كل أصحاب طبقة في أشعارهم. والكتاب كما يدل عليه عنوانه موضوع "في طبقات الشعراء، فالتفاضل بينهم وإنزال كل في المنزلة التي تلائمه هو أساسه وقوامه ودعامته الكبرى. وخاصة أن فكرته الأساسية كانت حول الشعر الموضوع الذي يضاف إلى الجاهلين وليس الجاهليين، وتحتل الجاه الأعظم مما يتصل بالنقد الأدبي في مقدمة كتابه، خاصة وهو يعيب على محمد بن إسحاق صاحب السيرة أنه هجن الشعر وأفسده وأورد في كتابه أشعار لرجال لم يقولوا شعرا قط، ونساء لم يقلن شعرا قط، بل أورد أشعارا لعاد وثمود، فكيف يبطل ابن سلام هذا الشعر؟ وكيف ينفيه؟ بأدلة أربعة" (2):

1- دليل نقلي وهو القرآن الكريم، فالله عز وجل قال:« **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى**»

ويقول في عاد: « **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** » ويطرح ابن سلام السؤال من حمل الشعر إذن.

2- فبرهن أن اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد، وليس يصح في الأذهان أن يوجد شعر بلغة لم توجد بعد، فأول من تكلم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم كما يقول ابن سلام، وإسماعيل كان بعد عاد.

---

(1) د/ زبير دراقي: المفيد الغالي في الأدب الجاهلي، ص 122.
(2) ابن سلام: طبقات الشعراء، مقدمة الدارس، ص 20.

3- ويمعن ابن سلام في الدقة، فيذكر أن عادا من اليمن، وأن اليمانيين لهم لسان آخر في هذا اللسان العربي ويستدل بذلك بقوله: " ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا."

4- وأخيرا يطعن ابن سلام هذا الشعر في الصميم برجوعه إلى تاريخ الأدب وعهد وجود القصيدة في الشعر العربي، وذكر بعض الشعراء الذين ازدهر الشعر بهم، فقال: " ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع."[(1)]

فإذا ادعى ابن سلام أن هناك شعرا موضوعا، وبرهن على تلك الدعوة تلمس أسباب وضع هذا الشعر، والبواعث التي حملت الناس إلى أن يضـــيفوا إلى الجاهليين ما لم يـقولوه، وهــو يرجع ذلك إلى سـببـين:

1) العصبية في العصر الإسلامي، وحرص كثير من القبائل العربية على أن تضيف لإسلامها ضروبا من المكانة والمجد، وهذا المجد سجله النقد وديوانه الشعر.

2) الرواة وزيادتهم في الأشعار، ولم يذكر ابن سلام ما حملهم على ذلك، ولكنه يكتفي بذكر مثالين للرواة المتزيدين: داود بن تميم وحماد الراوية."[(2)] وإذا احتكمنا اليوم إلى مقاييسه النقدية لم نجد شعر الأعشى وزهير والنابغة شبها كبيرا، وترددنا في أن أبا ذؤيب الهذلي مع النابغة الجعدي في طبقة واحدة، كما فعل ابن سلام للتباين بين الشاعرين وأشعارهما، ويمكننا القول انه كانت له صور موجزة في تاريخ النظرية النقدية، ومنها يتضح لنا كيف عاد إلى المبادئ القديمة فمنحها شكلا جديدا، ووسع فيها أو غير بعض التغيير في مدلولها، وحاول أن يخلق نظاما جديدا لدراسة الشعراء، فكانت بذوره موجودة في الصراع حول الأربعة الكبار من شعراء الجاهلية، والثلاثة الكبار-جرير-الفرزدق- الأخطل-من شعراء الإسلام، ولكن المؤلف لم يتجاوز من التصنيف العام وبعض الأحكام الموجزة على شكل شاعر"[(3)]

ولهذا فإن النظريات أو فكرة الطبقات جليلة حقا، ولكنها تظل قوالب إذا هي لم تعتمد الدراسة التحليليـة وتبيـان الأسس المشتركـة والسمات العالية، ومن ثم كانت نظرية صعبة آثر النقاد ومؤرخو الأدب من بعد تحاشيها فرارا من تلك الصعوبة.

---

(1) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 35 (المقدمة).
(2) ابن سلام: طبقات الشعراء، (مقدمة الدارس طه أحمد إبراهيم، ص 18).
(3) د/ إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن، دار الثقافة بيروت، لبنان ط1، 1978، ص 82.

وربما هذا يعطيه الحق في رسم أفكاره بالصورة التي يراها هو, باعتباره يعد من أوائل الذين تناولوا قضية الشعر والنقد بالشرح والدرس، ومحاولة الوصول منها إلى رأي يوضح مفهومها، ذلك أن صناعة الشعر إنما تكون في قدرة الشاعر على نظم قصائده على درجة من الحسن والإبداع،أيضا بإتباعه الأصول المتفق عليها في هذا المضمار الشعري بما لديه من ذوق فائق وثقافة عالية وتمكن في الأداء وعلى نفس المستوى، يعني بهذا الناقد أيضا ذلك الخبير بتلك الصناعة ، علما بما لديه من مهارة وثقافة ودربة بوقائعها، ويكون بذلك أن أهل العلم هنا هما الشاعر والناقد وقد جعل من الشعر علما أو لعله يقصد أهل الذوق، فعلم الشعر عماده الأول وأداته هو الذوق.

ويعد ابن سلام أول من أفرد الناقد بدور خاص حين جعل للشعر صناعة، وقد راح يؤكد على أهمية ثقافة الناقد ويحث عليها عن طريق معايشته الدائمة للأدب، حتى يستطيع التمييز في الشعر والأدب بين ما هو جيد ورديء، وبهذه الوسيلة فقط يتكون لديه ذوق أدبي راق ينبع من شعوره تجاه الآثار الأدبية إلى جانب استعداده الخاص."[(1)] وبذلك تعد فكرة إنزال الشعراء طبقاتهم دلالة على نظم الأفكار والآراء التي تحدث عنها سابقوه محاولا ابن سلام بهذه الطريقة أن يصبغها بصبغة البحث العلمي، حتى وإن كانت هذه الفكرة قديمة إلا أنه استطاع أن يجعلها تحمل معنى الجدة والتناسب خاصة في الترتيب الذي قام به أين جعل أولى طبقاته زهيرا والنابغة وامرئ القيس والأعشى، وهم يمثلون بذلك طبقة واحدة، إلا أن الاختلاف في كل واحد منهم ما زال قائما في نظر عديد من النقاد، وهذا راجع طبعا إلى أسلوب ومهارة كل شاعر منهم.

وما وجدناه أيضا أن ابن سلام في طبقاته نراه معتمدا تماما بالكثرة والتنوع، وذلك أن هذه الفكرة أساسا هي وليدة التطور النقدي في القرن الأول هجري، حين بدأ الناس يفاضلون بين الشعراء وظهرت العصبية لكل شاعر حسب قبيلته ومجموعة من عشاق فنه، وفي تقسيمه للشعراء كثيرا ما يذكر لنا الكاتب رأيه ورأي من سبقه فيما أحسن وفيما لم يحسن ويوازن بينهم كما قال: " كان لكثير في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه في النسيب، والشماخ بن ضرار كان شديد متون الشعر أشد أسرا في الكلام من لبيد، وفيه كزازة، ولبيد أسهل منه منطقا."[(2)]

فالجودة الفنية كانت طريقته في عرض قصائد الشعراء، حتى أنه قد صدر منه في بعض الإشارات في وصف فن الشاعر الجاهلي، ولكنه في نفس الوقت لم يفتح مجالا للعباسيين في مقدمته، وهذا جاريا مع ذوق اللغويين المحافظ الذي لم يعتد بالشعر المحدث وذكر الممتازين من الشعراء ولا غير.

(1) د/ نجوى محمود صابر، الذوق الأدبي وتطوره حتى القرن الخامس هجري، ص 65.

(2) ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 25.

دون أن ننسى أفراده بابا خاصا لشعراء أصليين انفردوا بفن بذاته وقصدوا إليه بدافع ذاتي وهؤلاء هم أصحاب المراثي: متمم بن نويرة، الخنساء، أعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي ولقد فطن ابن سلام بذوقه الأدبي السليم إلى أن هؤلاء الشعراء إنسانيون قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد، فجاءت مراثيهم ليست مدحا للميت فحسب ولكن ألما مخلصا وأسى صادقا على ذويهم الذين فقدوا...

كما أن فطنته لبعض المؤثرات في الشعر من أمثلتها البيئة الاجتماعية، فهو يعلل سهولة شعر عدي، بأنه كان يسكن الحيرة ومركز الريف، فكان لذلك لين اللسان، سهل المنطق وكتعليله قلة الشعراء بالطائف، فإن الشعر إنما يكثر بالحروب إلى غير ذلك..."[1]

وبنفس الطريقة والمنهج، قسم ابن قتيبة الشعراء وبحسب ذوقه واختياره، وهذا الذوق الخاص للفقيه الذي درس كثيرا من العلوم جملة، " فهو يقسم الشعر إلى تقسيمات منطقية أربعة، ويتعامل مع الشعر على أنه قسمان منفصلان معنى ولفظا، فهو أحيانا يوافق على المعنى، ولكنه يرفض الألفاظ التي عبرت عنه لقصورها عن أداء المعنى أو العكس."[2]

فقسم شعراؤه قسمين: شعراء متكلفين وآخرين مطبوعين: أين يوضح لنا بنفسه حينما قال: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباهها من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك، وكان زهير يسمي كبر قصائده الحوليات."[3]

من خلال هذا القول نجد انه قسم الشعراء نوعين فبين أن الشاعر المتكلف لا يخرج عن كونه ذلك الشاعر المجود المنقح الذي يعيد النظر في شعره مرات ومرات حتى يستوي على عوده فتخرج لنا أبيات فيها من الصنعة المتقنة الجيدة التي لا قصور فيها إلى هذا الحد نرى ابن قتيبة قد وضع لنا تعريفا للشاعر المتكلف والشاعر المطبوع والفرق بينهما بما لا يدع أمامنا أي احتمال بالخلط والتيه.

كانت هذه هي المقاييس الذوقية العامة التي اعتمدها النقاد العرب عند الحكم على الشعراء ساروا عليها جيلا بعد جيل، وجاء ابن سلام وابن قتيبة فحاولا أن يأخذا بناصيتها عند إنزاله الأول لطبقات فحول شعرائه، وتقسيمه الثاني أبطال شعرائه، ونحن نعرف أن كل شاعر ممن اختاروهم ضاربا بالحظ في هذه المقاييس الذوقية العامة، خاصة وإن آثر الذوق العام أربعة أغراض للشعر:

(1) د/ نجوى محمود صابر، الذوق الأدبي وتطوره حتى القرن الخامس الهجري، ص 69.
(2) المرجع السابق، ص 89.
(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 68 – 69.

النسيب والفخر والمديح والهجاء،لأنها تعد النجاح بعينه الذي يقوم الشاعر إلى الفوز بلقب أو الحصول على إعجاب النقاد،وبالتالي يكون في المراتب الأولى من المصنفات والطبقات بشرط أن يكون هذا الشعر جيدا غزيرا ومتنوعا في أغراضه وفنونه،ويلقى الاهتمام الكامل من المتلقين دلالة وجمالا.

أما أبو زيد القرشي (ت 170 هـ) فقد احتفظ لنفسه منهجا في تقسيم طبقاته وشعرائه وأيضا في تصنيف القصائد المختارة فقسمها إلى سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد وقد جعل هذه الأقسام مندرجة مع طبقات الشعراء الجاهلية إلى العصر الأموي، ذلك أن كتابه الجمهرة يتفق مع المفضليات والأصمعيات، في أنه يقوم على اختيار القصائد العيون من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي، ولكنه يختلف من عدة نواح كما فعل ابن سلام في طبقاته وابن قتيبة كذلك.

فالقسم الأول يختص بالطبقة الأولى، والثاني بالثانية وهكذا حتى القسم السابع، وقد أطلق القرشي على كل مجموعة من القصائد اسما خاصا تمثل طبقة من الطبقات مثل: الطبقة الأولى سميت: أصحاب المعلقات والثانية أصحاب المجمهرات ...وما نلاحظه في تقسيم أبي زيد أنه لم يرتب شعراء كل طبقة للأهلية أو الأفضلية فشعراء المعلقات مثلا هم في درجة واحدة من الفحولة وإن تباينت الآراء حولهم ونفس الشيء بالنسبة لسائر الشعراء في كل مجاميع الجمهرة، كما أنه لم يعتمد الكم أساسا في اختياره فنحن نرى في عداد المجمع الواحد أصحاب المطولات وأصحاب القصائد المتوسطة، كما يتضح لك إذا أنت استقصيت عدد أبيات كل قصيدة في مجمعها أو بالقياس إلى سائر المختارات."(1)

نفهم ذلك من خلال المقدمة التي قدم بها القرشي مجموعته، حين قال في مستهلها "هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، الذين نزل القرآن بألسنتهم واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد في معاني القرآن وغريب الحديث من أشعارهم، وأسندت الحكمة والآداب إليهم، تأليف أبي زيد القرشي...وبعد فهم فحول الشعراء الذين خاضوا بحره، وبعد فيه شأوهم، واتخذوا له ديوانا كثرت فيه الفوائد عنهم،ولولا فهم ذلك،أن الكلام مشترك لكانوا قد حازوه دون غيرهم فأخذنا من أشعارهم،إذ كانوا هم الأصل عزرا هي العيون من أشعارهم، وزمام ديوانهم، ونحن ذاكرون بكتابنا هذا ما جاءت به الأخبار والأشعار المحفوظة عنهم، وما وافق القرآن من ألفاظهم، وما روي عن رسول الله (ص) في الشعر والشعراء، وما جاء عن أصحابه والتابعين من بعدهم، وما وصف به كل واحد منهم، وأول من قال الشعر، وما حفظ عن الجن..."(2)

(1) د/ عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية، ص 83.
(2) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، (مقدمة الكتاب)، ص 09.

وهو في هذا التقديم، يبين لنا سبب اقتصاره في الاختيار على الشعر القديم، وهو أن هذا الشعر هو الأصل، وأن من جاءوا بعد من الشعراء كانوا مضطرين إلى الاختلاس من محاسنه، ولعله في هذا كان ما يزال متأثرا بما أورده في صلب المقدمة رغم إيجازها من أن أبا عبيدة قال عنه، أنه فتح الشعر بامرئ القيس وختمه بذي الرمة. "وهو في الفقرة الثانية يشير إلى بعض الموضوعات التي عالجها في صلب المقدمة، وقد قيد القرشي نفسه باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر من الطبقات السبع، فكان مجموع المختارات إذن تسعا وأربعين قصيدة لتسعا وأربعين شاعرا."[1]

ومن خصائص التأليف عنده أنه اتبع النظام السباعي في عرض طبقاته بخلاف أبي سلام الذي اتبع النظام الرباعي لقصائده، وهو مذهب اختص به القرشي كذلك واتبعه كمنهج رتب عليه كل أفكاره ومضامينه الشعرية من أجل الكشف عن القيم الفنية لتلك الشخصيات التي عرضها والتي تميز كل شاعر عن الآخر وتبرز طاقاته الإبداعية كل حسب ذوقه وحسن قوله الشعري ودلالاته الجمالية والبنيوية في توحيد عناصر الكلم لفظا ومعنى.

وعلى الرغم من بروز فكرة التصنيف الفني فيها وفقا لمنهج معين، وبالرغم من هذه المقدمة النقدية التاريخية التي قدم بها المؤلف هذه الجمهرة، وما يزال هناك مجال للمراجعة والمؤاخذة وبعد النظر وصحيح أنه عرض في مقدمته لما كان من أمر تفضيل كل شاعر مما ذكرهم، فروى عن كل منهم بعض ما قيل في تفضيله، وكلها أقوال سريعة مبتسرة لا تدل على شيء في بعض الأحيان كمثل قوله: (وقيل: أن الفرزدق قال: امرئ القيس أشعر الناس، وقال جرير: النابغة أشعر الناس)"[2]

وعلى كل حال، يظل للجمهرة على ما هي عليه، وجوه ينتفع بها، فهي التي تضمنتها تلك القصائد التسع والأربعين كاملة تضمنت مقدمتها أمورا تسعف الباحث في عدة مجالات من بينها.

أولا: فيما يتعلق باستخدام القرآن الكريم ألفاظا وتراكيبا استخدمها الشعراء من قبل، ومثال ذلك قول الربيع بن زياد العبسي: **فإن طبتم نفسا بمقتل مالك فنفسي لعمري، لا تطيب بذلكا**

فأوقع لفظ الجمع على الواحد، وقال تعالى: " **فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ**."[1]

ثانيا: فيما يتعلق بتصور القدامى لأولية الشعر العربي وما صحب ذلك من روايات شعرية مختلفة وأحاديث ملفقة.

ثالثا: فيما يتعلق بالروايات التي تصور موقف الرسول عليه السلام من الشعر.

رابعا: فيما يتعلق بتصور العرب القديم لشياطين الشعراء، وما يتصل بذلك من أقاصيص.

(1) د/ سعد سليمان حمودة: دروس في المكتبة العربية، ص 16.
(2) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، (مقدمة الشارح عمر فاروق الطباع)، ص 07.
(3) سورة النساء: الآية 04.

خامسا: فيما يتعلق بأنواع الأحكام النقدية على الشعر في المراحل الأولى وحتى الجيل الأول من الرواة العلماء مع أطراف من الأخبار المتعلقة بحياة شعراء المعلقات بخاصة.

وبالتالي فقد اعتمد القرشي في تصنيفه للجمهرة على الجودة الفنية، أين انتقى من خيرة أشعار العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ما يراه هو محتاجا إلى الظهور والاهتمام، فرتب شعراؤه ترتيبا فنيا لا أبجديا أو تاريخيا، لأن كل اعتماده كان مقدار شاعريته وخبرته الأسلوبية والدلالية وأيضا الجمالية في نفس الوقت."[1]

وبالرغم كذلك من أن أبا زيد، قد اختط لنفسه منهجا غير دقيق في اختيار قصائده على أساس مستوى الجودة الفنية لهذه الإبداعات، وتقيده باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر حتى يحافظ على تقسيمه السباعي، وكان له مبررا موضوعيا لسلوكه، هذا المسلك في ترتيبه طبقات شعرائه على هذه الوتيرة من الترتيب يمكن فيما روى عن المفضل من حديث قال فيه: " وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون بعد حديثهم عن المعلقات السبع، إن بعدهن سبعا ما هن دونهن، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا وهن المجمهرات."[2] فربما هذه التسمية قد حددت وتداولت بين علماء الأدب ورواة الأشعار قبل القرشي، وأنه إنما كان له فضل لمها في كتاب واحد. أين نجد القرشي يؤكد على ذكر المجموعات السبع بأسمائها قال: " فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ونفس شعر كل شاعر منهم."[3]

وهكذا قد صدر القرشي مجموعة هذه المقدمة الغير قصيرة، جمعت بين الغث والسمين والصواب والخطأ، إذا نسب شعرا إلى سيدنا آدم، ونسب شعرا إلى إبليس، وشعرا ثالثا إلى العمالقة ورابعا إلى الشياطين،ويبدو أنه كان في هذا متأثرا بابن إسحاق صاحب السيرة الذي كان يهتم برواية الأشعار، ورغم أنه يضع المؤخرات التي تؤخذ على المؤلف في منهجه الذي ارتضاه في ترتيب طبقاته على نحو ما عرضنا لبعضها أنفا، نقول بأن لهذه التأليفات وخاصة مقدمتها الجليلة والتي ينتفع بها كل باحث متحمس لكشف القيمة الأساسية لهذه الإبداعات الشعرية التي ستظل دائما ورغم مرور الوقت عليها أنفس ما قيل ويقال من أدب القدماء الرفيع المستوى.

---

(1) د/ زبير دراقي، المفيد الغالي في الأب الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر 1994 ص 123.
(2) د/ سعد سليمان حمودة: دروس في المكتبة العربية، ص 16 - 17.
(3) الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، (مقدمة الشارح عبد السلام الحوفي) ص 05.

المعلقات والقصائد الطوال: شرحها وتحليلها:

أجمع أهل الأدب على أن أبلغ شعر قيل في زمن الجاهلية القصائد الطوال المسماة بالمعلقات، وقد اختلفوا في وجه تسميتها بذلك، فذهب جمهورهم إلى أنها سميت بالمعلقات لأن العرب علقوها بأستار الكعبة إعجابا بها وإكبارا لشأنها، قال ابن عبد ربه في عقده: " لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له ان عمدت إلى سبع قصائد، خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال مذهبه امرئ القيس ومذهبة زهير، والمذهبات وقد يقال لها المعلقات."[(1)]

وقال ابن خلدون، أن الشعر كان ديوان العرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم، وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم في ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام..."[(2)] أما البغدادي فقد قال رأيه في كتابه خزانة الأدب: " ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج، وان استحسنوا روي وعلق على ركن من أركان الكعبة، وامرئ القيس أول من علق شعره في الكعبة في ذلك الوقت."[(3)]

فالتبريزي(ت502هـ)ومن خلال مقدمته الموجزة التي ذكر فيها تلخيصه في شرح القصائد العشر، بعد أن كانت سبعة فأضاف إليها قصيدة النابغة والأعشى وعبيد بن الأبرص تمام العشر ذاكرا: " أن الشروح التي طالت بإيراد اللغة الكثيرة والاستشهادات عليها والغرض المقصود منها معرفة الغريب والمشكل من الإعراب وإيضاح المعاني وتصحيح الروايات وتبيينها مع جميع تلك الاستشهادات التي لابد منها من غير تطويل يمل ولا تقصير بالغرض يخل."[(4)]

هذه القصائد التي رتبها حسب ذوقه ومعرفته بحسب طبقات شعرائه وهي طريقة كما رأينا اعتمدها أدباء العرب معظمهم والاختلاف يكمن فقط في ذلك الترتيب وكذا التصنيف، أما التبريزي فرأى أن يقسم قصائده ويشرحها للقارئ شرحا وافيا ليستوعبها جيدا، ويساعد الباحث على الالتماس بها والاعتماد عليها عند الحاجة، من دون إخلال بما يجب إيراده مع الاختصار الذي يعد من خصائص الكتابة المتميزة، وهي أسلوب حذاه كل كتابنا وأدبائنا فأحسنوا، متبعين أسس البلاغة الوافية أو لم يقال أن البلاغة هي الإيجاز وأن كل ما قل دلّ، ففي كثير من الأحيان

(1) المصدر نفسه، ص 06.
(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 35.
(3) الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، (مقدمة الشارح عبد السلام الحوفي) ص 06 - 07.
(4) المصدر نفسه، (مقدمة الكتاب)، ص 10.

يكون التلخيص مع الشرح الكافي المختصر، هو السبيل إلى فهم هذه الأعمال الأدبية بمختلف اتجاهاتها وبناها ونضمها ونثرها،حتى يتم استيعابها استيعابا دقيقا، يحيلنا إلى معرفة القيمة المعيارية والدلالية الكلية لهذه المعلقات الشهيرة، والتي كان لها صداها في نشر تلك الأهداف والأعمال الخالدة حتى عصرنا هذا، دون أن تفقد مكانتها وأهميتها الجمالية الفنية.

وبنفس النظرة والموقف، نظر الزوزني إلى هذه الأعمال الأدبية ودعا إلى الأهمية التي تبرزها، خاصة إذا عرف الناقد والأديب والشاعر بلاغة هذه الرسالة التي تحمل في طياتها العديد من الأهداف والأطروحات القيمة، فالزوزني الذي عد من محللي الشعر العربي وهو الإمام الأديب أبي عبد الله الحسين ابن الحسين الزوزني **(ت486 هـ)**له شرح المعلقات السبع، وقد أملى شرحه لهذه القصائد على حد الإيجاز والاختصار، فجاء شرحه ملائما لطلاب العلم، محققا لأغراضهم من معرفة الغريب والمشكل من الإعراب، إلى جانب تسليط الضوء على معاني المفردات والأبيات مع الإشارة إلى بعض التشبيهات والاستعارات والكنايات.

فهذه المعلقات السبع التي لم يستطع مر الزمان أن يرخي عليها ستائر النسيان، لأنها جديرة بأن تعلق بالعقول والأفكار لجودتها، وشدة تأثيرها في النفوس ونفاستها، ومهما يكن من اختلاف حول تسميتها، فإن المعلقات تمثل الشعر الجاهلي الذي بلغ درجة النضج والكمال إلى جانب أنها تعطينا صورة قيمة عن حياة العرب الاجتماعية والسياسية، إذ يتصل بعضها بحوادث عظيمة في الجاهلية، وتعرض ما عاشوه وشهدوه كمعلقة زهير وعنترة... كما يتصل البعض الآخر بظاهرة اجتماعية بارزة في حياة العرب القديمة، وهي حياة اللهو والفراغ والفخر وإكرام الضيفان.

وإذا كان الشعر ديوان العرب فإن هذه المعلقات هي النماذج الرفيعة لذلك الشعر، وعلى الذين يحبون أن تكون لديهم المقدرة على فهم كتاب الله تعالى، أن يرجعوا إلى هذا الشعر عملا بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب " **عَلَيْكُمْ بِدِيْوَانِكُمْ لاَ تَضِلُّوا** !! " قالوا وما ديواننا؟ قال " شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعنى كلامكم."[1]

---

(1) الزوزني: شرح المعلقات السبع، (مقدمة المحقق محمد إبراهيم سليم)، ص 03.

ولهذا كان " الشعر العربي القديم تراث إنساني عظيم، فهو ثروة قيمة من الفكر الإنساني الخالد ومن نتاج عقول رشيدة، وأفكار ثابتة سديدة وعواطف نبيلة صادقة، ولهذا بقي خالدا إلى اليوم مع مرور قرون عليه وقد حظي بالإكبار والاحترام وكذا الرعاية والاهتمام من قبل العلماء والأدباء والباحثين وعشاق الفن الأدبي الرفيع ، هذا الشعر الذي يعد المورد الأساسي والمنهل الصافي لذوي المواهب الأدبية والشعرية في جميع العصور."[1]

إذن فبالرغم من أن المقدمة التي وردت في كتاب المؤلف وبخطه الأصيل، والتي لا تتعدى البضع أسطر، إلا أنها لخصت منهجه وطريقته في هذا الشرح لقصائده، مبينا الدقة التي اتبعها في عرض خصائصه الفنية وتقنيته الأدبية في إبراز قيمة المعلقات الشعرية وأسسها الفنية الجمالية ذات الدلالات المتعددة والقضايا المختلفة ومواضيعها الخيالية. هذا الشرح الذي قام به المؤلف أين قال: " لخصته على حد الإيجاز والاقتصار على حسب ما اقترح علي، مستعينا بالله على إتمامه."[2] ،ومن هنا نجد أن تقسيم الشعراء إلى طبقات طريقة منهجية اعتمدها العلماء في تحديد الجودة الفنية لهذه الإبداعات التي تمثل المورد الأساسي في تلك الحقبة الزمنية.

(1) د/ علي الجندي: عيون الشعر العربي القديم، دار غريب للطباعة القاهرة 2000 ج1، ص 03 – 04 (مقدمة).
(2) الزوزني: شرح المعلقات السبع، (مقدمة الكتاب)، ص 09.

اللفظ والمعنى:

ظهر جليا في العصر الأموي أين كان الاهتمام بالمعنى أكثر من الاهتمام بالألفاظ فالسليقة العربية سليمة ، حيث أن أصحابها عرب أقحاح عهدهم باللغة العربية قوي ولم يبعدوا عن أهل الجاهلية وصدر الإسلام، فمن نقاد هذا العصر عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وغيرهم، فنقدهم اهتم بالمعنى مع عدم إغفالهم لنقد اللفظ أحيانا أخرى.

وفي العصر العباسي عقبت مرحلة العصر الأموي مرحلة ظهور النحويين واللغويين وأخذوا يجمعون اللغة ويضعون لها قواعد لخدمة القرآن الكريم بدأ التفكير في الألفاظ باعتبارها شيئا منفصلا عن المعنى، ووضح هذا الانفصال جليا عندما ظهر المتكلمون واشتد النزاع حول حقيقة الإعجاز القرآني ، فكان محمد بن سلام وغيرهم قد اتسمت كتبهم بالطابع اللغوي الذي يتناول معنى اللفظ من قريب على ضوء الشعر وكلام العرب الفصيح وفي القرن الثالث الهجري وجه الجاحظ وابن قتيبة اهتماما باللفظ و المعنى والصلة بينهما، إذ سجلا آراء من سبقهم في الجهود اللغوية وكذا البلاغية التي تتصل باللفظ والمعنى، وفي القرن الخامس الهجري ظهر عبد القاهر ونظر إلى القضية بذوق أدبي و حس عربي ، فحدد المعالم ووضح الصورة فكان أبا بجدتها ومبتكريها، أين سار العلماء المحدثين على دربه في بحوثهم النقدية الحديثة حول اللفظ و المعنى والعلاقة بينهما.

فالكاتب "يستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور "[1] ،ثم ألا ترى أن هذه "الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان أحسن أحوالها أن يكافئ لطف معناها ثقل ألفاظها،فيكون مثل المخبر عنها ...وإن مر بك خبر أو شعر يتضح عن قدر الكتاب وما بني عليه فاعلم أن لذلك سببين :أحدهما قلة ما جاء في ذلك المعنى مع الحاجة إليه،والسبب الآخر أن الحسن إذا وصل بمثله نقص نورهما ولم يتبين فاضل بمفضول ،وإذا وصل بما هو دونه أراك نقصان أحدهما من الآخر الرجحان ومدار الأمر وقوامه على واحدة تحتاج إلى أن تأخذ نفسك بها ،وهى أن تحضر الكلمة موضعها وتصلها بسببها "[2].

وهذا يجعل من اللفظ والمعنى ركني اللغة اللذان لا يمكن الفصل بينهما مهما حدث "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول:حلو رشيق ،وحسن أنيق ،وعذب سائغ ، وخلوب رائع ،فاعلم أنه ليس ينبئك عن

---

(1) ابن قتيبة :عيون الأخبار ،ص(ن) المقدمة

(2) المصدر نفسه ،ص (ن) .

أحوال ترجع إلى أجراس الحروف*1 وإلى ظاهر الوضع اللغوي بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ،وفضل يقتدحه العقل من زناده ،وهو رجوع الإستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه...وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ،ولا يكون وحشيا غريبا ،أو عاميا سخيفا ،سخفه بإزالته عن موضوع اللغة"(1). وهذه كما نلاحظ قضية مهمة جدا حتى نحافظ على أصالة اللغة "وإذ الألفاظ خدم المعاني والمصرف في حكمها وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ،فمن نصر اللفظ على المعني كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه ،وفيه فتح أبواب العيب"(2) .

فالكاتب أو الشاعر عليه أن يوازن بين لفظه ومعناه ولا يفرق بينهما أو يجعل أحدهما بلا قيمة،خاصة حينما يثقل هذه الألفاظ بالحشو والسجع فيذهب بالمعنى الحقيقي ،وتصبح الألفاظ كالعروس المثقلة بالجواهر التي لم تزد إلا في قبحها لا جمالها " ولأن تصاريف المباني التي هي كالأوعية وتضاعيف المعاني التي هي كالأمتعة في المنثور ،اتسع مجال الطبع فيها ومسرحه وتشعب مراد الفكر لها ومطرحه ،فمن البلغاء من يقول :فقر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها ،فإذا وسم أغفالها بتحسين نظومها ،وحلي أعطالها بتركيب شذورها فراق مسموعها ومضبوطها وزان مفهومها ومحفوظها "(3) .

أما قضية أيهما أسبق من الآخر، فهناك فريق يرى أن المعنى اسبق من اللفظ، وفريق آخر يرى اللفظ أسبق من المعنى، حيث أن المعاني معروفة بل ينبغي البحث عن اللفظ المناسب لهذا المعنى، والذي أكده الأدباء بحسب المناسبة والاعتدال، والأسبقية والتفاضل، في حين أكد آخرون أن كليهما يعد وحدة واحدة ومتناسقة في حالة النطق, كما أن جمالية اللفظ و المعنى حديث قديم في النقد الغربي على أرسطو وأفلاطون، ومن تبعهم، وكذلك في النقد العربي القديم على يد الجاحظ وابن قتيبة وأمثالهما"(4), وجمالية اللفظ و المعنى حديث قديم في العمل الأدبي ذلك انه يصب في التعبير عن تجربة شعورية تعبيرا موحيا، لذا يعتمد العمل الأدبي التجربة الشعورية أو المضمون ثم التعبير الموحي شريطة أن يتوافر العنصران على مغزى وغرض، وهذا ما يسمى بوظائف الفن وغاياته،وما هو معلوم فإن النقد هو ظل الأدب الذي لا

---

(1) عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة ،ص15.
(2) المصدر نفسه ،ص 17 .
*1 الأجراس :الصوت أو الخفي منه .
(3) المرزوقي :شرح ديوان الحماسة ،ص 5-6.
(4) د/ محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب ، ص 228.

يبرحه ، ولهذا اختلفت الآراء في هذا المجال وظهرت مذاهب نقدية وأدبية كثيرة تنظر إلى العمل الأدبي من زوايا مختلفة، منها زاوية جمال في المضمون وما فيه من أدب وفضيلة وأخلاق وأصحاب هذه النظرة هو الواقعيون الذين يروا أن الفن لابد أن يكون في خدمة الحياة و المجتمع وأيضا زاوية جمال الشكل والتعبير- الألفاظ- وهؤلاء هم أصحاب الفن للفن.

ومن هؤلاء من فضل "توشيح العبارة بألفاظ مستعارة إلى وجوه أخرى تنطق بها الكتب المؤلفة في البديع ،فإني لم أذكر هذا القدر إلا دلائل على أمثالها ، ولكل مما ذكرته ومما لم أذكر رسم من النفوذ الاعتلاء بإزالته ما يضاده ،فيسلم للنكوص والإستقال*1 وأكثر هذه الأبواب لأصحاب الألفاظ ، إذا كانت المعاني بمنزلة المعارض للجواري ،فأرادوا أن يلتذ السمع بما يدرك منه ولا يمجه ، ويتلقاه بالإصغاء إليه ،والإذن له فلا يحجبه"(1) ،ومن البلغاء من قصد فيما جاش به خاطره إلى أن يكون استفادة والمتأمل له والباحث عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قوله ،ومثله وهم أصحاب المعاني فطلبوا المعاني المعجبة من خواص أماكنها ،وانتزعوها جزلة عذبة حكيمة ظريفة أو رائعة بارعة "(2) .

هذا ما يوضح براعة القدماء من المبدعين الذين استطاعوا إعطاء كلا من اللفظ والمعنى حقه من الاهتمام ،ذلك أنه متى "اعترف اللفظ والمعنى فيما تصوب به العقول *2 فتعانقا وتلابسا متظاهرين في الاشتراك وتوافقا فهناك يلتقي ثريا البلاغة ،فيمطر روضها وينشر وشيها ،ويتجلى البيان فصيح اللسان "(3)، فالكاتب الحاذق هو الذي يحسن في كتابته من خلال تخيره لألفاظه ومعانيه ،ويعرف كيف يضفي عليهما رونقا بديعا يوصل رسالته كاملة دون إخلال بمعنى أو تكثير لقول، فاللفظ الجيد "هو ما كان خفيفا لطيفا والتصريح غالبا متصور والتعريض قليلا يسيرا ...واتق الحذف المخل بالمعنى والإلحاق المتصل بالهذر واحذر تزيينه بما يشينه ،وتكثيره بما يقلله ، وتقليله عما لا يستغنى عنه"(4) ، ولا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ "(5)

وأحسن طريقة للوصول إلى هذه الغاية أو الهدف هو "تقسيم الألفاظ على رتب المعاني ،فلا يكون غزلك كافتخارك ،ولا مديحك كوعيدك ،ولا هجاؤك كاستلطافك ،ولا هزلك بمنزلة جدك،ولا تعريضك مثل تصريحك ،بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ،فتلطف إذا تغزلت

---

(1) المرزوقي :شرح ديوان الحماسة ،ص 6-7.
(2) المصدر نفسه ،ص 7 .
(3) المصدر نفسه ،ص 8.
(4) أبو حيان التوحيدي :الإمتاع والمؤانسة ،ص9.
(5) المصدر نفسه ،ص10.
*1 النزول إلى أسفل .
*2 تجود به :صاب المطر صوبا أي نزل

وتفخم*[1]إذا افتخرت"[(1)] ،واللفظ عند ابن قتيبة أربعة أضرب:"ما حسن لفظه وجاد معناه وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ،وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه ،وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"[(2)].

وبظهور عبد القاهر بنظرته الفاحصة - نظرية النظم- الذي يرى جمال الصورة الأدبية في الألفاظ والمعاني لا تفصيلا، ويهتم في نظريته بتعانق هذين الجانبين دون الفصل بينهما.وعلى الرغم من فقر المصطلح النقدي لدى ابن قتيبة، فقد تمرس في مقدمته بأكبر المشكلات النقدية التي سيكثر حولها الحديث من بعده، فتحدث عن الشعر من خلال قضية المعنى و اللفظ والجودة، وعن ضروب التناسب بين الموضوعات في القصيدة الواحدة, وتلاحقها في السياق واعتمادها على وحدة معنوية تقيم التلاحم والقران بين أبياتها، وعن العيوب الشكلية التي تعتري العلاقات الإعرابية والنغمات الموسيقية والقوافي وأهمية التأثير في نفسيات الجماهير بالتناسب والمشاركة العاطفية، وتحدث عن الشاعر متكلفا ومطبوعا"[(3)]

وعن المؤثرات والحوافز التي تفعل فعلها في نفسه وعن علاقة الشاعرية بالأزمنة وكذا الأمكنة وعن ثقافة الشاعر وتفاوت الشعراء في الطاقة الشعرية وبذلك كان من أوائل النقاد الذين لم يتهيبوا الوقوف عند القضايا النقدية الكبرى كما كان من أبرزهم التفاتا إلى العوامل النفسية والمبنى الفني الكلي ، أين وضع استنتاجات تدل على خاطر ذوقي نقدي أصيل، كانت كفاء بنقل النقد إلى مرحلة جديدة. ولذلك فابن قتيبة لا يستطيع على كثرة ما قدم لعلوم العربية وآدابها من إنتاج وافر أن يتخلص من سيطرة النظرة المنطقية للشعر أو يتجرد من سلطان العقل والنزعة التقريرية في تناوله للشعر وتحديده لقيمته ومن الغريب أن في مقدمته كثيرا من النظرات الصائبة في مجال النقد والأدب، فقد نجده ينادي بـ:

1- استقلال الرأي وتحكيم النظرة الشخصية.
2- تجنب الانسياق مع التيار السائد إلا بعد فحص دقيق.
3- استحسان أعمال الشاعر نفسه لا غيره.
4- مهاجمة الفلاسفة.

---

(1) القاضي الجرجاني :الوساطة بين المتنبى وخصومه ،ص24.
(2) ابن قتيبة :الشعر والشعراء ،ص7-9.
(3) محمد بركات حمدي أبو على :دراسات في الأدب ، ص 115.
*1 تعظم

ودعا ذلك في مقدمته فقال:" يجب دراسة الأدب وتذوق الشعر وفهم كتاب الله وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم فتفسيره لتأليف القصيدة العربية وانتقال الشاعر فيها من الغزل إلى وصف الناقــة إلى المديح تفسير لا يدل على دراسة تحليلية أو ذوقية للقصيدة القديمة وإنما هو تفسير يعتمد على النظرة العقلية الصرفة"[(1)].

كما أنه يوضح بشكل كبير أن ليس الشعر كله يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ،ولكنه قد "يختار ويحفظ على أسباب منها الإصابة في التشبيه ،وقد يحفظ ويختار على خفة الروي وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره ،أو لأن شعره غزير ،وقد يحفظ ويختار أيضا لنبل قائله "[(2)] ،حتى أننا قد نعجب ببعض الشيء دون غيره ،أو قد تستلهمنا مطالع الأبيات دون غيرها وكذلك مقدمات هذه الكتب وذلك طبعا حسب الذوق الاختيار "فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الألفاظ حكيمة المعاني ،عجيبة التأليف إذا انقضت وجعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها ،ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحا [*1] فإذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها ،وزيفت ألفاظها ...ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه ،فبعضها القصور المشيدة والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور ،وبعضها كالخيام الموقدة التي تزعزعها الرياح وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى ويخشى عليها التقوض[*2]"[(3)] .

وهو بذلك يثير التفرقة بين الروح العلمية والذوق الأدبي، فهو يسخر من الأدباء الذي يشتغلون بالمصطلحات الفلسفية معجبين بغرابتها مع أن فيها لو علموا فسادا لأذواقهم وهو يرى أن الأديب إنما يكون أديبا بترتيبته الأدبية القائمة على دراسة النصوص القديمة الجيدة دينية أو غير دينية ، كما تعرض إلى مسألة اللفظ في خدمة المعنى وأن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه بالألفاظ مختلفة بعضها جيد وبعضه رديء، حيث أنه ميز بين نوعين من الأساليب:

1- **الأسلوب العقلي**: (العلم، التاريخ، الفلسفة) يقصد باللفظ العبارة عن المعنى.

2- **الأسلوب الفني**: وهذا أسلوب الأدب الجيد واللفظ فيه لا يستخدم للعبارة عن المعنى بل يقصد لذاته إذ هو في نفسه خلق فني، فالتصوير هو إمارة الفن في التعبير إلى جانب حديثه

---

(1) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب، إشراف داليا محمد إبراهيم، شركة نهضة مصر للطباعة 2004، ص 19.
(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ،ص21-23.
*1 عرضا دون إمعان النظر
*2 الانهيار والسقوط.
(3) ابن طباطبا العلوى :عيار الشعر ،ص13.

عن الطبع والتكلف"[1], ولهذا غلب تأثير النظرة المنطقية للغة على كثير من الدراسات البلاغية والنقدية عند العرب، فالمتكلمون أصحاب فلسفة وجدل ومنطق وصلتهم بالبلاغة وثيقة من تاريخها, وقد جادل المتكلمون وهم بصدد دراسة القرآن الكريم وفهم ما فيه من ألوان التشبيه والمجاز والبديع وأداهم هذا الجدل إلى التفنن في الأداء اللفظي والبحث في المسائل البلاغية ومنهم الجاحظ الذي كان من دعاة اتحاد اللفظ مع المعنى.

خاصة إذا كانت " للمعاني ألفاظ تشاكلها *[1] فتحسن فيها وتقبح في غيرهـــا،فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه،وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه"[2].فالدراسة الميدانية التي حام حولها الجاحظ ومن معه من الأدباء في هذه القضية أين عرض للبيان في الحياة العامة بمختلف أحواله بين الناس على الطبيعة وفي الحياة اليومية وهذا يعود إلى عقله وطريقة تفكيره الديالكتيكي الجدلي" حيث يعرض العي في مقابل الفصاحة واللكنة في مقابل الإبانة، والفصحاء المطبوعين مقابل الفصحاء المتكلفين، ولفظ العامة مقابل لفظ الخاصة، ونطق العرب مقابل نطق الموالي على تعدد أجناسهم وأنواع الحبسة مقابل الذين يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف آنافهم، ومن ثم يرى أن هذا التقابل بين الأضداد هو منهج الكتاب"[3]

والفصل الحاد بين اللفظ والمعنى يجعلنا نكاد نشعر أن أحدهما يمكن أن يوجد بمعزل عن الآخر ذلك أن " المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمتخيلة فير نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم والحادثة في فكرهم ، مستورة خفية وبعيدة ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة... وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا ...والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه يدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن وبذلك

---

(1) محمد مندور :تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 203 – 205.

(2) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص 14.

(3) محي اليد صبحي، نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس 1984 ، ص 72-73.

* 1 تماثلها وتشابهها.

تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم"[1], واللفظ والمعنى هما عنصران يظهران شرف البيان وفضيلة اللسان " واللسان هو ترجمان اللب وبريد القلب والمبين عن الاعتقاد بالصحة أو الفساد وفيه الجمال"[2] ذلك انه لا بد لكل كاتب أو أديب أن يعرف قيمة هذا التوحد بين عناصر اللغة لأنها تعينه دائما على الوصول إلى هدفه ومراده كما قال أبو تمام[3] :

أما المعاني فهي أبكار إذا اف تضت ولكن القوافي عون[*1]

فقد شغلت هذه القضية الفكر النقدي والبلاغي عند العرب كما لم تشغله قضية أخرى فنالت عناية الأدباء والنقاد وعلماء الكلام، الذي أفردوا لها مساحات كبيرة في مؤلفاتهم المختلفة وقد تعددت الآراء بتعدد هذه المؤلفات، كما اختلفت باختلاف ثقافة المؤلفين وتباين أهدافهم من دراستها .

وقد أخذت هذه النظرة النقدية في التطور " والتنامي حتى شكلت إطارا نظريا في مرحلة تالية اتسع فيه مفهوم هذه القضية وارتبط بغيرها من القضايا مثل إعجاز القرآن وكذا السرقات والطبع والصنعة"[4] وقد ولدت قضية اللفظ والمعنى في رحاب الفلسفة والدين بسبب ذلك الجدل الطويل الذي كان يدور بين طوائف المسلمين القدامى المختلفة حول مجموعة من القضايا "التي تتعلق بالقرآن الكريم كقضية المحكم والمتشابه وقضية قدم القرآن وحداثته، وقضية إعجاز القرآن الكريم وغيرها من المسائل والأمور التي اشتد حولها الخلاف وقد خاض الفقهاء ورجال الدين في الحديث عن قضية اللفظ والمعنى، كما خاض فيها المتكلمون وكانت لهم آراء ووجهات نظر متعددة"[5]، كما انتقلت هذه القضية من بيئة كلامية إلى بيئة أدبية وشهدت اختلافا كبيرا بين النقاد العرب حول أهمية كل من اللفظ والمعنى "وقد شهدت تداخلا في المفاهيم مما أدى إلى عدم اتفاق حول مدلول الكلمتين: اللفظ والمعنى مما حدا بكثير من النقاد إلى توضيح المقصود بكل منها قبل دراسة العلاقة بينهما فقد

أشار الدكتور صلاح زرق إلى استخدام النقاد العرب لمصطلح المعنى بدلالتين هما:

أ- الفكرة الذهنية المجردة التي تواضع الناس في بيئة ما تدل على قبولها أو رفضها.

ب- المعنى الشعري الذي يتمثل في ذلك المعنى بعد أن يصاغ في صياغة فنية خاصة.

---

(1) محي اليد صبحي، نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس 1984 ، ص 72-73.
(2) قدامة بن جعفر: نقد النثر.ص10.
(3) الثعالبي: فقه اللغة ن ص35.
(4) د/ محمد مصطفى أبو شارب ود/ احمد محمود المصري: قضايا الإبداع الفني ط 1 2005 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة الإسكندرية ، ص 33.
(5)المرزباني : الموشح في أخطاء العلماء على الشعراء ، ص 373.
*1 العون: الصنف من النساء، ج عوان.

وتمتزج هيئته الفنية بمادته الدلالية في كل من لا يتجزأ على نحو يستثير معه لدى المتلقي، استجابة لا يمكن أن تغرى لأيهما منفصلا أو مستمرا أو مستقلا، وإن جاء التعبير عن تلك الاستجابة لدى بعض النقاد مرجعا لهذا الجانب أو ذاك"(1) ،أما مصطلح اللفظ فقد ورد بدلالات متعددة" فقد استخدم مفرد الدلالة على الكلمة الواحدة، وجمعا للدلالة على الصياغة والتأليف والبنية الشكلية القائمة على التصوير الفني والمجاز الشعريين"(2)

ونحن نعرف أن بداية الحديث عن قضية اللفظ والمعنى في الاتساع والذيوع منذ الجاحظ عبارته الشهيرة " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"(3)

وكل هذا من اجل الكشف عن أهمية هذه القضايا النقدية التي استهل بها المؤلفون ابتداء كتبهم، والتي من خلالها أي قضية اللفظ والمعنى أن يتعرفوا على أهمية كل عنصر وقضية من اجل الوصول إلى الهدف الأساسي من كل ذلك، إذن ونحن " نتعرف على ما بذلوه من جهد نقدي في تتبع هذه القضية ودراستها دراسة تجمع بين التنظير والتطبيق وكذا التأثر والإبداع عن طريق تتبع جهود كل ناقد منهم على حدة في دراسة هذه القضية المهمة"(4) إذن فإن كانت الكتابة فعلا ذكيا يتحقق بجملة شروط موضوعية ،فإن طبيعة النص تتركب من أجزاء مترابطة لا تنفصم عراها أو تبلى قواها، بل هي آخذة في التطور والاستمرار إذا حققت في كيان اللغة محوري اللفظ والمعنى وراعت هذا التواؤم والتآلف في بناء كلي متكامل .

---

(1) د/ صلاح رزق: أدبية النص ، دار الثقافة العربية ط1 1410هـ 1989، ص 86.

(2) د/ محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، دار الشروق ط 1 1994 ، ص 241 - 244.

(3) الجاحظ : الحيوان ج1 ط 4 1395هـ – 1975 م ،ص 131.

(4) د/ عبد الفتاح عثمان: نظرية الشعر في النقد العربي القديم ، مكتبة الشباب مصر ، ص 123- 124.

الطبع والصنعة:

تعد قضية الطبع والصنعة من القضايا النقدية التي نالت عناية النقاد فحرصوا على دراستها وسعوا إلى سبل أغوارها وجعلوها في كثير من الأحيان ميزان للإبداع الشعري يتم تقسيم الشعراء على أساسه إلى فرق ومراتب متفاوتة، وترتبط هذه القضية ارتباطا وثيقا بقضية القدم والحداثة وذلك أن من " أهم الأسباب الفنية التي دفعت كثيرا من النقاد المحافظين إلى تفضيل الشعر القديم على الشعر الحديث هو اعتقادهم بأن الشعر القديم يتسم بالطبع بينما يتسم الشعر الحديث بالتكلف"(1)

وقد شهدت مصطلحات هذه القضية –من طبع وصنعة وتكلف- خلطا واضحا ولت عليه دراسات النقاد لها وأقوالهم فيها"(2) فقد كان المفهوم السائد للطبع منذ العصر الجاهلي القديم ومن العصر الإسلامي يدور في فلك الاستعداد الفطري والقدرة على قول الشعر بسهولة ودون مشقة بينما كان المفهوم السائد للصنعة يدور في فلك التكلف وإعمال الفكر وإعادة النظر، وعلى هذا الأساس من الفهم فرق ابن قتيبة بين الشاعر المطبوع والشاعر المتكلف.

ولابد من معرفة الفرق بين "المصنوع والمطبوع وفضيلة الآتي السمج على الأبي الصعب ،إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف ،ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ولكل باب منها معيار :فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال ،وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز ،عيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير ،وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن ،الطبع واللسان ،وعيار الاستعارة الذهن والفطنة وعيار مشاكلة اللفظ المعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدربة ودوام المدارسة "(3).

والاختلاف القائم على تذوق الشعر جعل بعضهم يميل إلى المطبوع وبعضهم إلى المصنوع والفرق بينهما أن الدواعي إذا قامت في النفوس وحركت القرائح أعملت القلوب بنعت المعاني،ودرت أخلافها وافتقرت خفيات الخواطر إلى جليات الألفاظ فمتى رفض التكلف والتعمل

---

(1) د/ عثمان موافي: الخصومة بين القدماء والمحدثين ، ص173.
(2) د/ عبد القادر القط: مفهوم الشعر عند العرب، ترجمة عبد الحميد القط ، دار المعارف 1982 ص 49.
(3) المرزوقي :الوساطة ،ص 9-11.

وخلي الطبع المهذب بالرواية المدرب في الدراسة ...أدى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفوا بلا كدر،وعفوا بلا جهد ،وذلك هو الذي يسمى المطبوع ،ومن جعل زمام الاختيار بيد التعمل والتكلف عاد الطبع مستخدما متملكا ،وأقبلت الأفكار تستجمله أثقالها ...وتجاوز المألوف إلى البدعة فجاء مؤداه وأثر التكلف يلوح على صفحاته وذلك هو المصنوع "(1).

ونحن طبعا في هذه الحالة نفضل أن يكون الشعر جميلا له معنى ولكن طبيعيا بسيطا قيل عفويا لمعالجة أمر معين ،ثم إن "سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ،وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ ،معقد الكلام وعر الخطاب ،حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته ،ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ،ولأجله قال النبي (ص):من بدا جفا"(2).

ولهذا السبب نجد أن من الشعراء المتكلف والمطبوع ،" فالمتكلف هو الذي قوم شهره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ...وللشعر دواع تحث البطئ وتبعث المتكلف منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب ....والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ،ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات ،وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه...والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجره ،وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذا امتحن لم يتعلثم ولم يتزحر...والشعراء أيضا في الطبع مختلفون منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ،ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل"(3)

وقد تغير هذا المفهوم لكل من الطبع والصنعة وخاصة بعد ظهور شعراء البديع واختلاف النقاد حول أبي تمام والبحتري وبالتأكيد صار المفهوم للطبع مزيجا من الاستعداد الفطري وإعمال النظر في الإبداع الشعري، وصار مفهوم الصنعة مرتبطا بالإفراط في تنقيح الأبيات وزخرفتها بالصور البيانية والألوان البديعية"(4)

---

(1) المرزوقي :الوساطة ،ص 12.

(2) المصدر نفسه ،ص 18.

(3) ابن قتيبة الشعر والشعراء ،ص 17-28.

(4) المرزوقي :الوساطة ،ص 25.

والملاحظ من هذا النص أن الطبع قد صار طبعا مهذبا بالرواية مدربا في الدراسة وهو الطبع الذي نادى به القاضي الجرجاني حين قال:" وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنق به، ولست أعني بهذا كل طبع بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية وجلبته الفطنة وألهم الفصل بين الرديء والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبح"(1)

وكما تطور مفهوم الطبع فقد تطور مفهوم الصنعة، فبعد أن كان مرادفا للتكلف وكذا التعسف والإفراط المعيب صار في منزلة وسطى بين الطبع والتكلف، فلا هو خارج عن الطبع ولا هو داخل في التكلف وعلى هذا الأساس من الفهم فرق ابن رشيق بين الطبع والصنعة وبين الصنعة والتكلف"(2) وقد اهتم النقاد بشعر الطبع وجعلوه سابقا على شعر الصنعة واهتموا بدراسته وبواعثه ودواعيه، وقد أدرك بعض النقاد ومنهم الجاحظ وابن قتيبة أن الطبع الشعري قد يكون متخصصا بمعنى أن بعض الشعراء قد يجيد في غرض شعري دون آخر"(3)

وليس معنى إعلاء النقاد من شأن الطبع وإدراكهم لدوره في الإبداع الشعري أنه يمكن الاستغناء به عما سواه فيركن إليه الشاعر ولا ينظر في إنتاجه الأدبي ولا يصقله بالثقافة والدراسة.وناد النقاد بضرورة تنقيح الشعر والنظم فيه أن يصل الأمر بالشاعر إلى الإفراط والتكلف وإنما يجب عليه أن يحدث نوعا من التوازن بين الطبع والصنعة فأفضل الصنعـة ما كـــان خفيا عفويا لا تظهر فيه الكلفة " وعلى هذا الأساس المتوازن من الفهم لطبيعة العلاقة بين الطبع والصنعة انقسم نقاد الأدب إلى فريقين:

أ/ الفريق الأول يطلب من الشاعر الاعتماد على طبعه في المقام الأول وعدم المبالغة في الاستعانة بالبديع، فلا يقبل منه إلا ما جاء عفوا دون قصد أو تكلف*1.

ب/ والثاني يمل ذوقه إلى البديع ويحث الشعراء عليه ويمتدح ذلك منهم ولكنه يشترط عليهم عدم الإسراف في استخدامه ، ويوصي بالتأني وعدم المغالاة في الإتيان به*2.

ولا يوجد تناقض بين الفريقين، فقد اتفقا على تفضيل البديع الجيد ورفض كل مظهر من مظهر الارتباك أو التعسف " ومعنى هذا أنهم أجمعوا على استجادة الصنعة العفوية التي يجب

---

(1) د/ عبد القادر القط: مفهوم الشعر عند العرب ،ص50-52.

(2) ابن رشيق القيرواني :العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ج 1 ،ص129.

(3) د/عثمان موافي :الخصومة بين القدماء والمحدثين ،ص 176.

*1 من أبرز نقاد هذا الفريق : ابن قتيبة ، الآمدي، القاضي الجرجاني.

*2 من ابرز نقاد هذا الفريق: ابن المعتز، قدامة بن جعفر، أبو هلال .

أن تتخذها أشكال البديع وأوجه استعماله التي يختفي معها الجهد المبذول في سبيل ذلك"(1)

كما أن دأب الجاحظ في تأليف مقدمته أن يرسل نفسه على سجيتها فهو لا يتقيد بنظام محكم يترسمه ولا يلتزم نهجا مستقيما يحذوه، ولذلك تراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعها أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى ثم يعود إلى ما أسلف من قبل وقد كانت هذه السبيل "سار عليها كثير من علماء دهره، كما أن علو سنه وجدة تأليفه في تلك الأبحاث التي طرحها، كل أولئك كان شفيعا له في هذا الاسترسال والانطلاق، وكان أهم ما تطرق له قضية الطبع والصنعة"(2)

فتحدث الجاحظ عن هذه القضية أثناء حكايته عن مدرسة زهير الذين كان الواحد منهم "يدع القصيدة تمكث عنده حولا وزمنا طويلا، يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله ذماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله من نعمته وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحكمات"(3)

فلولا أن الشعر كان قد استعبدهم، واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف ولأصحاب الصنعة ومن يلتمس قعر الكلام واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهلا ورهوا وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا، وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ولذلك قالوا في شعره مطرف بآلاف وخمار بواف »(4) .

ويخيل إلى بعض الأدباء، أن الاهتمام بالنظم والقول، وأن جمال الأساليب بالمعانقة ضرب من تشجيع الصنعة على الطبع والسجية، فالطبع يوصف بأنه الأدب والأديب والألفاظ والمعانى، والطبع في الأعم الأغلب هو السجية التي طبع عليها الإنسان،والأدب المطبوع ما صدر عن فطرة سليمة وجاء عفوا دون تعمل لمعانيه وألفاظه،بل يكون سهل المأخذ حلو اللفظ، واضح المعاني، وهو بذلك هبة من الله تعالى التي وهبها للإنسان.

فالصنعة هي الأصل عمل الصائغ والصناعة حرفته، وهي مكتسبة بالجد والممارسة والزمن والتدوين والتدريب والانتباه لدقائقها ومخاطرها ومحاسنها، والوقوف على أصولها وكذا الانتفاع بذلك، والصنعة منها المحمود ومنها المذموم، والشعر بهذا قابل إما للمدح أو الذم.أما التكلف فكله مذموم وهو التصنع،"فالشاعر الذي يثقل شعره بألوان البديع، ويتكلف له أنواع

(1)د/احسان عباس : نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري ، ص 144.

(2) د/ محمد خضر: النقد الأدبي عند العرب، ، الخطوات الأولى ، دار العلم للملايين 2007 ، ص128.

(3) د/مصطفي الصاوي الجويني: النقد الأدبي عند العرب، ص 134.

(4) الجاحظ: البيان والتبيين: ج 1، ص 13 .

التحسين، ويولع بطلبها يزري شعره، ويذهب ماؤه، والشاعر الذي يخفي صنعته ويتكلف لها، ويحاول ألا يظهر فيها أثر جهده ومعاناته ويحتفظ برونق الشعر ويبقي على بهائه ومائه أين يتضح لنا بهذا أن هناك ثلاثة أوصاف للأدب والأديب هي: **الطبع والصنعة والتكلف**"(1).

وهذه الاصطلاحات هي ما تحدث عنها النقدة القدماء كما رأينا سابقا وخاصة في العصر العباسي، إلى بداية دخول البديع على الأدب العربي كان فيه تصنيع "وهي الفترة التي طغى فيها البديع على الأدب وأصبح يتعمل ويتكلف وقد سمي في النقد القديم بالتكلف المرذول، ولهذا نرى أن الطبع إذا نمته الصنعة الطبيعية من غير تعمل ولا تكلف لها، كانت صنعة مقبولة محبوبة، ولكل من الطبع والصنعة أنصار، ولكن القضايا الأدبية لا تعرف القوانين الحرفية، بل الاعتدال سبيلها، فالطبع إذا روعي بالصنعة المعتدلة كان العمل الأدبي آية من الآيات الإنسانية واللفظ والمعنى أحد روافد العمل الأدبي »(2) .

ويبقى النص كتاب مفتوح يحتاج إلى كل أجزاءه وجميع أشكاله حتى يتبلور ويكبر ،واللفظ والمعنى وحدهما لا يشكلان الإبداع إن لم يتوفر عنصر الخيال الذي هو من طبيعة الأدب والفن ،ويبقى الأسلوب من دون هوية أو ملمح يميزه ما لم يستعن صاحبه بالإحساس والعفوية لأنه أساس الإبداع وبطاقة عنوان كل كاتب ومبدع ،فهو ولا شك من يمنحه تلك القدرة على الغوص في أعماق الذات لاستخراج المعاني وإبراز خلجات النفس في أسلوب دقيق وبيان عذب رشيق ،ينبع من شعور صادق يجسده الشاعر والأديب في عمل رائع يضمه الإنسان والتاريخ .

إن الكتابات النقدية كثيرة التي حاول من خلالها أصحابها تحديد مفهوم الشعر والنثر أي تمييز منظوم الكلام عن منثوره والوقوف على ساحات الشعراء أعرابا وحضريين، والمطابقة بينهم والموازنة والحكم على جيد الشعر من رديئه" والمبتكر والتقليدي، أولوية اللفظ على المعنى والعكس والطبع والصنعة والقديم والحديث والتزام القوالب القديمة أو الخروج عليها.

---

(1) د/عبد الله التطاوي : الموقف الفكري والنقدي، ص256

(2) المرجع نفسه،ص 256.

المنظوم والمنثور:

آراء وقضايا شغلت تفكير نقاد كثيرين كابن المعتز وابن طباطبا والآمدي،وصولا إلى عبد القاهر الجرجاني الناقد الذواقة الذي على يديه صار النقد نقدا علميا خالصا ينظر إلى الصحة قبل الفن والعقل قبل الذوق"(1) .

وصناعة تأليف الكلام من المنثور والمنظوم تفتقر إلى آلات كثيرة ،وقد قيل :إن كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ،فيقال :فلان الكاتب لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن "(2) مع أن في الحقيقة كل ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إيه الشاعر وزيادة .

أعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء ،"موجبة تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين :أحدهما أن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون*1بالخطابة والافتنان فيها ويعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة ،فإذا وقف أحدهم بين السماطين لحصول تنافر أو تضاغن أو تظالم فأحسن الاقتضاب عند البداهة وأنجع في الإسهاب وقت الإطالة ...داعيا إلى طاعة أو مستصلحا لرعية كان أبلغ عندهم من إنفاق مال عظيم وتجهيز جيش كبير ،والثاني أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة وتوصلوا به إلى السوق كما توصلوا به إلى العلية ،وتعرضوا لأعراض الناس فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم،والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم"(3) . ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم "أن الإعجاز من الله تعالى جده والتحدي من الرسول عليه الصلاة والسلام وقعا فيه دون النظم ...فلما كان زمن النبي (ص) زمن الفصاحة والبيان جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به و بأشرافه فتحداهم بالقرآن كلاما منثورا لا شعرا منظوما "(4). والدليل على ذلك قوله تعالى جلت قدرته:<< وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ >>(5)

وفي الوقت نفسه يعد الشعر سجل العرب وديوانهم فهو عماد حياتهم ،لهذا يعد النظم هو أيضا من أسباب الإبداع "فالشعر– أسعدك الله– كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم إن عدل عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق ونظمه معلوم محدود ،فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر

(1) العربي حسن درويش :النقد العربي القديم ،ص47. *1 الفخر والتباهي .
(2) ابن الأثير: المثل السائر ،ص 55.
(3) المرزوقي: الوساطة، ص16.
(4) المصدر نفسه ،ص 17.
(5) سورة يس: آية 69

بالعروض التي هي ميزانه"(1).

ونحن نلاحظ الآراء في تفضيل النظم عن النثر أو العكس ،قد جعل الكثير من النقاد يقول ما يفضله ،إلا أن في الحقيقة كل منهما يعد ركيزة الكتابة والتأليف فلا النظم يمكنه التخلي عن النثر ولا النثر يمكنه الاستمرار دون الشعر "واعمد إلى الحسن فزد في حسنه وإلى القبيح فانقص من قبحه،واقصد إمتاعي بجمعة نظمه ونثره"(2) ،وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر ،بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة ،وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت "(3).

والتأليف طبع من دون مجاهدة أو مكابدة" خذ من نفسك ساعة لنشاطك وفراغ بالك وإجابتها لك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسنا... واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة والتكلف والمعاودة... فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بذلك أحد، وإن تكلفته ولم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لشأنك بصيرا عابك من أنت أقل عيبا منه... فإن النفس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع الرغبة والمحبة "(4) .

فبنية المقدمة لها دور كبير في فهم المتن وتقوية حججه مثلها كبناء القصيدة حسب ابن طباطبا(ت322هـ) عملية واعية تستند على الذهن المنقى والطبع المغذي، لذلك مطلوب من الشاعر أن يختار لمعانيه ألفاظا مناسبة وأوزانا وقوافي لقصائده ملائمة ونفس الشيء بالنسبة للكاتب.

والكاتب الجيد هو من توافرت فيه شروط الطبع والرواية والذكاء"إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من

(1) ابن طباطبا :عيار الشعر ،ص9.
(2) أبو حيان التوحيدي :الإمتاع والمؤانسة ،ص 9.
(3) المرزوقي :الوساطة ،ص 24.
(4) العربي حسن درويش :النقد العربي القديم ،ص 48.

أسبابه، فمــن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز »[1] . والمقصود بالطبع هذا، الاستعداد النفسي والقدرة الذاتية التي تجعل الرجل شاعرا أو خطيبا أو كاتبا... وهذا الطبع يختلف بحسب البيئات وطبيعة الموضوعات كذلك.

ومن أهم العوامل التي حددت شكل القصيدة العربية في بنائها وصياغتها وطرائق التصوير الشعري فيها"العامل الجغرافي المتصل بطبيعة الإقليم الذي يعيشه البدوي في الصحراء "[2] فإذا كان الشعر" صورة للمجتمع في كل بيئـة، ومرآة الحيـاة في كل عصـر، وسجل الأحداث في كل زمان فهو صدى للحياة وصورة للمجتمع وانعكاس للآمال والمشاعر وتاريخ صحيح لعصره ومصره"[3] . وبالتالي فالشعـر كذلك" قيد الكلام وعقال الأدب وسوى البلاغة ومحل البراعة"[4]

فكما كان للشعر مقداره ودوره كان للنثر كذلك فضله وبراعته، والمهم في خلال كل هذا أن كلاهما يلعب دورا مهما في جمال الكلام وروعته ويبقى التزويق والصنعة لهؤلاء الكتاب والشعراء كل يبنيه بالطريقة التي يراها مناسبة ،وربما هذا يعود طبعا إلى تلك الأدوات والطرائق والمعدات التي يستخدمها كل من الشاعر والخطيب التي تختلف بحسب بنية كل نوع وجنس أدبي، والغاية من ذلك في النهاية هي إيصال تلك الرسالة التي من خلالها أنشأت هذه الأدوات الأدبية الفعالة شعرا ونثرا.

---

(1) القاضي الجرجاني: الوساطة، ص 15
(2) محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، 1404 هـ1984 م، ص 124 .
(3) عبد الفتاح لاشين: الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، ص 08 .
(4) المرجع نفسه ،ص 9-10.

القدم والحداثة:

تعد هذه القضية من أكثر قضايا النقد الأدبي القديم أهمية وقد اكتسبت هذه الأهمية من تظافر عدة عوامل جعلتها في هذه المنزلة التي منحتها عناية النقاد على مر العصور ويأتي في مقدمة هذه العوامل " عدم اقتصار هذه القضية على عصر بعينه فهي قضية كل العصور"[1] فكل قديم اليوم كان حديثا في عصره كما أن كل حديث اليوم سوف يصير قديما في العصور التالية، ولكل عصر ذوقه ولكل جيل من المبدعين سماته التي تميزه عن الأجيال التي سبقته ومن خلال هذه الرؤى يؤدي إلى صراع بين جيلين كل منهما يسعى إلى الدفاع عن ذوقه واختياره وتمسكه بمبادئه وثقافته " كما ترجع أهمية هذه القضية إلى كونها الدافع الأساسي إلى دراسة عدة قضايا نقدية أخرى لا تقل عنها أهمية مثل السرقات الأدبية والطبع والصنعة"[2]

كما ترجع أيضا هذه المميزات التي أن موقف النقاد العرب قد يشهد هذه القضية تطورا ملحوظا عبر العصور الأدبية المختلفة في وقت كثرت فيه التآليف والإبداعات حيث مال النقاد في أول الأمر إلى ترجيح الشعر القديم على الشعر المحدث وقد ظهر هذا الاتجاه بشكل واضح في آراء الرواة واللغويين الذين قللوا من شأن الشعر المحدث ورفضوا روايته أو الاحتجاج به رغم اعترافهم بجودته في بعض الأحيان.

وهو بهذا يظهر إلى أي مدى بلغ تعصب اللغويين ضد الشعر المحدث ويرفض صيغهم" ويضع مقياسا جديدا لدراسة هذا الشعر والحكم عليه وبناء على هذا يتهاوى ذلك المقياس النقدي الزائف الذي يجعل العصر أو الزمن أساسا لقبول الشعر أو رفضه ويحل محله مقياس فني أصيل وهو مقياس الجودة أو الرداءة"[3].

ونحن نعرف أن الشعر "علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع بالرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له ،وقوة كل واحد من أسبابه ،فمن اجتمعت له هذا الخصال فهو المحسن المبرز ،وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ،ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والحديث ،والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد ،إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ،وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ،فإذا اكتشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ،ولا طريق للرواية إلا السمع،وملاك

---

(1) د/ عثمان موافي: الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية ط 3 1991 ص 05.

(2) د/ صلاح رزق: أدبية الفن ، ص 106.

الرواية الحفظ ،وقد كانت العرب تروى وتحفظ "[1] ،يقول ابن قتيبة أنه يجب "على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعرا قديما ولا حديثا إلا ذكره ودلك عليه ،وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام "[2].

ويواصل قائلا "ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ،وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ،بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ... "[3] ،حتى أن معظمهم يحبذ الشعر ويميل إلى قراءته باستمرار والسبب هو تلك اللغة التي كتبت به وطبعا من خلال عنصري اللفظ والمعنى " إن مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يزر به عندنا تأخر قائله ،كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه،فكل قديم حديث في عصره وكل شرف فأوله خارجه ،ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع ،وتعظيم المتقدم وبخس المتأخر والتجني عليه "[4] .

ومع تطور الذوق الأدبي لم يعد مقبولا من الشعراء تقليد القدماء في استخدام الغريب والحوشي من الكلام وصار الشاعر مطالبا بالتكيف مع ذوق عصره، وقد قال ابن وكيع في هذا"فإن أشعار الحدثين لا يراد منها مسلك استفادة علم، وإنما تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها وحلاوة معانيها وقرة مأخذها ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامه والقفار والإبل والفلوات وذكر الوحي والحشرات وما رويت لأن المتقدمين أولى بهذه المعاني...وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام وأن الخواص في معرفتها بالعوام"[5] ومع تطور الزمن زاد الشعر المحدث نضجا كما زاد الإعجاب به في نفوس النقاد، ولما تزايدت حدة التعصب للشعر المحدث قامت من جديد حركة تدعو إلى تفضيل الشعر القديم وتحاول فرض تقاليده الفنية"[6]

ولما شغلت قضية القدم والحداثة نقاد المشارقة عبر العصور الأدبية المختلفة ونالت قدرا وافرا من عنايتهم فقد شغلت كذلك نقاد العرب قضية أخرى وهي قضية الطبع والصنعة.

---

(1) القاضي الجرجاني :الوساطة ،ص 15-16.
(2) ابن قتيبة :الشعر والشعراء ،ص 03.
(3) المصدر نفسه ،ص 05.
(4) ابن قتيبة :عيون الأخبار ،ص (ع).
(5) القاضي الجرجاني: الوساطة ، ص 19
(6) محمد مندور :تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 264- 265

الانتحال:

قسم الأدباء كتبهم إلى طبقات كما قسموا الأحاديث إلى متواتر ومنقطع ومتصل..فلفظة طبقة بمعنى منزلة ومرتبة، وطالما أن هناك مبدأ عاما لمفهوم الفحولة عند الكتاب فمن الطبيعي ألا يتوافر الشرطان في كل الشعراء، ومن توافر فيهم الشرطان أظهر الأدباء خصائصهم الذاتية فجعلوهم طبقة وهكذا، ومما يدل على ذلك جعلهم لامرئ القيس أحسن طبقة فقد قالوا عنه: " قد استحسن الناس من تشبيه امرئ القيس قوله..."[1] فالاختيار جزء من شخصية الناقد والأدباء التزموا بما هو مشهور أو الذي ارتضوه من أسس النظر من أساتذتهم المشهورين.

ومن ضمن هذه الأسس والقضايا التي أولوها اهتماما: الانتحال الذي احتوت مقدمة ابن سلام على عديد من قضاياه وخاصة انتحال الشعر" وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه"[2] وقد ألم علماء القرن الثاني للهجرة بالمشكلة ولكن ابن سلام استطاع أن يعرضها عرضا طيبا ويحدد أسبابها بل ويقدم العلاج الذي يراه ناجعا، كقوله إن أبا عمرو بن العلاء يحكم بان ضادية ذي الإصبع العدواني الطويلة لا يصح منها إلا ثلاثة أبيات فقط، أما سائرها فمنحول:

وليس المرء في شيء من الأبرام والنقــص

إذا يفعل شيئا خـــــا له يقضي وما يقضى

جديد العيش ملبــوس وقـــد يوشك أن ينفى

فابن سلام ومن خلال عرضه لهذه القضية رسم لنا حدودها في أن الشعر المسموع هو مفتعل موضوع، وهذا الشعر كثير ويحمل أدلة اتهامه في أنه: "لا خير فيه ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج, ولا مثل يضرب, ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا معجب ولا نسيبا متطرفا"[3] ويرى أن سبب ظهوره يعود إلى:

1- أن الرواة تداولوه في كتاب إلى كتاب ولم يأخذوه عن أهل البلدة ولم يعرضوه على العلماء وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي.

2- القصاص: وهذا يعود إلى أخطاء محمد بن إسحاق بن يسار في كتابته الشعر الذي هو عبارة عن كلام مؤلف معقود بقوافي ونسبه إلى رجال لم يقولوه ولم يعرفوا قول الشعر أصلا وأشعار النساء فضلا عن الرجال.

---

(1) د/ منير سلطان: ابن سلام وطبقات الشعراء، ص 184.
(2) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، مقدمة المؤلف، ص 01.
(3) المصدر نفسه ن ص 40 -41.

3- رواية الشعر من غير أهله وذلك من خلال نسب الشعر إلى شخص لا يدرك معناه .

4- ذهاب الشعر وسقوطه بسبب من هلك من العرب بالموت والقتل حين غزو فارس و الروم.

5- استغلال بعض العشائر شعر شعرائهم، وذلك بان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم، وزاد الرواة في الأشعار التي قيلت.

6- استلحاق بعض القبائل لمشهوري الشعراء أو ادعاء بعض الشعراء الانتساب لبعض القبائل فأخو الشماخ يغري كعب بن زهير إلى مزينة وغيرهم.

7- إنه كان من جمع الأشعار العربية، وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به لأنه كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار"[(1)] .

ويعد ابن سلام أن المصدرين الأساسيين لأخذ الشعر الموثوق به هما: أهل البادية وأهل العلم والرواية الصحيحة لان الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم وقد يختلف العلماء في بعض الشعر كم اختلفت بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه، ومثاله كالصيرفي الذي يفرق بين الدينار الجيد والرديء فأسلحة هؤلاء العلماء حسب ابن سلام تكمن في الذوق الذي يعد من أسلحتهم الخاصة لدراسة متواصلة للنصوص الأدبية وممارسة طويلة لحفظها وروايتها ومعاشرة أهلها، ثم ذوق أدبي رفيع عرفوا به سابقا"[(2)]

هذه المواهب الناشئة استطاعت أن تخلق البذور الأولى لعلم ناشئ جديد- الشعر- يستمد روحه من الشعر وماء حياته ما يلهم به هؤلاء الشعراء وهو النقد "وقد وصلت إلينا تباشير النقد الجاهلي بشكل هين يسير ملائما لروح العصر، ملائم للشعر العربي نفسه، فكما كان الشعر الجاهلي إحساسا محضا أو يكاد, فقد كان النقد كذلك وكلاهما قائم على الانفعال والتأثر"[(3)]

والواقع انه منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن الكريم, راح العرب يتأملون روعة بنائه وجمال آياته وتناغم كلماته وسحر عباراته، وهم أهل الفصاحة المعدودين بالبلاغة" وعلقت أفئدتهم وأسماعهم بما جمع من كلام رائع، فلم يسعهم إزاءها إلا التسليم بروعة أثره في النفوس وفي العقول، واعترف بلغاؤهم وأولوا الفطن منهم بذلك الأثر, وتحيروا فيه، فمن قائل إنه سحر، ومن قائل إنه شعر، ومن قائل إنه أساطير الأولين أو سجع الكهان"[(4)]

---

(1) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص 40.
(2) د/ منير سلطان ، ابن سلام وطبقات الشعراء، ص 189.
(3) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء- مقدمة المحقق طه ابراهيم ،ص16.
(4) محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، تقديم محمد خلف الله أحمد دار المعارف مصر ص 27.

كما أن مدلول الشعر الذي حاول البعض انتحاله وتغيير أسسه ، ورسالة الشاعر التي حددها القرآن الكريم وأبرز الرسول صلى الله عليه وسلم معالمها قد ألقت بظلالها في كتابات النقاد الأوائل وهذا مع علمهم أن "طبيعة الدين غير طبيعة الشعر ورسالة الأديان بالضرورة غير رسالة الشعراء والرسول صلى الله عليه وسلم بالتالي ليس بشاعر وكتابه ليس بشعر"[1] ولم يكن ذلك الموقف سهلا على أديب العصر الذي يريد "أن يكون مخلصا لواقعه الجديد صادقا في التعبير عنه، والذي يجد نفسه من جهة أخرى محاصرا بقيم وتقاليد فنية عمل الزمن الطويل على ترسيخها وتأكيدها"[2]

ومن الذين حاولوا التأسيس لهذا العلم من خلال طرح لجملة من القضايا النقدية في الانتحال بعد ابن سلام، الجاحظ أديب العربية الذكي" ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتبا فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت في الجاحظ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة"[3]

فهذه الأدوات تصلح في كل عصر ويستخدمها الناقد ويقيس بها وطالما أن النقد دراسة وممارسة ثم ذوق رفيع فيعني أن ابن سلام وغيره عني بمبدأ الدراسة للنصوص الشعرية المختلفة لأن كثرة المدارسة لتعدي على العلم به، وهو يخلص للقضية من المقدمة إلى آخر ما يتصور أنه نجح في عرضها عرضا كافيا،وهو لا ينئ يطبق ما ينادي به من ضرورة اليقظة أما النص الأدبي و البحث فيه، وهو بذلك يريد أن يزيد أمورا جديدة لهذه القضية لأنه في الحقيقة يقدم رسالة كلف بها عن وعي ووضوح.

---

(1) عبد الرحمن خليل إبراهيم: دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1971، ص 241.

(2) عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي: الرؤية والفن، دار النهضة العربية للطباعة بيروت 1975 ص 323.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني, ط 2، دار المعارف مصر، ص 610.

اللحن:

فمشكلة اللحن من المشكلات التي لازمت اللغة العربية منذ زمن بعيد واعتقد أن طبيعة اللغة أوجدت اللحن في صورته البسيطة من خلال اختلاف النطق لبعض الألفاظ، أو تحريفها عن موضوعها عند بعض القبائل وإن كان في صورته العامة يعد لحنا، ولكنه كان مستساغا لأنه لحن لا حيلة فيه، وكان مما هو معروف أن قامت الأسواق والنوادي الأدبية مع نزول القرآن الكريم، وتصور معانيه، وتصدر قريش للقبائل بدور فعال في سد الثغرات بين اللهجات العربية، فأصبحت هناك لغة أدبية راقية تختلف عن المنطوقة، وهي تعد من أدوات الأديب الناجح والعملي، وأول من نطق بها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فقد خاطب الناس وافهمهم وفهموا عنه، بالرغم من أن قريش قد وقعت في الشاذ والغريب وكذا الاستثناء في اللغة والنحو.

واللحن بصورته الجديدة، هو الخطأ في نطق نهاية الألفاظ الناتج عن جهل قواعد النحو، وبعد السليقة العربية بطغيان المولدين، وانتشار أسباب الحضارة، وهذه الأمثلة توجد في كتب الجاحظ والمبرد، كما أن هذا اللحن تفشى وأصبح مرضا خبيثا قد انتشر واستطاع أن ينسل بين صفوف الناطقين بالضاد، عجما كانوا أم عربا، خلفاء وعلماء، وربما هذا يرجع إلى الثقافات المختلفة الوافدة من الكوفة والبصرة والعراق، وبلاد فارس واليونان وغيرهم، فهذه الحضارات قد تسبب خلطا في اللغات خاصة بين اللغات الآرامية والفارسية والعربية"[(1)]

وكان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية وكان أول من أسس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي وهو ظالم بن جندل، وكان رجل أهل البصرة وكان علوي الرأي...فكان سراة الناس يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم"[(2)]. وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ،وكان غير موثوق به ،كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار ...وأخبرنا ابن سلام قال :سمعت يونس يقول:العجب لمن يأخذ عن حماد وكان يكذب ويلحن ويكسر..."[(3)]

ونحن نستحب لمن قبل عنا واهتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول، شنيع الكلام ورفت المزح، كان رسول الله صلى الله

---

(1) د/ منير سلطان : ابن سلام وطبقات الشعراء ، ص 199.

(2) ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء ،تمهيد الناشر جوزيف هل ،دراسة طه إبراهيم،دار الكتب العلمية بيروت لبنان،ط1402،1هـ/1982، ص29.

(3) المصدر نفسه ،ص40.

عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا، ومازح عجوزا فقال:" إن الجنة لا يدخلها عجوز" ..."[1]

ولما عد اللحن أكبر القضايا خطورة على ضياع اللغة ومعانيها، فقد حاول معظم الأدباء على التقليل من تفشي هذه الظاهرة أن كتبوا فيها في مؤلفاتهم يدعون إلى التخلص منها قبل فوات الأوان فهذا ابن قتيبة يقول:" ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك على كل حال وديدنك في كل مقال, بل الترخص مني فيه عند الحكاية...وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت وثلموا أديانهم وتورعت، وكذلك اللحن إن مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده لان الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر النادرة حلاوتها"[2]

ويخاطب الأصفهاني كل من يهتم بالإبقاء على سلامة اللغة ودلالاتها بالعمل على ما ورد في مقدمة كتابه حين قال مخاطبا:" واعتمد في هذا على ما وجد لشاعره أو مغنيه، أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبرا يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه، على أقصر ما أمكنه وأبعده من الحشو والتكثير بما تقل الفائدة فيه"[3]

فكثير من الأدباء والكتاب يثير المشكلة في مقدمته النقدية، في اتهامه ليونس بن حبيب حماد الراوية بأنه كان يكذب ويكسر ويلحن، وهو سبب ظهور هذه المشكلة " على ما قالت العلماء في حماد وخلف وابن دأب وأضرابهم ممن نحل القدماء شعره فاندمج في أثناء شعرهم، وغاب في أضعافه...وفي العصر الذي فسد فيه اللسان واختلطت اللغة وحظر الاحتجاج بالشعر وانقضى من جعله الرواة ساقة الشعراء"[4]

ولهذا كانت العناية الأولى بالغة استجابة إلى ما توجبه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغوية، وما ترمي إليه من دقيق الدلالة والمغزى وصحيح المبنى والمعنى فكان "القصد من تأليف المعاجم وكتب اللغة حراسة القرآن من أن يقتحمه خطا في النطق أو الفهم وحراسة العربية من أن يتقحم حرمها دخيل لا ترضى عنه العربية، وصيانة هذه الثروة من الضياع بموت العلماء، ومن يحتج بلغتهم، فكما أن كتابة المصحف كانت بسبب استحرار القتل في الصحابة حفظة القرآن، والخشية من أن يضيع شيء منه فكذلك دونت

(1) ابن قتيبة: أدب الكاتب، ص 11 (من المقدمة).
(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص (م) المقدمة .
(3) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ص 12 (المقدمة).
(4) القاضي الجرجاني: الوساطة، ص 17.

اللغة بواسطة المعجمات والكتب اللغوية خشية من أن يضيع بعض موادها أو يتدسس إليها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها"[1]

وكلما اقتربنا من بزوغ الدولة العباسية" لمسنا تبليل الألسنة وضياع السليقة وانتشار اللحن الذي أصبح يهدد السليقة العربية وناطقوا اللغة الفصيحة آنذاك، هذه المشكلة جعلت العلماء يجمعون اللغة ويحافظون على صيانتها وتنقيتها من شوائب اللحن والوقوع في الخطأ والخطل والتحريف، فهب أبو الأسود الدؤلي إلى نقط المصحف نقطا يعين حركات أواخر الكلم فيه أي الإعراب، إلى جانب تأليف العديد من الكتب التي تحارب هذه المشكلة وضرورة التخلص منها بأسرع وقت كما فعل الكسائي من خلال تأليفه كتاب (لحن العامة)"[2] .

هذه الأعمال الأدبية هي البنية الأساسية التي لابد من الرجوع إليها والاعتماد عليها في كل دراسة سواء كان في الأدب عامة أو للشعر خاصة، بل لابد منه لكل من له صلة باللغة العربية ككل تعلما أو تعليما، كتابة أو إلقاء أو تعاملا، سماعا أو رؤية، هذا التنوع الأدبي للأعمال كان له دور كبير في وجود علوم كثيرة كالنحو والصرف، المعاني والبيان والبديع، علوم اللغة والمعاجم وكان له أثر طيب في الدراسات الدينية والفلسفية والنفسية والنقدية والإنسانية وغيرها، فهي حقيقة كنز ثمين، ونبع فياض من ينابيع الثقافة العربية والعلوم والفنون الأدبية التي ستبقى خالدة ما دام هناك أناسا يمتلكون هذه الملكة السحرية.

(1) أحمد عبد الغفور عطار: مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين بيروت ط 1 القاهرة 1956 ، ص 42

(2) المرجع نفسه ،ص43. ..

خاتمة

خاتمة:

كان لابد أن ينتهي هذا البحث إلى غاية ،وأن يكون للقلم حد ينتهي إليه ،بعد هذه الجولة التي نحسبها قد طالت بين هذه التموجات والتيارات المتضاربة والمسالك المتنوعة التي خاض فيها نقدنا القديم ،والتي نرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألمت بأهم مناحيها وسائر اتجاهاتها .والجوهر من كل ذلك أن تكون المقدمات قد وجدت الصدى وروح الأهمية في طليعة كل كتاب وتأليف وأن تقيم لنفسها صرحا متميزا ينهض على دعائم ثابتة ،وأن تكون له معالم واضحة مستقلة يتميز بها عن غيره من النصوص الأخرى .

وكنت أريد أن أقول من وراء كل ما سبق في هذا البحث ،أن التأليف هو أن نهتم اهتماما عادلا متساويا بنصين اثنين :النص المتن والنص الذي يوازيه ،ذلك بأن كل نص (متن)هو في أمس الحاجة إلى نصه الموازي ،فهو اسمه ولباسه والصورة التي يقابل بها القراء.

باعتبار أن المقدمة نص يتجدد مع كل قراءة لا ينتهي ولا يستنفد ،وهذا ما يميز الأعمال الشعرية الفنية ، وذلك أن من المهام الأساسية في دراسة أي نص هي تحليل علاماته التشكيلية التي تميزه عن غيره من أنماط الإبداعات ،وهذه العلامة أو الميزة هي التي تساعد على معرفة حدود بداية النص وانطلاقه الفعلي .

كما أن المقدمة المحكمة البناء تشد القارئ إلى النص وتجعله يتابعه إلى النهاية أو العكس ،وهي تخبره أيضا عن الجنس الأدبي الذي سار عليه النص ،مما يفتح له أفق الانتظار كما يقول أصحاب نظرية القراءة والتأويل ،وهذه الصفة هي التي تساعد على حل قضايا العملية الأدبية التي يطرحها النص من خلال القراءة الواعية لها واستخلاص مقاصد العلماء الحقيقية تجاه ذلك الموضوع الذي حددوه في مقدماتهم النقدية.

وكثير من الكتاب اعتبروا هذه المقدمات عنصرا من عناصر الإبداع خاصة حين قال أسامة بن المنقذ "أحسنوا الابتداءات فإنها دلائل البيان" وبالتالي فهي خطاب بدئي ضروري لكل تأليف وإبداع وفن .

للموضوع النقدي خصائصه البنائية التي تجعل منه كيانا مستقلا داخل النص الواحد أو عبر نصوص متعددة – المقدمة – وهذه الإستقلالية تأتي من عناصره الجزئية ومن العلاقات القائمة بينها -القوانين الشعرية- لكن هذه الاستقلالية لا تمنع قيام علاقات بين الموضوعات والقضايا النقدية وأجزاء النص وبخاصة في اطار الأعمال النقدية الكبرى مثل كتب (الشعر والشعراء ،الوساطة، الصناعتين ...) التي تتكون من مجموعة من القضايا النقدية المتكاملة ذات الطابع الشعري الذي سيظل مؤشرا على نجاح هذه المقدمات أو هذا النوع من الخطاب والتأليف النقدي القديم.

ويبدو جليا ظهور شعرية التأليف عند القدامى من خلال استخدامهم للشعرية خاصة حين قارنوا بين الخطابة والشعر وضبطوا المقادير المتبادلة بين الجنسين وكيفية مداخلة الواحد منهما للثاني ذلك أنه إذا اشترك العرب القدامى في استخدام الصناعة الشعرية ،وكان الشعر مركز اهتمامهم والجنس الذي شغلهم دون سائر الفنون الأدبية ،ويبقى اختيار المؤلف ومنهجه وطريقته هي التي تحدد نجاحه وتفوقه الأدبي .

ويجب أن نعرف كذلك أن شعرية المقدمة في إبداعات العلماء القدماء تخلق جوا من التحاور والعلاقات المتشابكة بين النص والمتلقي بوصفها بعدا آخر للفجوة ،وهذا ما نجده من خلال وعينا بجوهر الشعرية وعلاقاتها بالفكر النقدي التراثي ،بما فيه من لغة وصورة وبما فيه من وحدة وعي بين الشعر والنثر والفكر من خلال علاقتها بالكتابة والقراءة والثقافة ،وهي في الوقت نفسه تساعد النص ليكون مرئيا قبل أن يكون مقروءا ،لأن شعرية المقدمة تبين أولا وأخيرا شعرية الكتاب كله .

ولا بد أيضا أن نعي أن شعرية هذه المقدمات تعد ميراثا واسعا وعلى أن رسم الحدود لها يقتضي الإحاطة بكل ما يطرأ أو يتجدد من أفانيد الكلام وكافة الإبداعات بصفتها نظرية قرائية واعية ومشروع دلالي مهم له دوره التفاعلي في إظهار الخصائص النوعية للخطاب الأدبي النقدي وإعطائه حقه من التميز والتفرد وكذا الدراسة اللازمة والعناية الفائقة ،كونه رسالة حية تنمو وتتسع مع الوقت وباستمرار .

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريـم

1/ ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: تح أحمد محمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر ج1.

2/ابن أبي الحديد:الفلك الدائر على المثل السائر،تح وتعليق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة،ط2، 1984م.

3/ ابن جني الخصائص: تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية بيروت، لبنان ج1.

4/ ابن رشيق القيرواني:العمدة في محاسن الشعر وآدابه،تح محمد قرقزان،دار المعرفة بيروت ط1، 1988م.

5/ ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية بيروت ط2، 2005م

6/ ابن سلام محمد الجمحي:

- طبقات الشعراء،تمهيد جوزف هل ودراسة طه أحمد إبراهيم،دار الكتب العلمية بيروت،لبنان ط1،1402هـ- 1982م.

- طبقات فحول الشعراء تقديم محمود محمد شاكر، دار المدني لجدة، المؤسسة المصرية.

7/ أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، شرح د/ عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت لبنان.

8/ أبو العباس المبرد: الكامل، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت ج1.

9/ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج1، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة.

10/ أبو الفرج قدامه بن جعفر البغدادي: نقد النثر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1402هـ - 1982م.

11/ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مراجعة وضبط عبد الله العلالمي وموسى سليمان وأحمد أبو سعد، م1 دار الثقافة بيروت.

12/ أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتح محمد الحبيب، ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1981م.

13/ أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة، تح د/ عبد المنعم أحمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة العراق بغداد.

14/ أبو جعفر ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير آي القرآن، دار الفكر بيروت 1978م ج1.

15/ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة:

- الشعر والشعراء، دار صادر بيروت.

- أدب الكاتب ، تحقيق وشرح وضبط محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل ط4، 1963م.

- عيون الأخبار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، م1، ج1، 1342هـ - 1925م.
16/ أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ج1.
17/ أبو علي أحمد بن الحسن المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، نشره أحمـد أميـن وعبـد السـلام
هارون، م1، دار الجيل بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
18/ أبي علي القالي: الأمالي تح صلاح بن فتحي هلل وسيد بن عباس الجليمي، المكتبة العصرية بيروت، ط1، 1422هـ - 2001.
19/ أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة، تح الدكتور جمال طلبة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 2001م.
20/ أبو عثمان الجاحظ:
- البيان والتبيين: تح وشرح عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخامجي، القاهرة ط3، 1968م ج1.
21/ أبو هلال العسكري: الصناعتين، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1981م.
22/ أحمد بن الحسين الزوزني:شرح المعلقات السبع،تح محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع القاهرة، 1994م.
23/ الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح أحمد صقر دار المعارف القاهرة، 1961م.
24/ الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ضبط وشرح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية بيروت، 1997م.
25/ المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي
القاهرة 1965م.
26/ محمد بن علي الجرجاني:
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم بيروت، لبنان.
27/ عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، دار القلم لبنان، ط5 1984م.
28/ عبد القاهر الجرجاني:
- أسرار البلاغة، تح د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 2001م.
- دلائل الإعجاز، تح د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 2001م.

المراجع:

29/ أحمد عبد الغفور عطار: مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت القاهرة، ط1، 1956م.

30/ أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، 1995م.

31/ د/ إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت لبنان ط1، 1978م.

32/ أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب بيروت ط1، 1989م.

33/ د/ أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس هجري، ترادريس بلمليح، دار توبقال المغرب ط1، 1993م.

34/ د/ الطاهر بومزبر: أصول الشعرية العربية، الدار العربية للعلوم الجزائر، ط1، 2007م.

35/ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، مكتبة الانجلو المصرية ط4 القاهرة 1968م.

- التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية ط1ن 1382هـ - 1963م القاهرة.

36/ بطرس البستاني: أدباء العرب(منتقيات) في الأعصر العباسية، دار مارون عبود.

37/ جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، ضمن مجلة عالم الفكر م25، ع3، 1973م.

39/د/ حبيب مونسي: نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، دار الغرب للنشر، 2000-2001م.

40/ د/حسن مصطفى سحلول:نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها،إتحاد كتاب العرب دمشق 2001.

41/ د/ حسن عبد الله شرف: النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام.

42/ د/حسين عطوان:مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول،دار الجيل بيروت لبنان ط2، 1987م.

44/ د/ درويش الجندي: نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة 1960م.

45/ د/زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر 1994.

46/ د/ محمد بركات حمدي: دراسات في الأدب، دار وائل ط1، 1999-2000م.

47/ د/ محمد خضر: النقد الأدبي عند العرب، الخطوات الأةلى، دار العلم والإيمان للنشر 2007م.

48/ د/ محمد زكي العشماوي:

- قضايا النقد الأدبي والبلاغة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الشروق، ط1، 1994م.
49/ د/ محمد زغلول سلام:
- ابن قتيبة، دار المعارف بمصر 1957م.
- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري،تقديم محمد خلف الله أحمد دار المعارف مصر.
50/ د/ محمد عبد المنعم خفاجي:
- أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1982م.
- النقد العربي الحديث ومذاهبه، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ط2.
51/ د/ محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر، ط1 لونجمان 1994م.
52/ د/محمد مندور:النقد ومناهجه عند العرب،ومنهج البحث في الأدب واللغة،نهضة مصر،إشراف داليا محمد إبراهيم 2004م.
53/ د/ محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر الجزائر 1981م.
54/ د/ محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط6،1987م.
55/ محمد مصطفى هدارة: مشكلات السرقات في النقد الأدبي، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الأنجلو المصرية ط1، 1958م.
56/ محمود إبراهيم:أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم،الدار المتحدة للكتاب تونس 1985م.
57/ محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدار العربية للكتاب ليبيا، 1984م.
58/ د/ منير سلطان: ابن سلام وطبقات الشعراء، منشأة المعارف الأسكندرية 1977م.
59// د/ مصطفى الصاوي الجويني: تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، كلية الآداب دار المعرفة الجامعية ط5، 1999 – 2000م.
60/ د/ مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين بيروت ط4، 1982م.
61/د/مصطفى سلوي: عتبات النص، المفهوم والموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب رقم 71 2003م.
63/د/ نجوى محمود صابر: الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس هجري، دار الوفاء لدنيا الطباعة الإسكندرية ط1، 2006م.
64/ د/ عبد الله التطاوي: الموقف الفكري والنقدي في إبداع أبي تمام، دار غريب القاهرة 2003م.
65/ د/ عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة فيلا النقد العربي، مكتبة الخامجي بمصر، 1980م.

66/ د/ عبد العزيز عتيق: تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية بيروت لبنان.
67/ د/ عبد الرؤوف مخلوف: إعجاز القرآن للباقلاني، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1973م.
68/ د/ عبد القادر القط: مفهوم الشعر عند العرب، ترجمة عبد الحميد القطن دار المعارف 1982م.
69/د/ عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، دار الفكر العربي 1978م.
70/ د/ عبد الفتاح عثمان: نظرية الشعر في النقد العربي القديم، دار المعرفة الجامعية، ط3، 1991م.
71/ عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، الـــدار
العربية للعلوم ط1، 2008م.
72/ د/ عبد الله العروي: المنهجية بين الإبداع والإتباع، المنهجية في الآداب والعلوم الإنسانية.
73/ د/ علي الجندي: عيون الشعر العربي القديم، دار غريب للطباعة القاهرة ج1، 2000م.
74/ عز الدين إسماعيل:روح العصر،دراسات نقدية في الشعر والمسرح،دار الرائد العربي بيروت 1978.
75/ د/عمار بوحوش:دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985م.
76/ د/ سعد سليمان حمودة، دروس في المكتبة العربية،دار المعرفة الجامعية 2005.
77/ د/ شوقي ضيف:
- النقد، دار المعارف بمصر ط3، 1974م.
- تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الثاني – دار المعارف بمصر ط2.
78/ د/ يونس وغليسي: الشعريات والسرديات، دار أقطاب الفكر قسنطينة 2006.

المراجع المترجمة:

79/ إيديث كيرزويل: عصر البنيوية، ترجمة د/ جابر عصفور، عيون المغرب ط2، 1986م.

80/ جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر المغرب ط1، 1996م.

81/ ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديث، ترجمة د/ إحسان عباس ود/ محمد يوسف نجم، دار الثقافة بيروت ج1ن 1981م.

82/ يوهان فك: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تح د/ عبد الحليم النجار، تقديم د/ محمد يوسف موسى، الدار المصرية للطباعة القاهرة 2006.

83/ Geude froy demonlynes : Introduction ou livre de la poésie et des poètes, Introduction et commentaire par Geude froy demonlynes, idition les belle lettres paris 1949.

المعاجم:

84/ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م، ج3، ج7.

85/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي ج4.

86/ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1993م ج6.

الرسائل:

87/أحمد شنة:ابن قتيبة الناقد،المصطلح النقدي عند العرب في القرن الثالث هجري من خلال كتابي: طبقات الشعراء،الشعر والشعراء،مخطوط ماجيستير معهد الآداب واللغة العربية جامعة باتنة 1997/1996.

المحاضرات:

88/محاضرات في مادة الشعرية:إعداد الدكتور علي خذري ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها عام :2004/2003.

فهرس الموضوعات

الفهرس

مقدمة ....أ - د
المدخل : المقدمات النقدية والكتابة في التراث العربي القديم
1- مفهوم المقدمات ونشأتها...9-6
2- النص الموازي وأهميته...11-10
3- أنواع المقدمات ووظائفها 16-12
4- المقدمة والكتابة........ 24-17
الفصل الأول: مكونات خطاب المقدمة
1- البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم والتشهد...40-28
2- دواعي التأليف(ذاتية وموضوعية) 47-41
3- جنس التأليف 50-47
4- خطة التأليف 51-50
5- تقريظ التأليف(عنوان التأليف ووظائفه).. 55-52
6- المصادر أو مكتبة التأليف 56
7- نقد المصادر السابقة 58-57
8- زمان ومكان التأليف 59
9- الحمد والشكر.. 60.-65
الفصل الثاني: أصناف المقدمات
1- المقدمات النقدية 81-67
2-المقدمات اللغوية 93-82
3-المقدمات التأليفية 100-94
4-المقدمات البلاغية 116-101
الفصل الثالث: القضايا النقدية في المقدمات
1- تقسيم الشعراء إلى طبقات..129-120
2- اللفظ والمعنى..137-130
3-. الطبع والصنعة..142-138
4- المنظوم والمنثور...145-143
5-. القدم والحداثة 147-146
6- الانتحال..150-148
7- اللحن...153-151
خاتمة 156-155
قائمة المصادر والمراجع 162-158
فهرس الموضوعات 164